صاحبة الرواية الأكثر مبيعًا

فتاة القطار

على نار هادئة

1021

باولا هوكينز

مكتبة

ترجمة: الحارث النبهان

إهداء لـ ...

سما

لا أحد يفوز حتي يحصل على إهداء
الكتاب يفوز بأن يحمل اسمكم في الإهداء

باولا هوكينز

على نار هادئة

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/t_pdf

مكتبة
t.me/t_pdf

30 10 2022

الكتاب: على نار هادئة، رواية

تأليف: باولا هوكينز

ترجمة: الحارث النبهان

عدد الصفحات: 336 صفحة

الترقيم الدولي: 978-614-472-199-5

الطبعة الأولى: 2022

هذه ترجمة مرخصة لرواية
A SMALL FIRE BURNING
تأليف *Paula Hawkins*
© *Paula Hawkins Ltd, 2021*

الناشر:

منشورات الرمل

منشورات الرمل

الإمارات العربية المتحدة

مدينة الشارقة للنشر - الشارقة، هاتف: 00971529481646

توزيع حصري: دار التنوير

مصر: القاهرة - جاردن سيتي - 2 شارع فؤاد سراج الدين (السريا الكبرى سابقًا) - الدور الأرضي - شقة رقم 2

تونس: 16 الهادي خفشة - عمارة شهرزاد - المنزه 1 - تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

Manshoorat Alraml is an Imprint of Dar Altanweer

باولا هوكينز

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/t_pdf

على نار هادئة

ترجمة
الحارث النبهان

منشورات الرمل

هذا الكتاب مكرّس لذكرى ليز هوينيدل
سكوت، التي كان ألقها يجعل العالم
مكانًا أكثر دفئًا. سوف نفتقدها إلى الأبد.

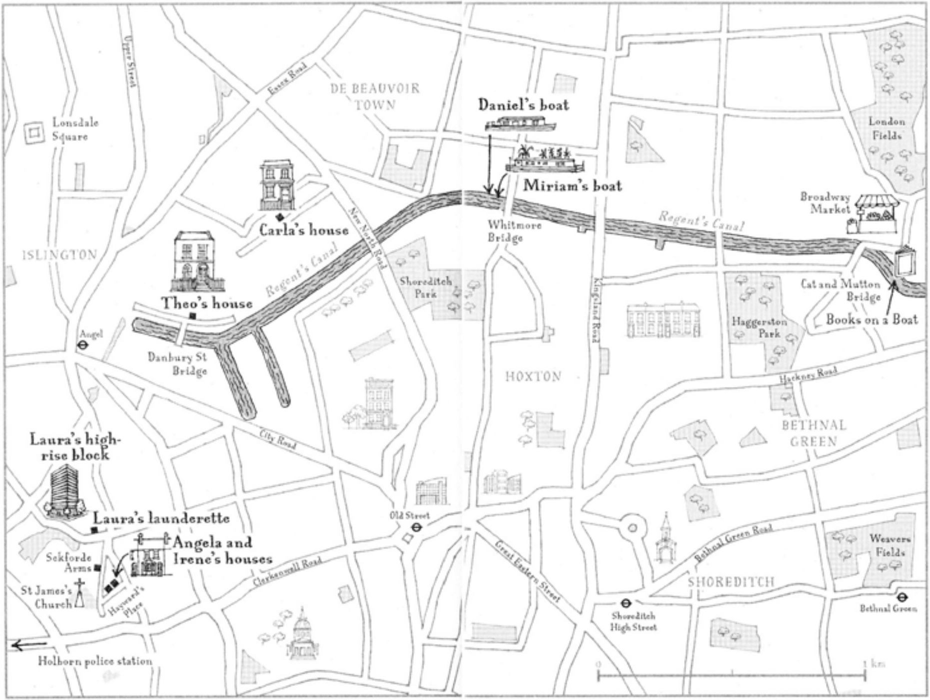

DE BEAUVOIR TOWN
Essex Road
Upper Street
Lonsdale Square
ISLINGTON
Angel
Carla's house
Theo's house
Regent's Canal
New North Road
Danbury St Bridge
City Road
Laura's high-rise block
Laura's launderette
Angela and Irene's houses
Sekforde Arms
St James's Church
Hayward's Place
Clerkenwell Road
Holborn police station
Shoreditch Park
Old Street
Daniel's boat
Miriam's boat
Whitmore Bridge
HOXTON
Kingsland Road
Great Eastern Street
Shoreditch High Street
Regent's Canal
Broadway Market
London Fields
Cat and Mutton Bridge
Books on a Boat
Haggerston Park
Hackney Road
BETHNAL GREEN
Bethnal Green Road
SHOREDITCH
Weavers Fields
Bethnal Green
0
1 km

«من طبْع بعضنا أن يقتاتَ على الجيَف؛ ومن طبْع بعضنا أن يقع في الفخّ».

إميلي سكايا، «تاريخي مثلما هو»

تخطو الفتاة مترنّحة، وتدخل السواد مخضّبة بالدم. ملابسها ممزّقة، متدليةٌ على جسدها الفتيّ، كاشفةٌ مساحات من لحم شاحب. حذاؤها ضاع. قدماها نازفتان. إنها في عذاب؛ لكن الألم ما عاد مهمًا إذ طغت عليه معاناة أخرى.

وجهُها قناعٌ من ذعر. قلبُها طبلٌ يدق. وأنفاسُها أشبه بلهاث ثعلب أُردي أرضًا.

همهمة خفيضة تكسر صمت الليل. أهي طائرة؟ مسحت الفتاة الدم عن عينيها، ورفعت رأسها إلى السماء ناظرة، فما رأت فيها غير النجوم.

همهمةٌ تعلو صوتها، ثم تنخفض. أهي سيارة تغيّر سرعتها؟ أتراها بلغت الطريق الرئيسية؟ يتفاءل قلبها، ومن مكان عميق في باطنها، تستجمع قواها وتجري.

تحسّ نورًا من خلفها، تحسّه أكثر مما تراه. تحسّ هيكلها منارًا في السواد، وتدرك أن السيارة آتية من خلفها. إنها آتية من المزرعة. تستدير.

تعلم قبل أن ترى... تعلم أنه عثر عليها. تعلم قبل أن ترى أن الوجه الذي خلف مقود السيارة وجهه. تتجمّد في مكانها. تتردّد ثانية واحدة، ثم تترك الطريق وتنطلق راكضة. تنزل خندقًا. تتسلّق سورًا خشبيًا وتجتازه إلى الجهة الأخرى. تتعثّر في الحقل المجاور، وتجري بعينين معميَّتَيْن. تسقط. تتحامل على نفسها وتنهض واقفة من غير أن يصدر عنها أي صوت. ما نفع الصراخ؟ مكتبة

وعندما يمسك بها، تُطبق يده على خصلات شعرها، ويشدها إلى أسفل. تستطيع أن تشم أنفاسه. تعلم ما سيفعله بها. تعلم ما هو آتٍ لأنها رأته يفعله قبل ذلك، رأته يفعله بصديقتها، فبأية وحشية...

«أوه، بحقّ الرب!...»، تقولها إيرين بصوت مرتفع، ثم تغلق الكتاب وتعيده إلى رزمة الكتب في المتجر الخيري، «أيّ كلام فارغ هذا؟».

مكتبة
t.me/t_pdf

- 1 -

تتكلم ديدِره داخل رأس لورا. تقول، مشكلتك، *يا لورا*، هي *أنك تُقدمين على خيارات خاطئة*.

كلامك صحيح تمامًا، *يا ديدره!* ما كان هذا شيئًا توقّعت لورا أن تقوله، ولا حتى أن تفكّر فيه؛ لكنها كانت واقفة في حمّام بيتها، مرتعشة ارتعاشات لا تستطيع ضبطها، ودم ينبض نازفًا متواصلًا من جرح في ذراعها. كان عليها أن تقرّ بأن ديدره المُتخيَّلة غير مهتمة إلا بالمال. انحنت واستندت بجبهتها إلى المرآة حتى لا تعود مضطرّة إلى النظر في عينيها؛ لكن النظر إلى أسفل كان أسوأ من ذلك لأنها صارت قادرة على مراقبة دمها النازف منها، فانتابها دوار. أحسّت بأنها توشك على التقيؤ. دم كثير، كثير. كان الجرح أعمق مما ظنّت. عليها أن تذهب إلى قسم الإسعاف. لا يمكن أبدًا أن تذهب إلى قسم الإسعاف.

خيارات خاطئة.

عندما بدا لها آخر الأمر أن تدفّق الدم قد هدأ قليلًا، نزعت لورا قميصها وأسقطته إلى الأرض. خلعت بنطلون الجينز، ثم خلعت سروالها التحتي، وفكّت حمالة ثدييها. أنّتْ عبر أسنان مطبقة عندما مس مشبك حمالة الثديين المعدني جرحها. همست بصوت كالفحيح: «اللعنة على هذا. اللعنة على هذا».

ألقت حمالة الثديين على الأرض، فوق بقيّة ملابسها، ثم دخلت حوض الاستحمام وفتحت ماء الدوش. وقفت مرتعشة تحت قطرات الماء المنهمرة، قطرات الماء الحارّة حرارة حارقة (يعطي الدوش عندها ماء شديدة الحرارة، أو ماء شديد البرودة، ولا شيء بينهما).

مرّرت رؤوس أصابعها المتجعّدة على ندوبها الجميلة البيضاء كبياض الثلج؛ مرّرتها جيئة وذهابًا: ورك، وفخذ، وكتف، ثم جمجمة من جديد. قالت تخاطب نفسها بصوت منخفض، *ها أنا هنا*؛ *ها أنا هنا*.

بعد ذلك، بعد أن صارت ذراعها ملفوفة بورق المرحاض لفًا غير ذي نفع، وصارت بقيّة جسدها ملتفّة بمنشفة قديمة بالية، جلست لورا على أريكة الجلد الاصطناعي الرمادية القبيحة في غرفة المعيشة في بيتها، واتصلت بأمها. انتقل الاتصال إلى المجيب الآلي، فأغلقت الخط. لا معنى لإنفاق المال على هذا. بعد ذلك، طلبت رقم أبيها. «هل أنت بخير، يا دجاجتي؟»، سمعت أصواتًا في الخلفية: صوت الراديو؛ البث الحيّ على القناة الخامسة.

«بابا»، أحسّت بغصّةٍ ترتفع إلى حلقها، فابتلعت ريقها، ابتلعت غصَّتها.

«ما الأمر؟».

«بابا، هل تستطيع أن تأتي إليّ؟ أنا... كانت ليلتي سيئة؛ ولست أدري إن كنت قادرًا على أن تأتي إلي قليلًا. أعرف أنك ستقود السيارة مسافة طويلة. لكن، أنا...».

سمعت في الخلفية صوت ديبدره يفحّ عبر أسنانها المطبقة: *«لا، يا فيليب. إن لدينا لعبة بريدج»*.

«بابا! هل يمكن أن تغلق السبيكر؟».

«حبيبتي، أنا...».

«أنا جادة... من فضلك، ألا تستطيع إغلاق السبيكر؟ لا أريد سماع صوتها، فهو يجعلني راغبة في إضرام النار في أشياء...».

«اهدأي الآن، يا لورا».

«انس الأمر، يا بابا. لا أهمية له».

«هل أنت متأكدة؟».

لا، لست متأكدة. لا، لست متأكدة. لا، لست متأكدة أبدًا.

«نعم، بالتأكيد. أنا بخير. سوف أكون بخير».

في طريقها إلى غرفة نومها، داست على سترتها التي أسقطتها في الممر في غمرة اندفاعها إلى الحمام. انحنت ورفعت السترة. كان كمّها ممزقًا. لا تزال ساعة دانييل في جيبها. أخرجت الساعة وقلبتها على وجهها. وضعتها حول معصمها. بقعة من دم قرمزي تفشّت في ورق المرحاض الملفوف على جرحها. أحسّت اهتزازًا واهيًا في ذراعها مع نبضات الدم النازف منها. ابتلّت رأسها. دخلت الحمام، وألقت بالساعة في المغسلة. مزّقت ورق المرحاض فأزالته عن ذراعها. أسقطت المنشفة على الأرض. دخلت حوض الاستحمام من جديد.

وقفت تنظر إلى الماء يستحيل لونه ورديًا تحت قدميها وهي تستخدم رأس المقص لقشط الأوساخ من تحت أظافرها. أغمضت عينيها. أصغت إلى صوت دانييل يسألها، *ما مشكلتك؟* أصغت إلى صوت ديدره، لا، يا فيليب، إن لدينا لعبة بريدج. ثم أصغت إلى صوتها يقول: «إضرام النار في أشياء. إضرام النار. إضرام النار، إضرام النار، إضرام النار».

- 2 -

تُفرغ ميريام خزّان المرحاض يوم الأحد، كل أسبوعين. يكون عليها أن ترفع الحاوية (ثقيلة دائمًا، ثقيلة إلى حد مفاجئ، مزعج) من المرحاض الصغير في مؤخرة الزورق، ثم تحملها عبر الكابينة وتخرج بها إلى الرصيف المحاذي للماء. ومن هناك، تسير بها مئة ياردة كاملة حتى تصل إلى مبنى المراحيض حيث ينبغي إفراغ الفضلات في المرحاض الرئيسي، ثم جرفها بالماء. عليها بعد ذلك أن تغسل الحاوية حتى تزيل منها ما بقي عالقًا بها. واحدة من أكثر مهمّات العيش في قارب افتقارًا إلى الشاعرية. مهمّة تحب تنفيذها في وقت مبكر من الصباح، عندما لا يكون في المكان أحد غيرها. أمر مُزرٍ أن يمشي المرء حاملًا خراءه بين الغرباء، ومن ينزّهون كلابهم، ومن يخرجون للجري صباحًا.

خرجَتْ إلى سطح الزورق الخلفي حتى تتأكّد من خلوّ المكان، ومن أن ما من عقبة تعترض طريقها... دراجات أو زجاجات فارغة (من الممكن أحيانًا أن يكون الناس معادين للمجتمع إلى حد كبير، في الساعات المتأخرة من ليالي السبت خاصة). كان صباحًا مشرقًا، باردًا بالمقارنة مع صباحات شهر آذار؛ لكن براعم بيضاء على الأغصان الجديدة اللامعة، أغصان الحور والبتولا، كانت توحي بقرب الربيع.

صباح بارد بالنسبة إلى صباحات شهر آذار. لكنها لاحظت، مع ذلك، أن باب كابينة الزورق المجاور مفتوح، تمامًا مثلما كان في الليلة الماضية. إذًا، هذا أمر مستغرب! الحقيقة أنها كانت قد اعتزمت التحدث إلى شاغل ذلك الزورق، إلى شاغله الشاب. تريد أن تنبّهه إلى

أنه بقي هنا زمنًا أطول مما هو جائز له. إنه راس هنا منذ ستة عشر يومًا: يومان كاملان فوق المدة المحدّدة! أرادت إخباره بأن عليه أن يحرّك زورقه مع أن هذه ليست مهمتها، وليست مسؤوليتها. لكنها كانت -على العكس من أكثر الناس- مَعلِمًا ثابتًا من معالم هذا المكان؛ وهذا ما أكسبها حسًّا فريدًا بمتابعة ما هو عام، والاهتمام به.

على أية حال، هذا ما قالته ميريام للمحقّق باركر عندما سألها في وقت لاحق، *ما الذي جعلك تنظرين*؟ كان المحقّق جالسًا قبالتها تكاد ركبتيه تلامسان ركبتيها. كان جالسًا حانيًا كتفيه، مقوِّسًا ظهره. زورق صغير لا يمكن أن يكون مكانًا مريحًا لرجل طويل؛ وقد كان هذا الرجل طويلًا جدًّا، له رأس يشبه كُرة، وعلى وجهه تعبير امتعاض كأنه كان يتوقّع أن يقوم اليوم بأمر مختلف، بأمر فيه شيء من التسلية - من قبيل اصطحاب أطفاله إلى الحديقة- ثم وجد نفسه هنا، معها، ولم يكن سعيدًا بذلك.

سألها: «هل مسستِ شيئًا؟».

هل مسّت شيئًا؟ هل مسّت أيّ شيء؟ أغمضت ميريام عينيها. رأت نفسها تنقر نقرًا خفيفًا على نافذة الزورق ذي اللونين الأزرق والأبيض. انتظرت ردًا، صوتًا، أو إزاحة لستارة النافذة. انحنت على النافذة عندما لم يأتها رد، لكن محاولتها إلقاء نظرة إلى الداخل خابت لأن على النافذة ستارة رقيقة ولأن عليها طبقة من سخام النهر والمدينة بدا لها أنها متراكمة منذ عشر سنين. نقرت على النافذة مرة أخرى، ثم انتظرت بضع لحظات قبل أن تصعد إلى سطح الزورق الخلفي. نادت، *مرحبًا! هل من أحد هنا؟*

رأت نفسها تفتح باب الكابينة برفق بالغ وتشم، عندما فتحته، نفحة من رائحة شيء، رائحة حديد، رائحة لحم، رائحة تثير إحساسًا بالجوع. *مرحبًا!* فتحت الباب على اتساعه ونزلت الدرجتين المفضيتين إلى

الكابينة. ظلت آخر كلمة *«مرحبًا!»* عالقة في حلقها عندما التقطت عينها المشهد كلّه: الصبي راقد على الأرض -ليس صبيًا، بل شاب في حقيقة الأمر- ودمٌ في كل مكان، وحفرة في رقبته كأنها ابتسامة كبيرة.

رأت نفسها كيف وقفت مترنحة على قدمين غير ثابتتين، يدها على فمها، مائلة إلى الأمام لحظة طويلة مدوِّخة... تمدّ يدها وتمسك حافة الطاولة بيدها. *أوه، يا إلهي!*

قالت للمحقق: «لقد مسست الطاولة. أظنني بقيت ممسكة بها، واقفة هناك، إلى الناحية اليسرى من الكابينة، عندما دخلتَها. رأيته، ففكّرت... الحقيقة أنني أحسست... أحسست غثيانًا». تلوّن وجهها. «لكن هذا لم يكن غثيانًا، لم يأتني الغثيان عند ذلك. وفي الخارج... إنني آسفة، أنا...».

قال باركر ناظرًا في عينيها: «لا تتركي هذا الأمر يقلقك. ليس عليك أن تقلقي لهذا. ماذا فعلت عند ذلك؟ رأيتِ الجثة، وانحنيت فوق الطاولة...؟».

فاجأتها الرائحة مفاجأة شديدة. تحت رائحة الدم، ذلك الدم كله، كان هناك شيء آخر، شيء أقدم منه، شيء حلو، بائت، شيء مثل رائحة زنابق تُركت في المزهرية زمنًا طويلًا جدًا. الرائحة، ومظهر الفتى، مظهر تستحيل مقاومته، وجهه الجميل الميت، وعيناه الزجاجيتان من حولهما أهداب طويلة، وشفتاه الممتلئتان كاشفتان عن أسنان بيضاء منتظمة. جذعه، وكفّاه، وذراعاه... كانت كلها دم؛ أصابعه منحنية، أطرافها على الأرض. كأنه يحاول التمسك بها. وعندما استدارت لكي تخرج، لمحت عيناها شيئًا على الأرض، شيئًا مكانه ليس هنا -التماعة فضية غارقة في دم دبق بدأ يسودّ لونه.

صعدت الدرجتين بقدمين متعثرتين، وخرجت من الكابينة. عبّت الهواء عدة مرات. تقلّصت معدتها. تقيأت على ممر المرسى. مسحت فمها، ثم صاحت: «النجدة! فليتصل أحد بالشرطة!». لكن الساعة ما

كادت تبلغ السابعة والنصف من صباح يوم الأحد. ما من أحد هناك. كان الممر هادئًا، والطرق التي بعده هادئة أيضًا. لا صوت إلا هدير مولد الكهرباء ورفرفة أجنحة طيور بحريّة كأنها أشباح عابرة. نظرت إلى الجسر فوق القناة وظنت أنها رأت أحدًا هناك، لحظة واحدة فقط؛ لكن من رأته ذهب، وصارت وحيدة. أطبق عليها ذعر شلّ حركتها.

قالت ميريام للمحقق: «خرجت. خرجت من الزورق مباشرة و... اتصلت بالشرطة. تقيأت، ثم جريت إلى زورقي واتصلت بالشرطة».

«لا بأس، لا بأس».

عندما رفعت رأسها ناظرة إليه، كانت عيناه تتجولان في الكابينة منتبهتين إلى تفاصيلها الصغيرة، إلى رفّ الكتب فوق المغسلة (*الطهو في قدر واحدة*، *أسلوب جديد للخضار*،...)، والأعشاب على طوار النافذة، الحبق والكزبرة في وعاءيهما البلاستيكيين، وبخور مريم الذي تخشّب في وعائه المطليّ بلون أزرق. ألقى نظرة على رفوف الخزانة المملوءة كتبًا، وعلى «زنبقة السلام» المغبرّة القابعة فوقها، وعلى صورة في إطار فيها أب وأم بينهما طفلتهما ذات الأطراف الطويلة. سألها: «هل تعيشين وحدك هنا؟»؛ لكن هذا لم يكن سؤالًا حقيقيًا. أدركت ما كان يفكر فيه: عانس بدينة تقدمت بها السن، مدافعة عن الطبيعة، تلزم بيتها وترقب الناس من خلف ستارة نافذتها. تدس أنفها في شؤون الآخرين جميعًا. كانت ميريام تدرك نظرة الناس إليها.

«هل أنتِ... هل أنت على معرفة... بجيرانك؟ هل هم جيران؟ لا أظن أنهم يمكن أن يكونوا جيرانًا بالمعنى الحقيقي للكلمة لأنهم لا يبقون هنا أكثر من أسبوعين!»

رفعت ميريام كتفيها. قالت: «بعضهم يأتي ويذهب على نحو منتظم... لديهم هنا رقعة خاصة بهم، مساحة من الماء يحبون أن يظلّوا فيها. لذا، يصير المرء على معرفة بهم... إن أراد ذلك. لكن من الممكن أن يفضّل ألا يكون على علاقة بالآخرين. هذا ما أفعله».

لم يقل المحقّق شيئًا. اكتفى بأن نظر إليها نظرة لا تعبير فيها. أدركت أنه يحاول فهمها، وأنه لا يصدّق كلامها. لا يصدق بالضرورة ما قالته له.

«وماذا عنه؟ الرجل الذي عثرتِ عليه هذا الصباح؟»

هزت ميريام رأسها. «لا أعرفه. رأيته بضع مرات وتبادلنا... نعم، في حقيقة الأمر، لم نتبادل حتى النوع المألوف من المجاملات. كنت أقول له مرحبًا أو صباح الخير، أو شيئًا من هذا القبيل، فيجيبني بمثله. هذا كل شيء».

(ليس كل شيء تمامًا: صحيح أنها رأته بضع مرّات منذ أن أرسى زورقه هنا، وصحيح أنها عرفت على الفور أنه هاوٍ. كان زورقه في حالة مزرية -طلاء متقشّر، وحواف صدئة، ومدخنة معوجّة- في حين بدا هو نفسه أنظف كثيرًا مما يكون الناس الذين يعيشون في زوارق. ملابس نظيفة، أسنان بيضاء، لا وشوم، لا حلي. على الأقل، لا شيء من ذلك كلّه ظاهرًا. شاب جذّاب المظهر، طويل القامة، داكن الشعر، داكن العينين، تقاطيع وجهه وزواياه متناسقة. عندما رأته أول مرة، قالت له *صباح الخير*، فنظر إليها وابتسم ابتسامة جعلت الشعر أعلى رقبتها يقف منتصبًا).

تتذكّر أن هذا ما حدث أول مرة. لن تقوله للمحقق. *عندما رأيته أول مرة، انتابني ذلك الشعور الغريب*... سيظن المحقق أنني مجنونة. على أية حال، صارت الآن مدركة ما شعرت به. ما كان ترقّبًا، ولا توقّعًا، ولا أي شيء من هذا القبيل... كان إدراكًا.

ما من فرصة هنا. أتتها هذه الفكرة عندما أدركت أول مرة من يكون ذلك الفتى، لكنها لم تدر كيف تستفيد من ذلك بأحسن طريقة. ولكن، الآن، بعد أن مات، بدا لها أن هذا كله كان مُقدّرًا له أن يكون. حظ حسن!

«يا سيدة لويس!»، كان المحقق باركر يطرح عليها سؤالًا.

قالت ميريام: «آنسة».

أغمض عينيه لحظة، ثم قال: «يا آنسة لويس، هل تتذكرين رؤيته مع أي شخص؟ هل رأيتِه يتحدّث مع أحد؟».

تردّدتْ قليلًا، ثم أومأت له برأسها. قالت: «أتته زائرة. لعلها أتت مرتين! قد يكون أتاه زائرون آخرون، لكني لم أر غيرها. إنها امرأة، أكبر منه سنًا، في مثل سني تقريبًا، لعلّها في الخمسينيات! شعرها رمادي - فضي، قصير جدًا. امرأة نحيلة، أظنها فارعة الطول. أظن أن طول قامتها خمس أقدام وثمانية إنشات، أو تسعة إنشات. ملامح وجهها عادية...». رفع باركر حاجبيه: «هل يعني هذا أنك نظرت إليها مليًا؟».

رفعت ميريام كتفيها من جديد: «في الحقيقة، نعم. أنا دقيقة الملاحظة. أحب أن أنتبه إلى ما حولي من أمور». قد يكون هذا منسجمًا مع رأي مسبق كوّنه باركر عنها. « لكنها كانت من ذلك النوع من النساء، من ذلك النوع الذي تلاحظه حتى لو لم تكن شديد الملاحظة. امرأة شكلها يلفت الأنظار. قَصّة شعرها، وملابسها... بدا ذلك كله باهظ الثمن».

كان المحقق يومئ برأسه من جديد ويدوّن ذلك كله. أحسّت ميريام بنفسها واثقة من أن المحقّق لن يستغرق زمنًا طويلًا قبل أن يتوصل إلى معرفة المرأة التي تُحدّثه عنها. إلى معرفتها على وجه التحديد.

فور انصراف المحقق، طوَّق عناصر الشرطة ممر المرسى بين دو بوفوار وشيبرتون، وجعلوا الزوارق كلها تنتقل من المنطقة فلم يبق فيها غير زورقه - مسرح الجريمة، وزورقها. حاولوا أول الأمر إقناعها بأن تذهب أيضًا، لكنها أوضحت لهم أن لا مكان آخر لديها تذهب إليه. فأين يستطيعون إيواءها؟ كان عنصر الشرطة الذي تحدّثت معه شابًا ذا صوت ناعم، ووجه عليه بقع كثيرة. بدا حائرًا عندما نقلت مسؤولية إيوائها إليه وألقت بها على عاتقه. رفع رأسه ناظرًا إلى السماء، ثم

خفض رأسه ناظرًا إلى الماء. نظر على امتداد القناة، يمنة ويسرة، ثم عاد ينظر إليها، إلى هذه المرأة القصيرة البدينة المسالمة التي بلغت أواسط العمر، ثم رضخ. كلّم أحدهم في جهاز اللاسلكي، ثم عاد وقال لها إن في وسعها أن تبقى. قال: «تستطيعين الذهاب إلى... إلى... مسكنك، والعودة منه. لكن، ليس أكثر من ذلك». بعد ظهر ذلك اليوم، جلست ميريام على سطح زورقها الخلفي تحت ضياء الشمس الفاتر، مستفيدة من الهدوء غير المعتاد الذي حلّ على القناة بعد إقفالها أمام الناس. بطانيةٌ رفعتها حتى كتفيها، وفنجان شاي عند مرفقها. راحت تنظر إلى عناصر الشرطة وإلى المحقّقين الذين يتفحّصون مسرح الجريمة. كانوا يأتون ويذهبون، ويجلبون كلابًا، ويجلبون زوارق، ويفتشون ممر المرسى والمساحات المحاذية له، ويدفعون بعُصيّ السبر في الماء العكر.

أحست بسكينة غريبة بعد اليوم الحافل الذي مرّ بها، سكينةً تكاد تكون تفاؤلًا. أحست بهذا عندما فكّرت في الآفاق الجديدة التي انفتحت أمامها. في جيب ردائها، تلمّست أصابعها المفتاح الصغير وحمّالته التي لا يزال الدم دبقًا عليها. إنه المفتاح الذي التقطته عن أرضية الزورق، المفتاح الذي لم تخبر المحقق به حتى من غير أن تفكّر في السبب الذي جعلها تكتم أمره. إحساس غريزي!

لقد رأت المفتاح لامعًا على الأرض، هناك، إلى جانب جثة الفتى - مفتاح معلّق بحمالة مفاتيح خشبية صغيرة على هيئة طائر. عرفت الحمّالة على الفور لأنها رأتها متدلية من حزام بنطلون الجينز الذي ترتديه لورا التي تعمل في محل تنظيف الملابس. يدعونها لورا المجنونة، لكن ميريام وجدتها فتاة ودودًا جدًا، وجدتها غير مجنونة أبدًا. لورا التي رأتها ميريام آتية -ظنّت أنها ثملة- إلى ذلك الزورق الصغير المهلهل؛ رأتها آتية قبل ليلتين فقط، شابكة ذراعها بذراع الصبي الجميل. لعلّها رأتها منذ ثلاث ليال! لقد سجّلت هذا في دفتر

ملاحظاتها - تسجّل من يثير اهتمامها من بين الأشخاص الذين يأتون ويغدون... تلك هي الأمور التي تدوّنها في دفتر ملاحظاتها.

قرابة الغسق، رأتهم ميريام يحملون الجثة، يخرجون بها من كابينة الزورق، ويصعدون السلم، ثم يبلغون الشارع حيث كانت سيارة إسعاف في انتظارهم كي تأخذ القتيل. نهضت واقفة عندما مرّوا أمامها؛ وقفت احترامًا، وخفضت رأسها، وقالت: «في حفظ الله»، قالتها بصوت خافت لا إيمان فيه.

همست بكلمة شكر أيضًا لأن دانييل ساذرلاند، (بإرسائه زورقه إلى جوارها، ثم مقتله بهذه الطريقة الوحشية)، وفّر لميريام فرصة لا يمكن أن تتركها تفلت من يدها: فرصة لأن تنتقم لنفسها من ظلمٍ فادح أصابها.

هي الآن وحيدة، خائفة قليلًا -على الرغم منها- خائفة في الظلمة والهدوء غير المألوف. نهضت، ودخلت كابينة زورقها، ثم أغلقت الباب من خلفها وأقفلته. أخرجت مفتاح لورا من جيبها ووضعته في العلبة الخشبية على الرف حيث تحتفظ بالأشياء الصغيرة. الخميس يوم تنظيف الملابس؛ ومن الممكن أن تعيد المفتاح إلى لورا.

وأيضًا. قد لا تعيده.

لا يعرف المرء أبدًا ما يمكن أن يصير مفيدًا! هكذا هو الأمر، أليس كذلك؟

- 3 -

«يا سيدة مايرسون! هل أنت في حاجة إلى الجلوس؟ اجلسي. ما عليك إلا أن تتنفّسي. هل تحبين أن نتصل بأحدهم، يا سيدة مايرسون؟».

تهاوت كارلا جالسة على أريكتها. انطوت على نفسها ضاغطة وجهها على ركبتيها. انتبهت إلى أنها تتحدّث بصوت أشبه بالبكاء، كأنها كلب. أفلحت في القول، «ثيو. من فضلكم، اتصلوا بثيو. ثيو زوجي. زوجي السابق. رقمه في هاتفي». رفعت رأسها ناظرة في الغرفة فلم تستطع رؤية هاتفها... «لست أعلم مكانه. لست أعلم أين وضعـ...».

قالت لها المحقّقة بصوت لطيف: «إنه في يدك، يا سيدة مايرسون. أنت تمسكين هاتفك بيدك».

نظرت كارلا إلى يدها فرأت الهاتف فيها. رأت يدها المرتعشة ارتعاشًا شديدًا قابضة على الهاتف. هزّت رأسها وأعطت الشرطية هاتفها. قالت لها: «بدأ الجنون يصيبني».

ضغطت المرأة على شفتيها مبتسمة لها ابتسامة صغيرة. وضعت يدها على كتف كارلا، وضعتها لحظة واحدة. أخذت الهاتف إلى الخارج لكي تجري الاتصال الهاتفي.

تنحنح الشرطي الآخر، المحقّق باركر. قال لها: «أعتقد بأن والدة دانييل متوفاة. فهل هذا صحيح؟».

أومأت كارلا برأسها. «منذ ستة أسابيع... لا، منذ ثمانية أسابيع». قالت هذا فرأت حاجبي المحقق يرتفعان إلى حيث كانت بداية شعر

رأسه في ما مضى. قالت له: «وقعت أختي في بيتها. لم يكن ذلك... كانت حادثة».

«وهل لديك وسيلة للاتصال بوالد دانييل؟».

هزت كارلا رأسها. «لا أظن هذا. إنه يعيش في أميركا. يعيش هناك منذ زمن طويل. لا صلة له بحياة دانييل؛ ولم تكن له بحياته صلة في يوم من الأيام» تكسّر صوتها. استنشقت نفسًا عميقًا، ثم زفرته ببطء: «إنهما أنجيلا ودانييل فقط، وأنا».

أومأ باركر برأسه. ظل صامتًا، واقفًا أمام المدفأة من غير أية حركة، منتظرًا أن تستجمع كارلا شتات نفسها. سألها بعد ما ظنته كارلا لحظة صمت معبّرة عن الاحترام: «أظنّك لا تعيشين هنا منذ زمن طويل». رفعت رأسها ونظرت إليه حائرة. أشار بإصبعه الطويل إلى الصناديق الموضوعة على أرض غرفة الطعام، وإلى اللوحات المستندة إلى الجدار.

تمخّطت كارلا مصدرة صوتًا مرتفعًا: «منذ ست سنين، أريد أن أعلّق هذه اللوحات على الجدار. سوف أفلح يومًا ما في شراء مسامير لتعليقها. هذه الصناديق من بيت أختي. رسائل، وصور. فيها أشياء لم أجد نفسي راغبة في رميها».

أومأ باركر برأسه. طوى ذراعيه على صدره، ونقل ثقل جسمه من قدم إلى أخرى. فتح فمه لكي يقول شيئًا، لكن صوت إغلاق باب البيت قاطعه. أجفلت كارلا. انسلّت المحقّقة تشالمرز داخلة الغرفة بهدوء. خفضت رأسها بحركة اعتذار. قالت: «السيد مايرسون في طريقه إلينا. قال إنه لن يتأخر».

قالت كارلا: «لا يبعد بيته أكثر من خمس دقائق. في شارع نويل رود. هل تعرف ذلك الشارع؟ عاش جوي أورتون فيه خلال الستينيات. الكاتب المسرحي، ألا تعرفه؟ لقد قُتل في ذلك البيت، قُتل ضربًا على ما أظن، أو لعله قُتل طعنًا!؟». نظر إليها المحقّقان نظرة من غير معنى.

قالت كارلا: «هذا ليس... مهمًا. لا علاقة له بالأمر». لحظة مخيفة خُيّل لها فيها أنها موشكة على الضحك. لماذا تقول لهما هذا؟ ولماذا تحدّثهما عن جوي أورتون؟... عن أشخاص ماتوا ضربًا؟ لقد بدأت تصير مجنونة. لكن المحققَيْن كانا كأنهما غير منتبهَين إلى هذا، أو غير مباليَين به. لعل أي شخص يتصرف مثلما يتصرف إنسان معتوه عندما يتلقى نبأ مقتل واحد من أفراد عائلته.

سألها المحقق باركر: «سيدة مايرسون، متى رأيت ابن شقيقتك آخر مرة؟».

كان عقل كارلا غائبًا تمامًا. قالت: «أنا... يا إلهي! لقد رأيته... رأيته في بيت إنجيلا، أعني في بيت أختي. البيت ليس بعيدًا. عشرين دقيقة من هنا، سيرًا على الأقدام. إنه واقع على ضفة القناة الأخرى. عند هايواردز بليس. كنت أرتّب حوائجها وأصنّفها، فجاء دانييل لكي يأخذ بعض الأشياء. لم يعش هناك منذ زمن طويل جدًا؛ لكن له بضعة أشياء باقية في غرفة نومه القديمة. أكثرها من دفاتر الرسم. لقد كان فنانًا موهوبًا حقًا. كان يرسم رسومًا هزلية. هل تفهم ما أعنيه؟ يرسم قصصًا مصوّرة». اعترت جسدها رعشةٌ لم تستطع ضبطها، «أعني، كان هذا منذ ثلاثة أسابيع! كان منذ أسبوعين! يا إلهي! لا أستطيع تذكر شيء. اضطراب شديد في رأسي، وأنا...». أمسكت رأسها بيديها كأنها تغرس أظافرها في جمجمتها. تغلغلت أصابعها في شعرها الذي قَصَّته قصيرًا.

قالت تشالمرز: «لا بأس بهذا، يا سيدة مايرسون. لا مشكلة أبدًا. من الممكن أن نحصل على التفاصيل في وقت لاحق».

قال لها باركر: «أريد أن أسألك، منذ متى يعيش هناك في القناة؟ هل تظنين أنك تعرفين متى...؟».

أجفلت كارلا مرة أخرى عندما قُرِع الباب بصوت مرتفع. قالت بصوت خافت كأنها تخاطب قدميها: «إنه ثيو. الشكر لك يا رب!».

نهضت تشالمرز لكي تفتح الباب قبل أن تتمكّن كارلا من النهوض. دخل ثيو الغرفة محمر الوجه، متعرّقًا.

قال وهو يمسك بكارلا ويحتضنها ويشدها إليه بقوة: «يا إلهي! بحقّ الرب... ماذا حدث؟».

أعاد عنصرا الشرطة القصة كلها من جديد: كيف تم ذلك الصباح العثور على دانييل ساذرلاند ابن شقيقة كارلا، ميتًا في زورقٍ راسٍ على مقربة من طريق دو بوفوار في قناة ريجنت. قالا إن طعناتٍ كثيرةً أصابته. قالا أيضًا إن من المرجح أن يكون قد قُتل قبل اكتشاف جثته بأربع وعشرين إلى ست وثلاثين ساعة. سوف يتمكنون لاحقًا من التوصل إلى تحديد زمني أدق. طرحا أسئلة عن عمل دانييل، وعن عمل أصدقائه، وهل يعاني مشكلات مالية؟ وهل يتعاطى المخدرات؟

كارلا وثيو لا يعرفان شيئًا.

سألت المحقّقة تشالمرز ثيو: «هل كنت على علاقة وثيقة به؟».

قال ثيو: «كنت بالكاد أعرفه». كان جالسًا إلى جانب كارلا؛ وكان يحك قمة رأسه بسبّابته مثلما يفعل كلما أقلقه أمر من الأمور.

«وأنت، يا سيدة مايرسون؟».

«لا، ما كانت بيننا علاقة وثيقة. ليس... لا بأس! الحقيقة أننا، أنا وأختي، ما كانت الواحدة منا ترى الأخرى كثيرًا».

سألتها تشالمرز: «على الرغم من حقيقة أنكما تعيشان على ضفتي هذه القناة؟».

هزّت كارلا رأسها: «لا. نحن... أنا لم أمضِ وقتًا طويلًا مع دانييل منذ زمن بعيد جدًا. هذه هي الحقيقة. لم يحدثْ هذا منذ أن كان صبيًا صغيرًا. رأيته مجدّدًا عندما ماتت أختي، مثلما قلت لكما. عاش في الخارج زمنًا. أظنه كان في إسبانيا».

سألها باركر: «ومتى انتقل للعيش على ذلك الزورق؟».

ضغطت كارلا شفتيها معًا، ثم هزت رأسها. قالت له: «لست أدري. صدقًا، لست أدري شيئًا عن هذا».

قال ثيو: «ما كانت لدينا أية فكرة عن أنه كان يعيش هناك».

رشقه باركر بنظرة حادّة: «مع هذا، لا بد أنه كان شديد القرب من بيتك. بيتك في نويل رود، أليس كذلك؟ هذا ما أعنيه... على مسافة ميل واحد من حيث كان ذلك الزورق».

رفع ثيو كتفيه، ثم حك جبهته بقوة أكبر. صار جلده وردي اللون عند بداية شعره. بدا كأنه جالس تحت أشعة شمس لاهبة. قال: «قد يكون الأمر هكذا؛ لكني لم أكن أعرف أبدًا أنه هناك».

تبادل المحقّقان نظرة سريعة. نظر باركر إلى كارلا. قال لها: «وأنت، يا سيدة مايرسون؟».

هزت كارلا رأسها نفيًا. قالت بصوت خافت: «ما كنت أعرف هذا».

عندها، صمت المحقِّقان. ظلا صامتين زمنًا طويلًا. كانا ينتظران أن تقول كارلا شيئًا... هكذا خُيّل إليها. كانا ينتظران سماع شيء منها، أو من ثيو.

رضخ ثيو آخر الأمر. قال: «لقد قلتما إنه منذ أربع وعشرين ساعة. أليس هذا صحيحًا؟ من أربع وعشرين ساعة إلى ست وثلاثين ساعة، أليس كذلك؟».

أومأت تشالمرز برأسها وقالت لها: «نقدّر أن الوفاة قد حدثت بين الثامنة من مساء يوم الجمعة والتاسعة من صباح يوم السبت».

بدأ ثيو يحك رأسه من جديد: «أوه!». كان ينظر إلى الخارج، عبر النافذة.

«هل تذكّرت شيئًا، يا سيد مايرسون؟»

قال ثيو: «رأيت فتاة. رأيتها صباح يوم السبت. كان ذلك في ساعة مبكرة... أظنني رأيتها نحو الساعة السادسة. كانت سائرة على رصيف المرسى، ثم مرّت أمام بيتي. كنت واقفًا في غرفة مكتبي فرأيتها.

تذكّرتها الآن لأنني رأيت دمًا عليها. كان الدم على وجهها. أظنه كان على ملابسها أيضًا. لا أعني أنها كانت غارقة في الدم، أو أي شيء من هذا القبيل، لكن... لكني رأيت دمًا».

نظرت كارلا إليه فاغرة فمها غير مصدقة ما تسمعه. قالت له: « أي شيء هذا الذي قلته؟ لماذا لم تخبرني به؟».

قال ثيو: «لقد كنت نائمة. نهضت من فراشي، وأردت إعداد قهوة. ذهبت إلى غرفة مكتبي لكي آتي بسجائري. رأيتها من النافذة. كانت فتاة في مقتبل العمر. عشرون عامًا على ما أظن، لا أكثر. كانت آتية من ناحية رصيف المرسى. رأيتها تعرج في مشيتها، أو لعلها تسير متمايلة! ظننتها ثملة. الحقيقة أنني لم... لم أولِ الأمر كبير اهتمام، فما أكثر السكارى في لندن، وما أكثر من تبدو أشكالهم غريبة! في ذلك الوقت من النهار، كثيرًا ما يرى المرء أشخاصًا سائرين في الطريق، عائدين إلى بيوتهم...».

سأله باركر: «هل يحدث أن يرى المرء كثيرًا أشخاصًا عليهم دماء؟»

«الحقيقة... ربما لا. لا يرى المرء دمًا. أظن أن هذا ما جعلني أتذكرها. ظننت أنها سقطت فجرحت نفسها، أو تعاركت مع أحدهم. قلت في نفسي».

قالت كارلا: «ولكن، لماذا لم تقل لي أي شيء؟»

«لقد كنت نائمة، يا عزيزتي. لم أظن أن...»

قاطعته تشالمرز عابسة: «هل كانت السيدة مايرسون نائمة في بيتك؟ أليس هذا ما قلتَه؟ هل أمضيت الليل مع السيدة مايرسون؟»

أومأت كارلا برأسها؛ أومأت بحركة بطيئة. بدا على وجهها تعبير يوحي بالحيرة، «تعشينا معًا يوم الجمعة، ثم نمت هناك».

قال ثيو: «صحيح أننا منفصلان، لكننا لا نزال على علاقة، كما ترين. وكثيرًا ما...»

قالت كارلا بحدّة جعلت ثيو يجفل: «هما غير مهتمَيْن بهذا، يا ثيو».

رفعت إلى أنفها منديلًا ورقيًا، «آسفة. إنني آسفة. لكن هذا أمر غير مهم، أليس كذلك؟»

قال باركر بنبرة غامضة: «لا نعرف أبدًا ما يمكن أن يكون مهمًّا». بدأ يسير صوب الممر. ناولهما بطاقته، وقال لثيو شيئًا عن التعرّف الرسمي على الجثة، وعن الصلة العائلية، وعن أنه سيبقى على تواصل معهما. أومأ ثيو برأسه ودسَّ بطاقة باركر في جيب بنطلونه، ثم صافح المحقق.

سألت كارلا فجأة: «كيف عرفتم؟ أعني، من أبلغ الشرطة بالأمر... من عثر عليه؟»

نظرت تشالمرز إلى رئيسها، ثم نظرت إلى كارلا وقالت لها: «عثرت عليه امرأة؟»

سألها ثيو: «امرأة؟ أهي صديقته؟ هل كانت امرأة شابة؟ نحيلة؟ إنني أفكر الآن في الفتاة التي رأيتها في الشارع، في الفتاة التي كان عليها دم. لعلها هي...»

هزّت تشالمرز رأسها وقالت: «لا، عثرت عليه امرأة تعيش في زورق آخر. ليست شابة. أستطيع القول إنها في أواسط العمر. لاحظت تلك المرأة أن الزورق ظل زمنًا من غير أن يتحرّك فذهبت لتفقده».

سأل ثيو: «ألم تر تلك المرأة شيئًا؟»

قال باركر: «الحقيقة أنها ساعدتنا كثيرًا. إنها دقيقة الملاحظة».

عاد ثيو إلى حك رأسه. قال: «هذا جيد. جيد جدًا».

أضاف باركر قائلًا: «إنها السيدة لويس».

صححت تشالمرز قوله: «الآنسة لويس».

قال باركر: «هذا صحيح».

رأت كارلا كيف غاض الدم من وجه ثيو عندما أردف المحقق باركر قائلًا: «الآنسة ميريام لويس».

مكتبة
t.me/t_pdf

- 4 -

«هو من بدأ ذلك. أليس هذا صحيحًا؟ بدأ ذلك قبل أن أقول أي شيء».

كانا في انتظارها عندما عادت إلى مسكنها. لا بد أنهما كانا هناك، في انتظارها، لأنهما دقّا بابها بعد ثلاثين ثانية من عودتها من أيسلندا. لم تستعد أنفاسها بعد -بيتها في الطابق السابع؛ وقد تعطلت المصاعد من جديد- كانا هناك فجعلها هذا غاضبة. جعلها متوترة أيضًا. لذا -تمامًا مثلما يحدث لأي أحمق لعين- بدأت تتكلّم، بدأت على الفور. كانت مدركة تمام الإدراك أن عليها ألا تفعل هذا. ليست هذه أول مشكلة تجد نفسها متورطة فيها.

ولكن، عادة ما تكون مشاكلها من نوع مختلف، بالتأكيد. سرقات صغيرة، وسكر شديد في أماكن عامة، وتخريب ممتلكات، وتطفّل، وسلوك فوضوي. في مرة من المرات، برّأتها المحكمة من تهمة التهجم على أحدهم. لا تزال لديها الآن قضية التسبب في إصابة شخص بأذى جسدي.

لكن هذا الأمر ليس كذلك! تقريبًا، أدركَتْ الأمر على الفور. أدركته عندما وجدت نفسها واقفة هناك تلهث وتزفر وتكثر من الكلام. قالت تخاطب نفسها، *توقّفي، كفّي عن هذا، إنهما محققان من الشرطة!*

ذكرا لها اسميهما، ورتبتيهما، وذلك كله. نسيَت ما قالاه لها، نسيَته في ثانية واحدة. مع ذلك: إنهما واقفان أمامها بملابسهما المدنية. هذه مشكلة من نوع مختلف كل الاختلاف.

قال لها الرجل بقدر كبير من التهذيب: «هل لديك اعتراض على

دخولنا شقتك، يا آنسة كيلبرايد؟». كان طويل القامة، ضخمًا، أصلع الرأس مثل بيضة، «لعل من الأفضل أن نتكلم في هذا الأمر داخل الشقة». ألقى نظرة سريعة في اتجاه نافذة المطبخ التي كانت قد سدّتها بألواح خشب سمّرتها عليها كما اتفق.

هزّت لورا رأسها وقالت: «لا أظن هذا. لا. لست أظن هذا. أنا في حاجة إلى وجود شخص راشد، كما ترى. لا تستطيع استجوابي الآن... ما الأمر، على أية حال؟ أهو ذلك الشخص في البار؟ أقول هذا، كما تعلم، لأن الأمر موجود لديكم في سجلّاتكم. لقد استدعوني إلى المحكمة. ورقة الاستدعاء مثبتة على البراد بمغناطيس. تستطيع أن تراها بنفسك، إن أحببت... لا، لا، لا، انتظر. انتظر هنا. لم تكن هذه دعوة إلى الدخول. أسلوب في الكلام، لا أكثر».

«لماذا تريدين وجود شخص راشد، يا آنسة كيلبرايد؟». طرحَت عليها هذا السؤال الشرطيّة التي كانت أقصر من زميلها بقدم كاملة. شرطية لها شعر داكن خشن وتقاطيع دقيقة مجتمعة كلها في وسط وجهها المدوَّر الكبير. رفعت الشرطية حاجبها وقالت لها: «أنت لست قاصرًا! أليس هذا صحيحًا؟»

أجابت لورا بنبرة حادة: «أنا في الخامسة والعشرين. وأنتم تعرفون هذا».

كانت غير قادرة على إيقافهما - صار البيضة في وسط الممر، وكانت ذات الحاجب سائرة خلفه. قالت لها: «كيف لنا أن نعلم هذا؟»

سألها البيضة بصوت مرتفع: «من بدأ ماذا، يا آنسة كَيلبرايد؟» تبعَت صوته إلى مطبخها حيث وجدته منحنيًا هناك، يداه خلف ظهره. كان ينظر إلى استدعاءات المحكمة على البرّاد.

تنفّست لورا بصوت ثقيل مسموع. أسرعت إلى المغسلة لكي تشرب ماء. كانت في حاجة إلى وقت حتى تستجمع شتات نفسها. حتى تفكّر. وعندما استدارت لكي تواجهه، نظر إليها أول الأمر، ثم نظر

من فوق كتفها، نظر إلى النافذة المسمّرة بألواح خشبية. رفع حاجبيه بحركة بريئة. سألها: «هل واجهت مشكلة؟»

«ليس تمامًا».

ظهرت الشرطية الأخرى. كانت عابسة، عاقدة الحاجبين. سألتها: «هل جرحت نفسك، يا لورا؟»

شربت لورا الماء بسرعة كبيرة فسعلت. «لماذا لا تقولين *آنسة كيلبرايد*؟ نحن زميلتان الآن، أليس كذلك؟ هل نحن صديقتان قريبتان جدًا؟».

أدلى البيضة بدلوه: «ساقك، يا لورا. كيف أصيبت ساقك؟»

«صدمتني سيارة عندما كنت طفلة. كُسْر مضاعف في قصبة الساق ترك ندبة كبيرة». قالت هذا ووضعت يدها على أزرار بنطلونها. نظرَت في عينيه، «هل تريد رؤيتها؟».

قال من غير اهتمام: «ليس ضروريًا. ماذا أصاب ذراعك؟» أشارت إصبعه إلى الضماد الملفوف على معصمها الأيمن... «لم يحدث هذا عندما كنت طفلة!».

عضت لورا على شفتها. قالت، «أضعت مفتاحي. أضعته ليل يوم الجمعة. عندما عدت كنت مضطرة إلى كسر النافذة حتى أدخل الشقة». أشارت برأسها إلى الخلف، في اتجاه نافذة المطبخ المطلّة على الممر الخارجي الممتد على طول الطابق في تلك البناية السكنية، «لكني لم أستطع فعل ذلك على نحو صحيح، فجرحت نفسي».

«هل كان جرحًا في حاجة إلى غرزات جراحية؟»

هزت لورا رأسها. قالت: «لم يكن كبيرًا إلى هذا الحد».

«هل عثرت عليه؟»، قال هذا وهو يستدير مبتعدًا عنها سائرًا صوب المنطقة الفاصلة بين المطبخ وغرفة المعيشة. كان ينظر من حوله كأنه شخص يريد شراء تلك الشقة. لا، ليست شقة مغرية. كانت تدرك أن عليها أن تخجل من شقتها ومن أثاثها الرخيص وجدرانها العارية، ومن

مكتبة 1021

منفضة السجائر على الأرض، منفضة السجائر التي تعثر بها أحدهم فقلبها. صار الرماد الآن متناثرًا على السجادة. منذ متى حدث هذا؟ لا تعرف أبدًا لأنها لا تدخن، ولأنها لا تستطيع الآن تذكر آخر مرة زارها فيها واحد من الناس. لكنها لم تستطع أبدًا أن تحمل نفسها على الاهتمام بهذا الأمر.

«إذًا؟ هل عثرت عليه؟» غضّنت ذات الحاجب أنفها وهي تنظر إلى لورا من قمة رأسها حتى أخمص قدميها. نظرت إليها من جديد، إلى بنطلون الجينز المتهدل، وإلى قميصها المتّسخ وطلاء أظافرها المتقشر... إلى شعرها الدبق. أحيانًا، تنسى لورا أن تستحم. أحيانًا، تنسى ذلك أيامًا كثيرة. أحيانًا، يكون الماء شديد الحرارة، وأحيانًا لا يكون حارًا على الإطلاق، مثلما هو الآن، لأن السخّان يعمل على هواه... يعمل أحيانًا، وأحيانًا لا يعمل. ليس لديها مال لدفع أجرة سبّاك. اتصلت بالبلدية مرات كثيرة، لكنهم لم يأتوا أبدًا.

«عثرت على ماذا؟»

قالت ذات الحاجب: «على مفتاحك». لاح ظل ابتسامة على شفتيها كأنها تريد القول إنها أوقعت بها، كأنها تريد القول إنها اكتشفت كذبتها، «هل عثرت على مفتاحكِ؟»

ابتلعت لورا آخر جرعة ماء في الكأس، ثم أطلقت زفرة.

قررت تجاهل السؤال. صاحت: «من فضلك!»، وتجاوزت ذات الحاجب حتى تلحق بالبيضة.

أجابها: «لا مشكلة». كان واقفًا وسط غرفة معيشتها ينظر إلى الزينة الوحيدة في تلك الغرفة: صورة فوتوغرافية عائلية في إطار: أب وأم وفتاة صغيرة. هناك من جشّم نفسه عناء تشويه الصورة، فرسم على رأس الأب قرنين، ورسم لسانًا ذا شعبتين خارجًا من فم المرأة، وإشارتَيْ X على عينَيْ الطفلة التي لوّن شفتيها بلون أحمر كالدم، قبل أن يؤطر الصورة ويعلّقها هناك. ارتفع حاجبا البيضة. استدار ونظر إليها.

سألها: «صورة عائلية؟»

هزّت لورا كتفَيْها ولم تقل شيئًا. «بابا شيطان، أليس كذلك؟».

هزّت رأسها ونظرت في عينيه. قالت له: «إن له قرنين».

ضغط البيضة على شفتيه وهزّ رأسه بحركة بطيئة، ثم استدار لكي ينظر إلى الصورة من جديد. قال: «لا بأس. لا بأس».

قالت لورا من جديد: «أنا شخص راشد ناقص الأهلية». تنهَّد المحقّق.

قال لها بصوت متعب: «لا، لست كذلك». استدار مبتعدًا عن الصورة وجلس على أريكتها متثاقلًا... «أنت تعيشين وحدك. ولديك وظيفة بوقت عمل جزئي في محل «صَن شاين» لتنظيف الملابس في شارع سبنسر. نعرف أيضًا أن الشرطة حقّقت معك في عدة مناسبات من غير وجود شخص راشد معك. لذا، دعينا ننسى هذا الأمر. فماذا تقولين؟».

كان في نبرة صوته شيء من الحدّة. بدا متعَبًا جدًا. ملابسه مجعدة كأنه سافر سفرًا طويلًا، أو كأنه يشكو قلة النوم، «لماذا لا تجلسين؟ أخبريني عن دانييل ساذرلاند».

جلست لورا إلى الطاولة الصغيرة في زاوية الغرفة، على الطاولة التي تتناول طعامها عليها وهي تتابع التلفزيون. ولوهلة قصيرة، أحسّت قدرًا من الانفراج، من الراحة. رفعت كتفيها حتى أذنيها، وسألته: «ماذا عنه؟»

«هل يعني هذا أنك تعرفينه؟»

«واضح أنني أعرفه. واضح أيضًا أنه ذهب إليكم كي يشكوني. لكني أستطيع القول إن هذا كلام فارغ لأن ما من شيء حدث. على أية حال، هو من بدأ».

ابتسم البيضة. كانت ابتسامته دافئة دفئًا مفاجئًا. كرر من خلفها: «لم يحدث شيء، لكنه هو الذي بدأ ذلك!».

«هذا صحيح».

سألتها ذات الحاجب وهي تدخل الغرفة آتية من المطبخ: «ومتى حدث هذا اللاشيء الذي كان هو من بدأه؟». جلست على الأريكة القبيحة ذات المقعدين، إلى جانب زميلها. جلسا متجاورين فبدا مظهرهما سخيفًا - قصيرة القامة، ممتلئة. وهو نحيل، طويل القامة. إنهما مثل ليرتش مع زميلها القصير البدين، فيستر[1]. ابتسمت لورا ابتسامة في غير محلها.

لكن هذا لم يعجب ذات الحاجب. أظلم وجهها، وقالت بنبرة حادّة: «هل تجدين شيئًا مضحكًا هنا؟ أتظنين أن في هذا الأمر شيئًا مسليًا، يا لورا؟».

هزّت لورا رأسها وقالت: «فيستر...» ابتسمت من جديد، «أنت تشبهين العم فيستر. لكن لك شعرًا. هل سبق أن قال لك أحد هذا؟».

فتحت المرأة فمها لكي تتكلم، لكن البيضة قاطعها قائلًا بنبرة باردة: «دانييل ساذرلاند» قال الاسم من جديد، قاله بصوت أكثر ارتفاعًا، «لم تخبرينا أي شيء عنه. أتينا لرؤيتك لأننا رفعنا بصمتَيْن عن كأس وجدناها في زورق دانييل. واحدة منهما بصمته، والأخرى بصمتك أنت».

انتاب لورا إحساس مفاجئ بالبرد. دعكت رقبتها بأصابعها، ثم تنحنحت. قالت: «رفعتم... رفعتم ماذا؟ هل تقول إنكم رفعتم البصمات؟ ما الأمر؟».

قالت ذات الحاجب: «هل تستطيعين إخبارنا عن علاقتك بالسيد ساذرلاند، يا لورا؟»

لم تستطع لورا تمالك نفسها فضحكت وقالت: «علاقة؟ هذا تعبير أقوى مما ينبغي! ضاجعته مرتين؛ ليلة الجمعة. لكني لا أستطيع أن أدعو هذا علاقة بيننا».

(1) إشارة إلى مسلسل «ليرتش وفِستر» الهزلي الأميركي.

هزّت ذات الحاجب رأسها معترضة على كلامها، أو غير مصدقة. قالت: «وكيف التقيتما؟»

ابتلعت لورا ريقها بصعوبة. قالت: «تعرفت عليه لأنني أساعد تلك السيدة، أساعدها أحيانًا. إنها إيرين. تعيش في هايواردز بليس، تمامًا عند الكنيسة التي هناك، في الطريق إلى متجر «تيسكو» الصغير. قابلتها منذ بضعة شهور. ومثلما قلت لك، صرت أساعدها من وقت إلى آخر. أساعدها لأنها عجوز، ولأنها مصابة بالتهاب المفاصل... لأنها كثيرة النسيان، ولأنها سقطت منذ فترة فالتوى كاحلها - أو شيء من هذا القبيل. تكون أحيانًا غير قادرة على الذهاب إلى المتاجر. لا أفعل هذا من أجل المال، أو من أجل أي مكسب. لكنها تعطيني خمسة جنيهات، من وقت إلى آخر... تعطيني المال مقابل وقتي. أنت تفهمين ما أقول. إنها لطيفة حقًا، على أيّة حال، نعم، دان -دانييل ساذرلاند- كان بيته إلى جانب بيت إيرين. لم يعش في ذلك البيت منذ زمن بعيد، لكن أمه لا تزال تعيش فيه. على الأقل، ظلت تعيش فيه إلى أن ماتت. التقينا عندما ماتت».

«هل تقولين إنك التقيت دانييل عندما ماتت أمه؟».

قالت لورا: «بل بعد موتها. لم أكن موجودة عندما ماتت».

نظرت ذات الحاجب إلى زميلها نظرة سريعة، لكنه لم يكن ينظر إليها، بل إلى الصورة العائلية على الجدار. كان على وجهه ملمح حزن.

قالت ذات الحاجب: «لا بأس. لا بأس. تقولين إنك كنت مع السيد ساذرلاند يوم الجمعة؟ فهل هذا صحيح؟».

أومأت لورا برأسها. قالت لها: «خرجنا في موعد. وهذا ما كان يعني عنده أن نتناول كأسَيّ شراب في بار في شورديتش ثم نعود إلى زورقه البائس لكي نتضاجع هناك».

«و... هل جرح معصمك هناك؟ أو... هل ضغط عليك لكي تفعلي شيئًا من الأشياء؟ ما الذي تقولين إنه هو من بدأه؟». طرح عليها البيضة

هذا السؤال وهو ينحني إلى الأمام. الآن، صار انتباهه كله منصبًا على لورا، «قلتِ إنه هو من بدأ الأمر. فما هو؟».

رفرفت عينا لورا. أتتها ذكرى واضحة وضوحًا مفاجئًا. تذكّرت كيف بدا على وجهه أنه فوجئ عندما هاجمته. قالت: «كان كل شيء على أحسن ما يرام. أمضينا وقتًا لطيفًا. ظننت أننا كنا نمضي وقتًا لطيفًا...». احمرّ وجهها على نحو مفاجئ، وأحست بحرارة شديدة متدفّقة من صدرها إلى رقبتها، ثم إلى وجنتيها، «وبعد ذلك، صار شديد البرودة... شيء من هذا القبيل... كأنه لا يريد وجودي هناك. لقد كان... عدوانيًا». نظرت إلى ساقها المعطوبة، «إن لدي حالة خاصة. أنا شخص راشد ناقص الأهلية. أعرف أنكما قلتما غير هذا، لكنني كذلك بالفعل. أنا ناقصة الأهلية».

سألتها ذات الحاجب: «إذًا، هل تشاجرتما؟»

أومأت لورا برأسها، كانت تنظر إلى قدميها. قالت: «صحيح، تستطيعين قول هذا».

«هل كانت مشاجرة حقيقية؟... مشاجرة فيها عنف جسدي؟».

كانت على حذائها الرياضي بقعة، تمامًا فوق أصغر أصابع قدمها اليسرى. بقعة بنية داكنة. دسَّت قدمها اليسرى خلف كاحلها الأيمن. قالت: «لا، ليس... أعني... ليس بشكل حقيقي».

«إذًا، يعني هذا أنه كان هناك عنف بينكما، لكنه ليس عنفًا من النوع الذي تعتبرينه خطيرًا!».

حركت لورا قدمها اليسرى خلف ساقها اليمنى. قالت: «كان ذلك لا شيء. لم يكن أكثر من احتكاك بسيط».

رفعت رأسها ناظرة إلى البيضة الذي كان يمر بإصبعه على شفتيه الرقيقتين. نظر بدوره إلى ذات الحاجب، ونظرت إليه. سرى بينهما شيء، لكن من غير كلام. شيء كأنه توافق.

«آنسة كيلبرايد، لقد تم العثور على جثة دانييل ساذرلاند في زورقه

صبيحة يوم السبت. هل تستطيعين أن تقولي لنا على وجه التحديد متى رأيته آخر مرة؟».

على نحو مفاجئ، أحسّت لورا جفافًا مؤلمًا في فمها. لم تستطع ابتلاع ريقها. سمعت هديرًا في أذنيها. أغمضت عينيها وشدّت عليهما. نهضت واقفة على قدميها. أحسّت بالعالم كله يميد من تحتها، فاستندت إلى الطاولة. قالت: «انتظر لحظة...». جلست من جديد، ثم قالت: «انتظر لحظة. جثته؟ هل تقول لي...؟».

قال البيضة: «أقول لك إن السيد ساذرلاند قد مات». كان صوته هادئًا، متزنًا.

«ولكن، هو لم يمتّ، أليس كذلك؟». سمعت لورا صوتها متكسّرًا. أومأ البيضة برأسه... «صباح يوم السبت؟ هل قلت صباح يوم السبت؟».

قال: «هذا صحيح. اكتشفت جثة ساذرلاند صباح يوم السبت».

«ولكن...». أحست لورا بنبض قلبها في حلقها، «لكني رأيته ليلة الجمعة. تركته صباح يوم السبت. تركت الزورق صباح يوم السبت. في الساعة السابعة، على ما أظن. بل ربما أبكر من ذلك. *صباح يوم السبت*». كررت هذا مرة أخرى كأنها تؤكد على كلامها.

بدأت ذات الحاجب تقول شيئًا بصوت موسيقي فرِح كأنها تروي حكاية طريفة تكاد تبلغ النقطة المضحكة فيها. قالت لها: «توفّي السيد ساذرلاند بعد أن نزف نزفًا غزيرًا. كانت لديه جروح ناتجة عن طعنات سكين، جروح في صدره ورقبته. توقيت الوفاة لم يحدَّد بعد تحديدًا رسميًا، لكن زملاءنا المتخصّصين في الجوانب العلمية ميّالون إلى تقدير أنه فارق الحياة قبل مدة تتراوح من أربع وعشرين ساعة إلى ست وثلاثين ساعة من العثور على جثته. وأنت تقولين لنا الآن إنك كنت مع السيد ساذرلاند ليل يوم الجمعة. فهل هذا صحيح؟».

أحست لورا بوجهها يشتعل نارًا. أحست وخزًا في عينيها. غبية. لقد كانت غبية. قالت بصوت هادئ: «صحيح. كنت معه ليلة يوم الجمعة».

«ليلة يوم الجمعة. وقد ذهبتِ معه إلى زورقه. ألم تقولي هذا؟ قلت أيضًا إنك ضاجعته. ألم تقولي إنك ضاجعته مرتين؟ في أية ساعة، على وجه التحديد، من صباح يوم السبت غادرتِ زورق السيد ساذرلاند؟»

هذا فخ! إنه فخ! وقد سارت إليه بنفسها. يا غبية! ضغطت على شفتها السفلى بأسنانها. عضّت عليها بقوة. لا *تقولي أي شيء!* تخيلت محاميًا يقول لها هذا. لا *تكلّمي أحدًا!* هزت رأسها وبدر عنها صوت خافت آتٍ من أعماق حلقها، بصوت بدا لها أنه يخرج من غير إذن منها.

«ماذا قلت، يا لورا؟ هل قلتِ شيئًا يا لورا؟».

قالت لورا: «يؤسفني أنه مات. تؤسفني هذه الأشياء كلها» -قالت هذا متجاهلة النصيحة الآتية من مكان عميق في دماغها- «لكني لم أفعل شيئًا. هل تسمعان هذا؟ لم أفعل شيئًا. لم أطعن أحدًا. كل من يقول إنني طعنت أحدًا كاذب. لقد كان... لست أدري. قال لي أشياء. قال لي أشياء لا أحبها. لم أفعل شيئًا أبدًا. لعلي ضربته... ربما...». أحسّت مذاق دم في فمها فابتلعت ريقها بصعوبة، «لا تحاولا... فقط، لا تحاولا القول إنني من فعل هذا لأنني لا علاقة لي بالأمر أبدًا. لعله جرى بيننا شيء من التدافع، شيء من العراك، لكن الأمر كان ضمن هذه الحدود فحسب. أنتما تفهمان ذلك. ثم ذهبَ؛ وكان هذا كل ما في الأمر، مثلما قلت لكما. هذا كل ما جرى. إنها ليست غلطتي، كما تريان. ليست غلطتي حتى... تلك المشاجرة... أو أي شيء. ليست غلطتي».

كانت لورا تسمع صوتها يستمر ويستمر، يعلو ويعلو، ثم يعلو. كانت قادرة على إدراك أنها تبدو الآن مثل شخص مجنون يهذر، مثل واحد من مختلّي العقول الذين يقفون عند ناصية الشارع ويصرخون على لا شيء. كانت مدركة أنها تبدو الآن مثلهم، لكنها عجزت عن إيقاف نفسها.

قالت ذات الحاجب: «ذهب؟ قلت إنه ذهب. ماذا عنيتِ بهذا، يا لورا؟»

«عنيت أنه ذهب. لقد غادر. خرج. فماذا تظنين؟ خرج بعد العراك الذي جرى بيننا -ليس عراكًا حقيقيًا؛ لكنك تفهمين هذا- وبعد ذلك، ارتدى بنطلونه الجينز، وخرج وتركني هناك».

«في مسكنه... في زورقه! وحدك؟».

«هذا صحيح. أظنه كان واحدًا ممن يثقون بالناس». قالت هذا، ثم ضحكت. لم تستطع منع نفسها من الضحك مع إدراكها أن ضحكها كان في غير مكانه على الإطلاق. ضحكت لأنها وجدت الأمر طريفًا... فكرة أنه واحد ممن يثقون بالناس. أليس هذا طريفًا؟ أليس طريفًا في ظلّ هذه الظروف؟ لعله ليس طريفًا، ها ها، ومع هذا...! بدأت تضحك فلم تلبث أن وجدت نفسها غير قادرة على التوقّف عن الضحك. احمرّ وجهها مثلما يحمر وجه شخص يختنق.

نظر كل من المحقِّقَين إلى الآخر.

آخر الأمر، رفعت ذات الحاجب كتفيها وقالت: «سوف أذهب وأجلب لها كأس ماء».

بعد لحظة من ذلك، سمعت لورا المحققة تنادي زميلها. ما كان صوتها آتيًا من ناحية المطبخ، بل من الحمام، «سيدي. هل تستطيع أن تأتي لحظة؟»

نهض المحقق الأصلع واقفًا. مع نهوضه، أحسّت لورا بموجة ذعر تجتاحها كلها، موجة ذعر أزالت الضحك من صدرها. قالت له: «انتظر لحظة! لم أقل إن في وسعكما الذهاب إلى الحمام». لكن الوقت فات. سارت خلفه إلى عتبة باب الحمام، إلى حيث كانت ذات الحاجب واقفة. رأتها تشير أولًا إلى المغسلة حيث تركت لورا ساعة اليد (ساعة دانييل ساذرلاند - لا ريب في هذا لأن الحرفين الأولين من اسمه منقوشان على ظهرها)، ثم إلى تي شرت لورا الملطخ بالدم مرميًا في زاوية الحمام.

احمر وجه لورا احمرار شديدًا.

قالت لهما: «لقد جرحت نفسي. قلت لكما هذا. جرحت نفسي عندما دخلت من النافذة».

قال البيضة: «نعم، لقد قلت لنا هذا. ألا تريدين أيضًا إخبارنا شيئًا عن هذه الساعة؟».

قالت لورا عابسة: «أخذتها. من الواضح أنني أخذتها. لقد أخذتها. لكن هذا ليس ما تظنه. لقد فعلتها لكي أزعجه، لكي أغضبه. وكنت سـَ... لست أدري... كنت سأرميها في القناة وأقول له أن يذهب لاستخراجها بنفسه. لكن، بعد ذلك... لست أدري... قلت في نفسي إنها قد تعني له شيئًا. أنتما تدركان ما أقول. فكّرت في هذا عندما رأيت النقش على ظهرها، فقلت لنفسي شيئًا من قبيل... لعل أمه أهدته هذه الساعة قبل موتها، أو أي شيء من هذا القبيل؛ لعلها غالية عليه كثيرًا! قررت أن أعيد إليه ساعته».

نظر إليها البيضة نظرة حزن كأنه سمع خبرًا سيئًا جدًا. على نحو ما، كان ما سمعه خبرًا سيئًا. قال لها: «ما سوف يحدث الآن هو أننا سنأخذك معنا إلى مركز الشرطة لكي تجيبي عن بضعة أسئلة إضافية. سوف تتم الإجابة عن تلك الأسئلة من خلال استجواب رسمي مسجَّل. هل تفهمين معنى هذا؟ وأيضًا سنأخذ منك عيّنات لمقارنتها مع ما وجدناه في مسرح الجريمة».

«تأخذون عيّنات؟ ما معنى هذا؟»

«سيقوم أحد زملائنا في المركز بكشط ما تحت أظافرك، وبتمشيط شعرك لاستخراج ما علق به من ألياف. أشياء من هذا القبيل. ما من شيء مزعج. وما من شيء يدعوك إلى القلق...».

«وماذا إن كنت غير راغبة في هذا؟». ارتعش صوت لورا. أرادت أن يكون معها شخص يعينها، لكنها لم تستطع التفكير في من يمكن أن يكونه ذلك الشخص.

سألت: «هل أستطيع الرفض؟»

صار صوت ذات الحاجب لطيفًا: «لا بأس في هذا، يا لورا. الأمر كله بسيط، سهل. ليس فيه أي شيء مخيف».

قالت لورا: «هذا كذب. تعرفين أن هذا كذب».

قال البيضة: «الأمر الآخر الذي سنفعله هناك هو طلب الحصول على إذن بتفتيش مسكنك. أنا واثق من أننا لن نجد أية صعوبة في الحصول على إذن التفتيش في ظل الظروف الراهنة. لهذا السبب، إن كان لديك أي شيء آخر تظنين أن من الأفضل أن نعرفه، فسوف تكون فكرة حسنة أن تقوليه لنا الآن. فما رأيك؟»

فكرت لورا في سؤاله. حاولت التفكير في ما إذا كان لديها أي شيء يستحسن أن تقوله لهما. لكن ذهنها بات فارغًا تمامًا. كانت ذات الحاجب تكلّمها. مسّت ذراعها فأجفلت. كانت تقول لها: «ملابسك، يا لورا. ألا تستطيعين أن ترينا الملابس التي كنت ترتدينها ليلة يوم الجمعة؟»

التقطت لورا –عشوائيًا– بضع قطع ملابس من تلك المتناثرة على أرض غرفتها. ناولتهما بنطلون جينز لعلّها كانت ترتديه ذلك اليوم، ولعلّها ما كانت ترتديه ذلك اليوم. رمت حمالة ثديين في اتجاههما. ذهبت إلى المرحاض تاركة الاثنين واقفين في الممر. كان رأس البيضة منحنيًا، مصغيًا إلى ما تقوله له ذات الحاجب. توقّفت لورا لحظة عند باب الحمام، وسمعت المرأة تقول شيئًا عن أنها ممسوسة، غريبة، غير *حاضرة تمامًا*، *أليست كذلك*؟

جلست على مقعد المرحاض. سروالها الداخلي حول كاحليها. ابتسمت لورا لنفسها ابتسامة ساخرة. إن الناس ينعتونها بما هو أسوأ من هذا. ليست حاضرة تمامًا! هذا ليس شيئًا مهمًا... *ليست حاضرة تمامًا* تعبير يكاد يكون إطراء إن هو قورن بالأشياء الأخرى التي كان الناس يقولونها عنها طيلة سنين كثيرة: غريبة *الأطوار*، معتوهة، غير طبيعية، معطوبة *الدماغ*، متخلفة، مجنونة.

معتوهة لعينة... كان هذا ما قاله لها دانييل عندما هاجمته، عندما اندفعت إليه وراحت ترفسه وتلكمه وتخمشه. أمسك بها، وانغرست أصابعه في لحم ذراعيها. قال لها: «أنت، أيتها المعتوهة اللعينة، أنت... عاهرة مجنونة». جرى الأمر كله سريعًا. ففي لحظة، كانت مستلقية هناك، على سريره، تدخن سيجارة. وفي لحظة أعقبتها، كانت سائرة على الرصيف، ساعته في جيبها، ودمه على وجهها.

عندما اصطحبها المحقّقان وسار ثلاثتهم معًا نازلين السلم، كان ذهن لورا يتساءل باحثًا عن طريقة تخبرهما بها حقيقة الأمر: أرادت أن تقول لهما إنها أخذت الساعة بدافع من الغلّ، لكن بدافع من الأمل أيضًا. أرادت أن تعاقبه؛ لكنها أرادت أيضًا أن تعطي نفسها سببًا يجعلها تعود إليه، سببًا يجعلها تراه مرة أخرى.

مع هذا، ما عاد لديها الآن أمل في رؤيته!

- 5 -

في مركز الشرطة، أتت شرطية -امرأة في مقتبل العمر لها ابتسامة لطيفة- فكشطت تحت أظافر لورا، وأخذت مُسحة من باطن وجنتها، ثم مشطت شعرها تمشيطًا بطيئًا، لطيفًا، فوجدت لورا في ذلك إحساسًا مهدهدًا، ناعمًا، شديد الشبه بما عرفته في طفولتها، كادت الدموع تطفر من عينيها.

وفي رأس لورا انطلق صوت دييدره من جديد. *ليس لديك أي تقدير لنفسك. هذه هي مشكلتك، يا لورا!* دييدره، المرأة الهزيلة ذات الوجه القاسي، المرأة التي بين ذراعيها التمس والدها السلوى بعد أن كسر قلبَه موتُ أمها. دييدره القادرة، إن وجدت ما يدفعها إلى ذلك، على أن تأتي بقائمة طويلة من مشكلات لورا. لكن أكثر ما تفضّله من بين تلك المشكلات كلّها مشكلة قلّة إحساسها بقيمتها. *أنت لا تقدرين نفسك حق قدرها، يا لورا. من حيث الأساس هذه هي مشكلتك. إن قدّرت نفسك تقديرًا أكبر، فلن تذهبي مع أي شخص يبدي لك شيئًا من الاهتمام.*

بعد أيام قليلة من إتمام لورا سنتها الثالثة عشرة، ذهبت إلى حفلة في بيت واحدة من صديقاتها. ضبطها أبوها عندما دخلت البيت متسللة في الساعة السادسة صباحًا. أمسك بها من كتفيها وهزّها كأنه يهزّ دمية. قال لها: «أين كنت؟ كدت أفقد عقلي. ظننت أن شيئًا أصابك. لا يجوز أن تفعلي بي هذا، يا دجاجتي. من فضلك، لا تفعلي بي هذا». احتضنها وشدها إليه، فأراحت رأسها على صدره وشعرت بأنها عادت طفلة من جديد، أنها عادت طبيعية من جديد. قالت له بصوت خافت: «آسفة، يا بابا. أنا آسفة حقًا».

قالت دييدره بعد نحو ساعة من ذلك: «هي ليست آسفة على الإطلاق». قالت هذا عندما كانوا جالسين إلى طاولة الإفطار. «انظر إليها. فقط، انظر إليها، يا فيليب. كأنها قطة حصلت على ما أرادته». ابتسمت لها لورا من فوق طبق حبوب الإفطار. قالت دييدره وقد التوَت شفتاها تقززًا: «إن لك ذلك المظهر. أليس لها ذلك المظهر؟ مع من كنت الليلة الماضية؟».

وفي وقت لاحق، سمعت أباها وزوجته يتجادلان. كانت دييدره تقول: «ليس لديها أي احترام لذاتها. هذه هي مشكلتها. وأنا أقول لك هذا، يا فيليب. سوف ينتهي بها الأمر حبلى قبل أن تبلغ الخامسة عشرة. لا بد لك من فعل شيء. عليك أن تفعل شيئًا من أجل هذا الأمر».

سمعَت صوت أبيها متوسلًا: «لكنها ليست غلطتها، يا دييدره. أنت تعرفين هذا. إنها ليست غلطتها».

«أوه، ليست غلطتها. هذا صحيح. أبدًا، لا تكون لورا مخطئة في شيء!»

وبعد ذلك، عندما صعدت دييدره إلى غرفة لورا كي تناديها من أجل تناول طعام العشاء، سألَتْها: «هل استخدمت واقيًا، على الأقل؟ من فضلك، قولي لي إنك ما كنت غبية إلى حد يجعلك تفعلين ذلك من غير واقٍ ذكري!».

كانت لورا مستلقية على سريرها، تحدّق في السقف. من غير أن تنظر إليها، التقطت فرشاة شعر كانت على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير وقذفتها في اتجاه زوجة أبيها. قالت لها: «من فضلك، انقلعي يا دييدره».

«آه، نعم. شيء ساحر، أليس كذلك؟ أظن أن فمك القذر أيضًا ليس غلطتك». استدارت كي تخرج، لكنها غيّرت رأيها، «هل تعرفين، يا لورا... هل تعرفين أين هي مشكلتك؟ أنت لا تقدرين نفسك كما ينبغي!»

حقيقة الأمر أن إحساس لورا بقلة قيمتها كان واحدة من مشكلاتها. لكن تلك ما كانت مشكلتها الوحيدة. إن لديها مشكلات أخرى أيضًا من بينها، وهذا ليس كل شيء: فرط شهوتها الجنسية، وضعف سيطرتها على اندفاعاتها، وسلوكها الاجتماعي غير الملائم، وانفجاراتها العدوانية، وفقدان ذاكرة يستمر فترات قصيرة، وساق عرجاء عرجًا واضحًا.

قالت الشرطية بعد أن فرغت من عملها: «والآن، انتهى الأمر كله». رأت أن لورا تبكي فأمسكت يدها وشدت عليها. قالت لها: «سوف تكونين بخير، يا حبيبتي».

قالت لورا: «أريد الاتصال بأمي. هل يحق لي أن أتصل بأمي؟»

لكن أمها لم ترد على الهاتف.

سألت لورا: «هل يحق لي إجراء مكالمة أخرى؟»

هزت الشرطية الجالسة إلى جانبها رأسها، لكنها رأت قنوط لورا فنظرت في الممر يمينًا ويسارًا، ثم أومأت لها برأسها وقالت: «هيا، اتصلي. أسرعي».

طلبت لورا رقم بيت أبيها. سمعت الهاتف يرن بضع مرات، ثم حلّقت آمالها عاليًا عندما رفع أحدهم السماعة. لكن أملها خاب على الفور عندما أتاها صوت ديبدره: «ألو! ألو! من المتصل؟». وضعت لورا السماعة ورأت عيني الشرطية تنظران إليها نظرة متسائلة. رفعت كتفيها وقالت لها: «أخطأت في طلب الرقم».

أخذت الشرطية لورا إلى غرفة صغيرة مخصصة للعاملين في مركز الشرطة. كانت في وسط الغرفة طاولة. قدمت إليها الشرطية كأسًا من الماء، ثم قالت لها إن أحدهم سيحضر لها شايًا بعد دقيقة. لكن الشاي لم يأت أبدًا. كانت تدفئة الغرفة زائدة، وفيها رائحة شيء غريب، شيء كيميائي. أحسّت بحكة في جلدها، وأحست بإعياء جعل عقلها

موحِلًا. طوت ذراعيها، وأراحت رأسها عليهما، وحاولت أن تنام. لكنها سمعت أصواتًا بشرية في الموسيقى الناعمة التي في الغرفة – أمها، وديبدره، ودانييل. وعندما ابتلعت ريقها، أحست كأن له طعمًا معدنيًا، طعمًا عفنًا.

آخر الأمر، سألت الشرطية، «ماذا ننتظر الآن؟». طأطأت الشرطية رأسها ورفعت كتفيها.

قالت لها، «أظننا في انتظار وصول المحامي المكلَّف بأن يكون حاضرًا معك. بعض الأحيان، يستغرق هذا زمنًا».

فكرت لورا في المأكولات التي اشترتها، في قطع البيتزا المجمَّدة وفي علب المأكولات الجاهزة التي دفعت ثمنها آخر عشرة جنيهات كانت معها. فكرت في الطعام الذي بقي على طاولة المطبخ في بيتها. فكرت كيف كان يذوب رويدًا رويدًا.

***

أتى المحققان بعد ما بدا لها ساعات طويلة، لكنه، على الأرجح، لم يتجاوز عشر دقائق. لم يأت المحامي معهما.

سألتهما لورا: «كم تظنان أن الوقت سيطول بنا هنا؟ لدي ساعات عمل طويلة يوم غد. وأنا الآن مرهقة جدًا».

نظر البيضة إليها نظرة طويلة متمعّنة، ثم تنهّد كأنها خيّبت آماله. قال لها: «قد يطول الأمر بعض الوقت، يا لورا. إنه... نعم، لا يبدو هذا عظيمًا، أليس كذلك؟ ثم، كما ترين، المسألة هي أنك أُدِنْت في ما مضى بهذا النوع من الأشياء. أليس ما أقوله صحيحًا؟»

«غير صحيح أبدًا. هذا النوع من الأشياء؟ أنت، ماذا تقول؟ أنا لا أتجول هنا وهناك وأطعن الناس. أنا...»

تدخّلت ذات الحاجب: «لقد طعنتِ وارن ليسي».

«طعنته بشوكة... في يده. اللعنة عليكم. هذا ليس شيئًا مماثلًا، على الإطلاق». قالت لورا هذا، ثم بدأت تضحك لأن هذا –صدقًا– لأن

هذا كان سخفًا. إنهما أمران مختلفان اختلافًا واضحًا ولا يشبه أحدهما الآخر بأي شكل من الأشكال. لكنها لم تحس بأية رغبة في الضحك. أرادت أن تبكي.

قالت ذات الحاجب: «يثير عجبي... أظن بأنه يثير عجبي... ما أراه من أنك تجدين الأمر مسليًا، يا لورا. أقول هذا لأن أكثر الناس -أعني، عندما يكونون في هذا الوضع، مثلك- لا أظن أنهم يجدون هذا طريفًا، أو مضحكًا، أبدًا...»

تنهّدت لورا قانطة. قالت: «لست أرى هذا. ولا أظن الأمر طريفًا... لست أراه كذلك. لكني أجد بعض الأحيان صعوبة في الملاءمة بين سلوكي وبين حالتي النفسية. لا أظن الأمر طريفًا، ولا مضحكًا». قالت هذا من جديد، لكنها ظلّت غير قادرة على منع نفسها من الابتسام. أجابتها ذات الحاجب بابتسامة مماثلة، فظيعة. كانت موشكة على قول شيء، لكن وصول المحامي قاطعها، المحامي الذي طال انتظاره، كان رجلًا رمادي الوجه يبدو كأن شيئًا قد فاجأه فأزعجه؛ وكانت أنفاسه تفوح برائحة قهوة حالت دون إحساس لورا بأي قدر من الثقة به.

بعد أن جلس الجميع، وجرى التعارف الرسمي بينهم؛ وبعد انتهاء الإجراءات الشكلية كلها، تابعت ذات الحاجب كلامها: «كنا نتحدّث قبل قليل عن أنك تجدين صعوبة في الملائمة بين سلوكك الخارجي وحالتك النفسية. هذا ما قلته لنا. أليس الأمر كذلك؟». أومأت لورا برأسها. «عليكِ أن تجيبي بصوت مسموع، يا لورا، لأن هذه الجلسة مسجّلة». قالت لورا إنها موافقة على ما ذُكر. «إذًا، نستطيع القول إنك لا تستطيعين السيطرة على نفسك دائمًا. إن لديك انفجارات انفعالية تتجاوز قدرتك على ضبطها، أليس كذلك؟». قالت لورا إن الأمر كذلك. «وهذا ناتج عن الحادثة التي وقعت لك عندما كنت طفلة. هل هذا صحيح؟». من جديد، أقرّت لورا بأن هذا صحيح. «والآن، يا لورا، هل تستطيعين أن تقولي لنا المزيد عن تلك الحادثة؟»، طرحت

عليها ذات الحاجب هذا السؤال بصوت مطمئِن، مشجّع. دست لورا يديها تحت فخذيها حتى تمنع نفسها من صفع تلك المرأة على وجهها. قالت المحققة: «هل تستطيعين أن تحدّثينا عن أثر تلك الحادثة عليك؟ - أعني، من الناحية الجسدية».

ألقت لورا على المحامي نظرة سريعة محاولة أن تسأله سؤالًا صامتًا: *هل أنا مضطرة إلى هذا؟* لكنه بدا غير قادر على قراءة ما أرادته. أطلقت زفرة ثقيلة، ثم بدأت تعدّد إصاباتها بنبرة بطيئة رتيبة، «كسر في الجمجمة، وكسر في عظم الترقوة، وكسر مضاعف في قصبة الساق. جروح وكدمات. غيبوبة طالت اثني عشر يومًا. ثلاثة شهور في المستشفى».

«لقد عانيتِ إصابة رضّية في الدماغ. أليس كذلك يا لورا؟ ألا تحدثيننا عن ذلك قليلًا؟».

أطلقت لورا زفرة استياء وفتحت عينيها على اتساعهما. قالت: «ألا تستطيعون البحث عن ذلك في غوغل؟ يا ربي! أعني... أهذا هو حقًا ما نحن جالسون هنا من أجله؟ شيء حدث لي عندما كنت في العاشرة من عمري! أظن أن عليَّ الآن أن أذهب إلى بيتي لأنكم -بصراحة- ليس لديكم أي شيء ضدّي، أليس هذا صحيحًا؟ ليس في حوزتكم أي شيء ضدّي».

ظل المحققان ينظران إليها غير مباليَيْن بما قالته وغير متأثرَيْن بانفجار غضبها. سألها البيضة بصوت مهذب باعث على الجنون: «ألا تستطيعين إخبارنا بضعة أمور عن طبيعة إصابة رأسك؟»

تنهدت لورا من جديد: «عانيت إصابة دماغية كان لها أثر مؤقت على قدرتي على الكلام، فضلًا عن أثرها على قدرتي على التذكر».

سألتها ذات الحاجب: «على ذاكرتك؟».

«صحيح، كان لها أثر على ذاكرتي».

صمتت ذات الحاجب لحظة، فبدا للورا أنها فعلت هذا حتى يكون

لما تقوله أثر أكبر. قالت لها: «أظن أن لهذا النوع من الإصابات عواقب انفعالية وسلوكية أيضًا. أليس هذا صحيحًا؟».

عضّت لورا على شفتها. عضت عليها بقوة. قالت وهي تنظر في عيني المرأة مباشرة متحدية أن تعتبرها كاذبة: «عندما كنت أصغر سنًا، كانت لدي مشكلات في ما يتصل بالسيطرة على حالات الغضب التي تصيبني. اكتئاب. لديَّ قدر من ضعف السيطرة؛ وهذا يعني أنني أقول أشياء غير مهذبة، أو أشياء جارحة... مثلما حدثت عندما قلت لك إنك قبيحة». ابتسمت ذات الحاجب -ترفّعت عن الأمر- ثم تابعت قائلة: «لديك أيضًا، يا لورا، مشكلات لجهة قدرتك على ضبط اندفاعاتك. أنت لا تستطيعين منع نفسك من الانقضاض على الناس ومحاولة إيقاع الأذى بهم. أظن أن هذا ما كنت تقولينه لنا، أليس كذلك؟»

«في الحقيقة، أنا...»

«لذا، في ذلك الزورق، ليلة يوم الجمعة، عندما رفضك السيد ساذرلاند -أي عندما صار، مثلما قلتِ لنا، باردًا معك، وصار عدائيًا- فقدت أعصابك في تلك اللحظة، أليس هذا ما حدث؟ لقد هاجمته. أليس كذلك؟ قلت لنا في وقت سابق إنك ضربته. كنت راغبة حقًا في إلحاق الأذى به. ألم تقولي لنا هذا؟»

سمعت لورا نفسها تقول: «كنت راغبة في اقتلاع حنجرته اللعينة». وإلى جوارها، أحسّت كيف أجفل المحامي عندما سمع كلماتها. هكذا كان الأمر: لم تفشل الشرطة، مثلما قالت للمحققين قبل قليل، في أن يكون لديها شيء ضدها... لأنهم، بكل تأكيد، أوقعوا بها! لقد أوقعوا لورا. ليسوا في حاجة إلى العثور على سلاح الجريمة. وليسوا في حاجة إلى العثور على مسدس يتصاعد الدخان من فوهته. لديهم هنا الدافع؛ ولديهم الفرصة، ولديهم لورا التي أدركوا جيدًا أنهم يستطيعون الاعتماد عليها عاجلًا أو آجلًا، يستطيعون الركون إلى أنها ستقول شيئًا غبيًا تمامًا.

- 6 -

كانت إيرين جالسة على كنبة في غرفة بيتها الأمامية، في موقع القراءة المفضل لديها، تنتظر لورا التي تأخّرت عن موعدها. في ما مضى، كانت هذه الكنبة واحدة من اثنتين متماثلتين؛ لكن رفيقتها تلفت وأُلقيت في القمامة منذ زمن بعيد. كانت الكنبة موضوعة إلى جوار النافذة في تلك الغرفة. بقعة تصطاد أكبر قدر ممكن من ضياء الشمس في الفترة الصباحية، وكذلك خلال شطر لا يستهان به من فترة ما بعد الظهر. بقعة تستطيع إيرين أن تراقب منها العالم الجاري في الخارج، ويستطيع العالم مراقبتها بدوره. هكذا تتحقق أمنيات من تقدمت بهم السن: أن يجلس المرء وحيدًا على كنبة، يتأمل في الماضي، وفي أمجاد كانت له، وفي فرص أضاعها، ويتذكر كيف كانت الأحوال، وكيف كانت الأمور. يتذكر أيضًا من ماتوا.

لكن إيرين ما كانت تفعل شيئًا من هذا. على أية حال، لم يكن ما تفعله مقتصرًا على هذا. كانت جالسة هنا منتظرة وصول لورا التي ستأتيها حاملة مشتريات هذا الأسبوع من الخضار والبقالة. وأثناء انتظارها، كانت تقلّب صفحات واحد من الكتب الثلاثة اتي تفوح منها رائحة القِدَم، الكتب التي تركتها لها كارلا مايرسون. كانت هذه الكتب ملكًا لامرأة ماتت - أنجيلا، شقيقة كارلا، جارة إيرين. كانت أنجيلا أيضًا أعزّ صديقات إيرين.

قالت كارلا لإيرين عندما أتت حاملة هذه الكتب في وقت من الأوقات خلال الأسبوع الماضي: «إنها لا تساوي شيئًا... كتب ذات أغلفة ورقيّة. كنت موشكة على أخذها إلى المتجر الخيري، لكني

قلت في نفسي إنها...». ألقت على غرفة إيرين نظرة فاحصة سريعة، وظهر تغضّن طفيف على قصبة أنفها عندما تابعت تقول: «ظننت أنها قد تكون مما ينسجم مع ذوقك».

إهانة خفية... هكذا قالت إيرين في سرّها. لكنها لا تولي هذا الأمر أي اهتمام... لا توليه أي اهتمام خاص. كانت كارلا من ذلك النوع من النساء الذي يعرف ثمن كل شيء، لكنه لا يعرف قيمة شيء. لا تساوي شيئًا!؟ هذا كافٍ لكي يبيّن ما تعرفه عن الكتب.

صحيح أن إيرين فتحت عددًا من كتب مؤسسة بنغوين، الكتب الأكثر قِدمًا، تلك التي صارت أغلفتها البرتقالية اللامعة مهترئة بالية، فبدأت الصفحات تتكسر تحت أصابعها. لقد بدأت تأكلها تلك النار الخفية الهادئة، نار المواد الحمضية التي تأكل الورق وتأتي على الصفحات فتجعلها سهلة التكسُّر، تتلفها من داخلها. كان هذا أمرًا حزينًا إلى حد رهيب... عندما يفكر المرء فيه: تلك الكلمات كلها، وتلك القصص كلها، تختفي رويدًا رويدًا. على أية حال، سيكون عليها أن ترمي تلك الكتب. وأما بقية الكتب فقد كانت ملائمة جدًا لذوقها - كانت ملائمة لذوقها إلى حد جعلها تنتهي، منذ الآن، من قراءة عدد منها. كانت تتبادل الكتب مع أنجيلا طيلة الوقت لأن لدى الاثنتين ولعًا بأفضل أنواع روايات الجريمة (ليست الدموية منها، بل الروايات الذكية، من قبيل أعمال باربارا فاين أو ب. د. جيمس)، ذلك النوع من روايات نوادي القراءة التي لا شك أبدًا في أن أشخاصًا من أمثال كارلا مايرسون يشمخون عليها بأنوفهم.

الآن، لا أهمية أبدًا لحقيقة أن إيرين قرأت أكثر هذه الروايات في ما مضى. الأمر المهم -الأمر الذي يحتمل كثيرًا أن كارلا لا تعرفه مع أنهما كانتا تتحدّثان عن شقيقتها- هو أن أنجيلا كانت «مُخرّبة» فيما يتصل بالكتب - تكسر كعوبها، وتطوي زوايا صفحاتها، وتكتب على

هوامشها. إذا تصفّح المرء نسخة أنجيلا ساذرلاند من رواية «أشباح هيل هاوس»، على سبيل المثال، فقد يلاحظ أنها وضعت خطوطا تحت جمل بعينها (*كانت الفتاة المسكينة مكروهة إلى حدّ الموت. وبالمناسبة، شنقت نفسها*). وعندما يقلّب صفحات كتاب «*عين قاتمة التكتّف*» الذي كان عند أنجيلا، يكتشف شدة تعاطفها مع مشاعر فيرا إزاء شقيقتها: *هكذا تمامًا!* لقد كتبت هاتين الكلمتين على هامش الصفحة قبالة جملة تقول لنا: *ما من شيء يقتل أكثر من الازدراء؛ وقد أتاني ازدراؤها فيضًا حارًا فغمرني*. ومن وقت إلى آخر، من الممكن أن يصادف المرء في كتاب من الكتب شيئًا من ماضي أنجيلا - تذكرة قطار، أو فاصلة ورقيّة مما يوضع في الكتب، أو قصاصة ورق عليها قائمة تسوّق: سجائر، حليب، *باستا*. وفي كتاب «*لا بلاد من أجل العجائز*»، كانت مدسوسة بطاقة بريدية مشتراة من متحف فكتوريا وآلبرت فيها صورة بيت له سياج من أعواد خشبية بيضاء. وفي كتاب «*في الغابات*»، وجدت إيرين قصاصة ورق عليها رسم: طفلين ممسك كل منهما يد الآخر. وفي «حديقة الإسمنت»، وجدت بطاقة عيد ميلاد زرقاء وبيضاء عليها صورة قارب. كان الورق متغضّنًا، مهترئًا لكثرة تقليب الصفحات. كان مكتوبًا على البطاقة: *إلى دانييل العزيز مع حبي كله في عيد مولدك العاشر. قبلات من خالتك كارلا*.

لا تساوي شيئًا!؟ إنها عبارة توضح ما تعرفه كارلا. كانت الحقيقة هي أنك عندما تقرأ كتابًا من الكتب التي اقتنتها أنجيلا ساذرلاند وقرأتها، تجد نفسك قد صرت جزءًا من حديث جار. ولما كان أي حديث مع أنجيلا قد صار مُحالًا -ما أفظع هذا!- فإن كُتبها غدت ذات قيمة كبيرة في نظر إيرين... قيمة كبيرة جدًا.

لعله كان ممكنًا أن تكون إيرين الآن راضية كل الرضا لولا قلقها الناجم عن تأخر لورا، ذلك القلق الذي يلحّ عليها، فهي جالسة في غرفتها، مستمتعة مثلما تستمتع سحلية بشمس الصباح، تتصفّح هذه

الكتب وتتابع عيناها موظفي المكاتب والأمهات مع أطفالهن يمرّون مسرعين في الزقاق خارج نافذتها.

كان بيت إيرين الصغير المكون من غرفتين في الطابق السفلي وغرفتين في الطابق العلوي، يقع إلى جانب زقاق «هايواردز بليس» وهو زقاق ضيق في قلب المدينة. ليس هذا الزقاق بأكثر من درب للمشاة يصل بين شارعين أكبر منه. على أحد جانبَي زقاق هايواردز بليس، تصطف خمسة بيوت صغيرة متماثلة (تعيش إيرين في البيت رقم اثنان)، وعلى جانبه الآخر موقع «ريد بول ثيتر» (الذي لا تعرف كارلا إن كان قد أتى عليه حريق لندن الكبير أم لم يأت عليه، لكنهم طوّروه الآن وجعلوه كتلة مكاتب لا روح فيها). يوفر هذا الزقاق سبيلًا مختصرًا وملائمًا، ويظل مزدحمًا طيلة النهار وطيلة الليل، في أيام العمل، على الأقل.

ترى، أين هي لورا؟ لقد اتفقتا على مجيئها يوم الثلاثاء، أليس كذلك؟ اعتادت لورا أن تأتي يوم الثلاثاء لأن عملها في محل تنظيف الملابس يبدأ في ساعة متأخرة من يوم الثلاثاء. فما اليوم؟ أهو يوم الثلاثاء حقًا؟ هذا ما ظنّته إيرين؛ لكنها بدأت الآن تشك في نفسها. أرغمت نفسها على النهوض من جلستها. قامت متمايلة - التوى كاحلها منذ فترة غير طويلة. وكان هذا واحدًا من الأسباب التي جعلتها في حاجة إلى من يساعدها في التسوق - وبشيء من الجهد، دارت من حول أكوام الكتب الصغيرة الموضوعة على الأرض، الكتب المقروءة والكتب غير المقروءة، الكتب التي تعجبها والكتب التي سيكون مصيرها الذهاب إلى متجر أوكسفام الخيري، وسارت عابرة غرفة المعيشة ذات الأثاث البسيط المؤلف من كرسيها الذي كانت جالسة عليها ومن أريكة صغيرة ومنضدة زينة استقر عليها جهاز تلفزيون صغير الحجم إلى حد غير مألوف، جهاز لا تستخدمه إلا في ما ندر، ورفوف كتب عليها جهاز الراديو. شغّلت الراديو.

عند تمام الساعة العاشرة، أكد المذيع أن اليوم هو يوم الثلاثاء حقًا: الثلاثاء، الثالث عشر من آذار، إن شئنا الدقة. قال مذيع الأخبار إن رئيسة الوزراء تيريزا ماي أمهلت رئيس وزراء روسيا حتى منتصف الليل لكي يوضح كيف جرى تسميم جاسوس سابق في سالزبري. قال أيضًا إن واحدًا من نواب حزب العمال في البرلمان قد أنكر إقدامه على صفع واحدة من الناخبات على مؤخّرتها. قال المذيع إن الشرطة استجوبت امرأة شابة في ما يتصل بجريمة قتل دانييل ساذرلاند، الرجل البالغ ثلاثة وعشرين عامًا، الذي وُجد يوم الأحد مقتولًا في زورق في قناة ريجنت. تابع المذيع ذكر عدد من الأمور الأخرى أيضًا، لكن إيرين ما عادت قادرة على سماع صوته من خلف نبض الدم في أذنيها.

إنها تتخيّل أمورًا. لا بد أنها تتخيل أمورًا. دانييل ساذرلاند!؟ هذا غير ممكن. بيد مرتعشة، أغلقت إيرين الراديو، لكنها لم تلبث أن شغّلته من جديد. إلا أن المذيع كان قد انتقل إلى الحديث في أمور أخرى: يتحدّث الآن في شيء مختلف... الطقس، وجبهة هوائية باردة آتية.

لعل المقصود دانييل ساذرلاند آخر! فكم يبلغ عدد من يحملون اسم دانييل ساذرلاند؟ لم تشتر صحيفة ذلك الصباح. نادرًا ما تشتري صحفًا هذه الأيام. لذا، فهي غير قادرة على التحقّق من الأمر. لقد سمعت أن من الممكن العثور على أي شيء عن طريق الهاتف المحمول؛ لكنها غير واثقة من أنها تعرف كيف تفعل هذا. على أية حال، لا تستطيع الآن تذكّر أين رأت هاتفها آخر مرة. لعله في الطابق العلوي، في مكان من الأماكن هناك. ومن المرجح أيضًا أن تكون بطاريته قد فرغت.

لا، عليها أن تؤدّي كل شيء بالطريقة التقليدية، بالطريقة القديمة. عليها أن تذهب إلى كشك الصحف لكي تشتري صحيفة. ثم إنها في حاجة أيضًا إلى حليب وخبز، إن لم تأت لورا. خرجت إلى الممر، وارتدت معطفها، ثم حملت حقيبة يدها ومفتاح البيت. همّت بفتح الباب فانتبهت، انتبهت في الوقت المناسب تمامًا، إلى أن قدميها لا

تزالان في الشبشب البيتي. عادت إلى غرفة المعيشة، فأبدلت بالشبشب حذاء الخروج.

صارت كثيرة النسيان، لكن هذا كل شيء. مع ذلك، يظل غريبًا مقدار ما تحسّه هذه الأيام من توتّر كلما خرجت من بيتها. اعتادت في ما مضى أن تخرج وتتجوّل كثيرًا، أن تتسوّق وتذهب إلى المكتبة العامة، وأن تعمل تطوعًا في متجر الصليب الأحمر في هاي ستريت. لكن المرء يفقد عاداته سريعًا إن ظل حبيس البيت حينًا من الزمن. عليها أن تنتبه إلى هذا الأمر. لا تريد أن ينتهي المطاف بها إلى أن تصير من جملة أولئك الأشخاص المسنين الذين يصيبهم الذعر إن هم خرجوا من بيوتهم.

كان يسعدها -عليها أن تعترف بهذا- تفادي الذهاب إلى السوبر ماركت لأنه غاصٌّ دائمًا بشباب نافدي الصبر، منشغلي الذهن، لا يفكّرون في شيء. لا يعني هذا أنها لا تحب الناس الذين في سن الشباب. لا تريد أيضًا أن تصير من ذلك النوع ممن تقدّمت بهم السن - ذلك النوع المنغلق، ذي الطبع المرّ - أولئك الذين يتجوّلون منتعلين صنادل كبار السن، بلونها البيج، التي يجدون إعلانات عنها في الصفحات الأخيرة من ملاحق يوم الأحد في الصحف. تستخدم إيرين حذاء «نيو بالانس» رياضيًا، لونه أزرق وبرتقالي، له رباط فيلكرو اللاصق. أهدتها أنجيلا هذا الحذاء يوم عيد الميلاد. ليس لدى إيرين أي شيء ضد الشبيبة... بل إنها، هي نفسها، كانت شابة في ما مضى. المشكلة هي أنهم يفترضون أشياء، ألا يفعلون هذا؟ يفعله بعض أولئك الشباب والشابات. يفترضون أن المرء أصم، أعمى، ضعيف. قد يكون بعض هذه الأشياء صحيحًا (بعضها غير صحيح أيضًا - سمَع إيرين مرهف كسمع خفاش. كثيرًا ما تتمنى، في واقع الأمر، وبالنظر إلى جدران البيت الرقيقة كالورق، ألا يكون سمعها حادًا إلى هذه الدرجة). مع هذا، يظلّ وجود تلك الافتراضات مزعجًا لها.

اقتربت من بيتها عائدة من المتاجر. لم تجد في الصحيفة شيئًا عن دانييل ساذرلاند، ليس هذا فحسب، بل أدركت أنها نسيت شراء مربّى الليمون الذي تضعه على التوَست. يعني هذا أن رحلتها كانت فاشلة.

تمكّنت آخر الأمر من العثور على هاتفها (وجدته في الحمام) لكن بطاريته كانت ميتة، مثلما توقّعت، وكانت عاجزة عجزًا تامًا عن تذكّر المكان الذي وضعت فيه شاحن الهاتف.

أمر يثير الجنون!

لكنها لم تفقد عقلها. ليست امرأة خرفة! هذا ليس خرفًا! إنها النتيجة التي يقفز إليها الناس قفزًا عندما يرون شخصًا تقدّمت به السن، وصار ينسى بعض الأشياء وكأن الشباب لا ينسون أحيانًا أين وضعوا مفاتيحهم، ولا ينسون هذا البند أو ذاك مما سجلوه في قائمة التسوق. كانت إيرين واثقة من أن هذا ليس خرَفًا. فبعد كل حساب، هي لا تقول «مكنسة» عندما تعني «مفرش الطاولة»؛ وهي لا تتوه في طريق عودتها من السوبر ماركت إلى البيت. وهي لا تضيّع (أكثر الأحيان) خيط الحديث... هي لا تضع جهاز التحكّم الخاص بالتلفزيون في البراد!

تصيبها «حالات»، بعض الأحيان، لكنها واثقة من أن هذا ليس خرفًا. هذا ما قاله لها طبيبها. المسألة كلها هي أنها، إن تركت نفسها تتعب، وإن نسيت أن تشرب القدر الكافي من الماء، وأن تأكل على نحو منتظم، فإن التعب يصيبها، ثم تصير مشوّشة الذهن، ثم تضيّع نفسها تمامًا قبل أن تدرك ما يجري. قال لها الطبيب عندما حدث ذلك آخر مرة: «لقد استنفدت مواردك، يا سيدة بارنز. استنفدتها استنفادًا شديدًا! عليك أن تهتمي بنفسك أكثر. وعليك أن تأكلي جيدًا. لا يجوز أن يصيبك نقص في السوائل. إن لم تهتمي بهذه الأمور، فمن الطبيعي تمامًا أن تجدي نفسك مشوّشة الذهن، وأن يصيبك الدوار. قد تسقطين مرة أخرى. نحن لا نريد أن يحدث هذا، فما رأيك؟».

كيف السبيل إلى أن تشرح له، إلى أن تشرح لهذا الشاب اللطيف

(وإن يكن أحيانًا زائد التلطف)، لهذا الطبيب ذي الصوت الناعم والعينين الزرقاوين النديتين، أنها تود أحيانًا أن تفقد نفسها في غياهب التشوّش؟ بحق الرب، كيف تستطيع أن توضح له أن ذلك الإحساس، مهما يكن مخيفًا، إحساسٌ ممتع جدًا، بعض الأحيان؟ كيف تشرح له أنها تسمح لنفسها، من وقت إلى آخر، بأن تفوّت عددًا من الوجبات أملًا في أن يعاودها ذلك الأمر، ذلك الإحساس بأن شخصًا ضاع من حياتها يمكن أن يعود إليها إن هي انتظرته صابرة؟

لأنها... لأنها تنسى في تلك اللحظات أن ويليام، الرجل الذي أحبّته، الذي قاسمته الفراش أكثر من أربعين سنة، قد مات. تصير قادرة على نسيان أنه رحل منذ ست سنين، وتصير قادرة على أن تفقد نفسها في قصة خيالية تقول إنه ذهب إلى عمله، أو إنه خرج كي يلتقي صديقًا في الحانة. ثم لا يلبث أن ينتهي بها الأمر إلى سماع صفيره المألوف في الخارج، في الزقاق، فتسوّي فستانها، وتصلح شعرها... بعد دقيقة، بعد دقيقة واحدة فقط، ستسمع صوت مفتاح ويليام في قفل الباب.

كانت إيرين تنتظر ويليام عندما التقت لورا أول مرة... يوم عثرتا على جثة أنجيلا.

كان البرد شديدًا. وكانت إيرين قلقة لأنها استيقظت فلم تجد ويليام. لم تستطع فهم أين ذهب ويليام. لماذا لم يعد إلى البيت؟ حملت نفسها على النزول إلى الطابق السفلي، وارتدت مئزرها البيتي، ثم خرجت و، أوه... طقس صقيعي، ولا أثر لويليام. لم تر أحدًا في الخارج، في الزقاق. أين ذهب الناس؟ استدارت إيرين لكي تدخل بيتها، لكنها وجدت أن الباب قد أُغلق. لا مشكلة في هذا لأنها فطنةٌ، لأنها محتاطة دائمًا ولا تخرج من البيت من غير أن يكون المفتاح في جيبها. لا يمكن أن ترتكب تلك الغلطة مرة أخرى... ليس بعد آخر مرة. ولكن، عند ذلك -هذا ما كان أمرًا سخيفًا- لم تستطع إدخال المفتاح في قفل

الباب. كانت يداها متجمّدتين، فصارتا مثل مخلبَيْن. عجزت عن وضع المفتاح في قفلِ الباب. ظل المفتاح يسقط إلى الأرض؛ وكان هذا أمرًا سخيفًا، مضحكًا، لكنها وجدت نفسها تبكي. برد شديد جدًا؛ وهي وحدها؛ ولا فكرة لديها أين يمكن أن يكون ويليام الآن. صاحت فلم يأتِها أحد، ثم تذكّرت أنجيلا. أنجيلا في البيت المجاور، أليس كذلك؟ إذا دقت الباب بهدوء، فلن توقظ الصبي النائم.

فعلت هذا. فتحت بوابة حديقة البيت المجاور، ودقت على باب البيت دقًا لطيفًا. صاحت: «أنجيلا! هذه أنا. أنا إيرين. لا أستطيع دخول بيتي. لا أستطيع فتح بابي. ألا تساعدينني؟».

لم تتلق إجابة على ندائها، فدقّت الباب من جديد. لا إجابة. من جديد، بحثت عن المفتاح في جيبها، لكن أصابعها آلمتها كثيرًا. كانت أنفاسها بيضاء أمام وجهها. صارت قدماها خدرتين. وعندما استدارت، تعثّرت عند البوابة وسقطت. صدمة شديدة على وركها. صاحت وجرت دموعها على خديها.

«هل أنتِ بخير؟ يا إلهي! أنتِ لست بخير. بالطبع، لست بخير. هيا، هيا، لا بأس عليك. دعيني أساعدك». كانت فتاة واقفة إلى جانبها. فتاة غريبة ترتدي ملابس غريبة: بنطلونًا عليه أزهار، وسترة ضخمة فضية اللون. كانت فتاة قصيرة، نحيلة، شعرها بين الأبيض والأشقر، وعلى أنفها نمش كثير. عيناها زرقاوان شديدتا الاتساع، وبؤبؤاها كأنهما ثقبان أسودان. «اللعنة... يا عزيزتي. أنت تتجمدين...». ضمّت الفتاة الغريبة يدي إيرين بين كفَّيها وبدأت تدلكهما بحركة لطيفة. «أوه، لقد بردت كثيرًا، أليس كذلك؟ هل هذا بيتك؟ هل انطبق الباب فبقيت حبيسة في الخارج؟». شمّت إيرين رائحة كحول في أنفاس الفتاة. ما كانت متأكدة من أنها بلغت السن التي يحق لها فيها أن تشرب... لكن المرء ما عاد يعرف شيئًا هذه الأيام. «هل في البيت أحد؟». اجتازت الممر حتى وصلت إلى باب بيت أنجيلا. دقّت الباب وصاحت، «أنتم! افتحوا لنا الباب!».

قالت إيرين: «أوه، لا تصيحي بصوت مرتفع هكذا. تأخر الوقت كثيرًا. لا أريد إيقاظ الصبي الصغير».

رشقتها الفتاة بنظرة سريعة. قالت لها: «الساعة الآن السادسة صباحًا. إن كان لديهم أطفال فمن المتوقّع أن يكونوا قد استيقظوا الآن».

قالت إيرين: «آه... لا. لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا. لا يمكن أن تكون الساعة قد بلغت السادسة صباحًا. معنى هذا أن ويليام لم يعد إلى البيت أبدًا... أنه ظل في الخارج طيلة الليل». ارتفعت أصابعها المتجمدة إلى فمها. قالت: «أوه، أين ويليام؟ أين هو؟».

بدت الدهشة على الفتاة. قالت لها: «آسفة، يا سيدتي». أخرجت من جيبها منديل كلينكس متغضنًا، ومسحت به وجه إيرين. «لا بأس. سوف نعرف هذا. سوف نعرفه. لكن عليّ أولًا أن أدخلك إلى بيتك. تكادين تتجمّدين».

تركت الفتاة يدي إيرين واستدارت عائدة إلى باب بيت أنجيلا. دقّت الباب بقوة، دقته أول الأمر بقبضة يدها، ثم انحنت والتقطت حصاة. قذفت الحصاة على النافذة.

قالت إيرين: «أوه، ماذا تفعلين؟».

تجاهلتها الفتاة. ركعت الآن على ركبتيها ودسّت أصابعها تحت صندوق علبة البريد. رفعت الغطاء. صاحت: «أنتم!»، ثم قفزت فجأة وارتدّت إلى الخلف. طارت في الهواء لحظة قبل أن تسقط وتصطدم مؤخرتها الهزيلة بالأرضية الحجرية. قالت الفتاة: «أوه، يا للجحيم!». نظرت إلى إيرين بعينين متسعتين كثيرًا، «يا ربي! هل هذا بيتك؟ منذ متى... يا إلهي! من هذه؟». كانت تنهض واقفة على قدميها وتمسك بيدَيْ إيرين من جديد، بقوة هذه المرة، «من في البيت؟».

قالت إيرين وقد حيّرها سلوك الفتاة الغريب: «هذا ليس بيتي. إنه بيت أنجيلا».

«وأين تعيشين؟».

«نعم، واضح أنني أعيش في البيت المجاور». قالت إيرين هذا ومدّت يدها بالمفتاح.

«ولماذا يكون هذا واضحًا؟». لكنها أخذت المفتاح، على أية حال. أحاطت كتفَيّ إيرين بذارعَيْها. وسارت عائدة بها إلى بيتها. فتحت الباب من غير أية صعوبة. قالت لها: «هيا، ادخلي البيت. سوف آتيك بفنجان شاي بعد دقيقة واحدة. لفّي نفسك ببطانية، أو بأي شيء دافئ. عليك أن تدفئي نفسك جيدًا».

ذهبت إيرين إلى غرفة المعيشة فجلست على كنبتها المعتادة، وانتظرت إلى أن تأتيها الفتاة بفنجان الشاي الذي وعدتها به. لكن الشاي لم يأت. بدلًا من ذلك، سمعت من الممر أصواتًا: كانت الفتاة تتصل من هاتفها في ردهة البيت.

سألتها إيرين: «هل تتصلين بويليام؟».

قالت الفتاة: «بل أتصل بالشرطة».

سمعت إيرين الفتاة تقول في الهاتف، «نعم، هناك شخص في الداخل». ثم، «لا، لا، لا يوجد أي احتمال. لا يوجد أي احتمال أبدًا. بالتأكيد، مئة بالمئة. الرائحة واضحة». ثم انصرفت. لم تنصرف على الفور - جلبت أول الأمر فنجان الشاي وقدمته إلى إيرين بعد أن وضعت فيه مكعَّبَيْن من السكر؛ ثم جثت عند قدمي إيرين، وضمت يديها بين كفيها، وقالت لها أن تظل جالسة في مكانها إلى أن تصل الشرطة. «عندما يكونون هنا، قولي لهم أن يذهبوا إلى البيت المجاور. هل فهمت هذا؟ عليك ألا تذهبي إلى هناك. هل اتفقنا؟ وبعد ذلك، يستطيعون مساعدتك في العثور على ويليام. عليك فقط... عليك ألا تخرجي مرة أخرى في هذا البرد. هل اتفقنا؟ هل تعدينني بهذا؟».

نهضت واقفة على قدميها، «عليَّ أن أذهب الآن. إنني آسفة، لكنني سأعود». جثت من جديد. قالت: «اسمي لورا. سآتي في وقت لاحق لرؤيتك. كوني بخير!».

كانت إيرين قد نسيت اسم الفتاة عندما وصلت الشرطة. شرطيتان في ملابس الشرطة الرسمية. لكن هذا النسيان لم يبدُ أمرًا سيئًا، لأن الشرطيتين لم تبديان أي اهتمام بها. كان اهتمامهما منصبًا على ما يجري في البيت المجاور. وقفت إيرين أمام باب بيتها تنظر إلى الشرطيتين الجاثتين عند باب البيت المجاور تنظران عبر صندوق البريد، مثلما فعلت الفتاة من قبل، ثم ترتدان واقفتين مثلما فعلت الفتاة أيضًا. تكلّمت الشرطيتان عبر جهاز اللاسلكي الصغير، ثم طلبتا من إيرين أن تعود إلى غرفة المعيشة في بيتها. وضعت واحدة منهما الغلاية على النار، وأتتها ببطانية من الطابق العلوي. وبعد حين، وصل شاب يرتدي سترة فاقعة الألوان. تحقّق من درجة حرارتها، ثم قرص جلدها قرصة صغيرة. طرح عليها أسئلة كثيرة كان من بينها: متى أكلت آخر مرة، وفي أي يوم نحن، وما اسم رئيسة الوزراء.

عرفت إجابة السؤال الأخير. قالت بنبرة لاذعة: «أوه، إنها تلك المرأة الفظيعة، تيريزا ماي. لست من أنصارها. أنت أيضًا لست من أنصارها، أليس كذلك؟». ابتسم الرجل وهز رأسه نفيًا. تابعت تقول: «لا. عرفت أنك لست من أنصارها. أنت من الهند، فكيف تكون مؤيدًا لها؟».

قال الشاب: «أنا من ووكينغ»[1].

لم تدر إيرين ما تقوله بعد ذلك. كانت بها شيء من الاضطراب، وتشوّش كبير. لم يفدها شيئًا كون ذلك الشاب وسيمًا، بل وسيمٌ جدًا: عينان داكنتان طويلتا الأهداب، ويدان رقيقتان، ولطف شديد. عندما مسّ رسغها، أحست بأن وجهها قد احمرّ. كانت له ابتسامة جميلة، ومسلك لطيف، حتى عندما وبّخها توبيخًا رقيقًا لأنها لا تعتني بنفسها. قال لها إنها مصابة بتجفاف شديد، وإن عليها أن تكثر من شرب الماء مع الإلكتروليتات. كان هذا، بالضبط، ما قاله لها طبيبها.

(1) ووكينغ: من ضواحي لندن.

انصرف الشاب الوسيم، وفعلت إيرين مثلما قال لها. أكلت قطعة توست عليها عسل، ثم شربت كؤوسًا كبيرة من الماء، لكن من غير إلكتروليتات لأنه ما كان لديها شيء منها. بدأت آخر الأمر تحسّ بأنها عادت إلى نفسها قليلًا؛ لكنها لم تلبث أن سمعت صوت اصطدام فظيع، آتيًا من الخارج، صوتًا مفزعًا. تسارعت ضربات قلبها. وهرعت إلى نافذة المعيشة. رأت في الخارج رجالًا، رجالًا يرتدون ملابس رسمية يستخدمون نوعًا من عمود معدني ضخم لكي يكسروا باب بيت أنجيلا. قالت إيرين بصوت مرتفع: «أوه، يا إلهي». أتتها فكرة -فكرة غبية- مفادها أن أنجيلا لن تكون مسرورة أبدًا بما يحدث الآن.

وعلى نحو غريب، لم تفهم ما جرى حتى هذه اللحظة، ولم تدرك أبدًا أن أنجيلا لن يسرّها بعد الآن شيء. لم تدرك الأمر إلى أن أتت شرطية أخرى، امرأة مختلفة من غير ملابس الشرطة الرسمية، وجلست إلى جوارها. شرحت لها أن أنجيلا قد ماتت، وأنها سقطت عن السلَّم فانكسرت رقبتها. عند ذلك، فهمت إيرين الأمر كلّه، فهمته أخيرًا.

ثم قالت الشرطية لإيرين إن من المحتمل أن تكون أنجيلا قد ظلت راقدة هناك بضعة أيام، ميتة... بل لعلها ظلت أسبوعًا كاملًا. صارت إيرين شبه عاجزة عن الكلام لشدّة إحساسها بالعار. أنجيلا المسكينة راقدة هناك وحدها، تماما خلف هذا الجدار. وأما إيرين التي غرقت في واحدة من تلك «الحالات» التي تأتيها وتركت نفسها تنزلق بعيدًا في تشوش ذهنها، فلم تتذكّرها أبدًا.

«هي لم تصرخ أبدًا...». قالت إيرين هذا عندما استطاعت أخير أن تعثر على صوتها، «لو صرخت لسمعتها. هذه الجدران رقيقة كالورق». كانت الشرطية لطيفة. قالت لإيرين إن من المرجح أن تكون أنجيلا قد فارقت الحياة فور سقوطها. «لكني واثقة من أنكم تستطيعون معرفة توقيت وفاتها. ألا تستطيعون هذا؟». تعرف إيرين القليل عن الطب الشرعي، تعرفه من قراءاتها. لكن المرأة قالت لها إن التدفئة كانت تعمل

في البيت، وإنها كانت على درجة حرارة شديدة الارتفاع. قالت إن جثة إنجيلا كانت راقدة إلى جوار مشع التدفئة عند أسفل درجات السلم. هذا ما يجعلهم غير قادرين أبدًا على تأكيد توقيت الوفاة على نحوٍ دقيق.

أبدًا، لن يعرف أحد ما حدث؛ لن يعرفه أحد معرفة حقيقيةً. قالت الشرطة إنها كانت حادثة؛ وقد تقبّلت إيرين هذا. لكن الأمر كلّه ظل يبدو، في نظرها، غير متّسق. ظل لديها إحساس يقول لها إنهم تعجّلوا الوصول إلى استنتاجاتهم. لقد كانت في حياة أنجيلا منازعات، منازعات كثيرة: خلافات مع أختها، وخلافات مع ابنها - أو، إن شئنا الدقة، بدا لإيرين أن ابن أنجيلا، أو شقيقتها، أتى إليها وألقى عليها محاضرة توبيخية فتركها حزينة غاضبة... أغضبها عندما انتقد إفراطها في أمر من الأمور. تطرّقت إيرين إلى ذكر تلك الخلافات، خلافات في ما يخص المال؛ وخلافات في ما يخص دانييل - قالت هذا للشرطة، لكنهم بدو غير مهتمين بما قالته. كانت أنجيلا مدمنة على الكحول. كانت تبالغ في الشرب كثيرًا، فسقطت وكسرت رقبتها. قالت لها الشرطية اللطيفة، «يحدث هذا كثيرًا، أكثر مما تتخيلين. ولكن، إن تبادَرَ إلى ذهنك أي أمر آخر، أي أمر من الممكن أن تكون له صلة بما حدث، فلك أن تكلميني بالهاتف». قالت هذا وناولت إيرين بطاقة عليها رقم هاتفها.

قالت إيرين فجأة، عندما همّت الشرطية بالانصراف: «رأيتها مع رجل».

قالت الشرطية بانتباه: «نعم. متى كان هذا؟».

كانت إيرين غير قادرة على التحديد. كانت غير قادرة على التذكّر. صار ذهنها صفحة بيضاء. لا، لم يصر صفحة بيضاء، بل صار ملفّعًا بالضباب. كانت في ذهنها أشياء -ذكريات، ذكريات مهمة- لكن كل شيء كان يتحرك وينتقل من غير وضوح. وجدت أنها غير قادرة على تثبيت أي شيء، « أظن ذلك كان منذ أسبوعين». قالت هذا آملة أن يكون صحيحًا.

شدّت الشرطية على شفتيها. قالت لها: «لا بأس. هل تتذكّرين أي شيء عن هذا الرجل؟ هل أنت قادرة على وصفه لي؟ أم أنت...».

قالت إيرين: «كانا يتكلّمان هناك، في الزقاق. كانت بينهما مشكلة. وكانت أنجيلا تبكي».

«هل تقولين إنها كانت تبكي؟».

«كانت تبكي. لكنها...». توقفت إيرين لحظة. أوقفها عن الكلام ترددها بين رغبتها في قول الحقيقة للشرطية وإحساسها بأن في هذا خيانة لصديقتها. «كثيرًا جدًا ما تكون ميّالة إلى البكاء عندما تكثر من الشرب... تصير مكتئبة، سوداوية».

أومأت الشرطية برأسها وابتسمت. قالت: «فهمت». كانت مستعدة للانصراف... «لكنك لا تتذكرين كيف كان شكل هذا الرجل، أليس كذلك؟ هل كان طويلًا، قصيرًا، بدينًا، نحيلًا...؟».

هزت إيرين رأسها نفيًا. لقد كان عاديًا، مثل بقية الناس. قالت أخيرًا: «كان معه كلب. كلب صغير. أسود وبني. أظنه كلبًا من نوع إيرديل. لا، كلب إيرديل يكون أكبر حجمًا، أليس كذلك؟ لعله من نوع فوكس تيريير؟».

جرى هذا منذ ثمانية أسابيع. ماتت أنجيلا أول الأمر، والآن مات ابنها أيضًا. ما كانت لدى إيرين أية فكرة عما إذا كانت الشرطة قد تحرّت أمر الرجل الذي رأته في الخارج مع أنجيلا. إن كانت الشرطة قد فعلت هذا، فمن الواضح أنها لم تصل إلى أية نتيجة لأن وفاة أنجيلا اعتُبرت حادثة. الحوادث تقع؛ وهي تقع مع السكارى خاصة. ولكن... أم وابنها يموتان! ثمانية أسابيع بينهما! ثمانية أسابيع فقط!

في الروايات، لا يمكن أن يكون هذا من غير معنى.

مكتبة
t.me/t_pdf

- 7 -

تطل نافذة غرفة نوم ثيو على حديقة لها جدار يحيط بها. وخلف الجدار، تأتي القناة. في يوم ربيعي مثل هذا اليوم، يكون المشهد رقصة من ألوان خضراء: الأغصان الجديدة المتألقة في أشجار الدلب والبلوط، واللون الزيتوني الكامد في أشجار الصفصاف الباكي عند رصيف المرسى، والطحالب المائية العائمة بلونها الأخضر المصفرّ اللامع، متناثرة على سطح الماء.

جلست كارلا في مكانها عند النافذة. ضمت ساقيها ورفعت ركبتيها حتى صارتا تحت ذقنها. كانت ترتدي ثوب الحمام الخاص بثيو، الثوب المختَلَس منذ زمن بعيد جدًا من فندق بيلز رايفز في «جوان لو بان». أطراف الثوب متهدّلة حولها من غير إحكام. مرت قرابة ست سنين منذ أن تركت العيش في هذا البيت. مع ذلك، ظل مكانًا تشعر فيه بأنها على طبيعتها أكثر من أي مكانٍ آخر. هي منتمية إلى هذا البيت أكثر من انتمائها إلى البيت الأكبر مساحة الذي ترعرت فيه في لونزديل سكوير؛ وبالتأكيد أكثر من بيتها الحالي المتواضع ذي الطابقين الواقع على مقربة من هنا... لا يزال هذا البيت، بيت ثيو، هو البيت الذي يمنحها شعورًا بأنها في منزلها.

كان ثيو مستلقيًا على السرير وقد أزاح الأغطية جانبًا. كان يقرأ شيئًا في هاتفه، ويدخن.

التفتت كارلا إليه وقالت له: «ظننتك قلت إنك بدأت تقلّل التدخين». عضت أسنانها على شفتها السفلى عضًا خفيفًا.

قال من غير أن يرفع رأسه كي ينظر إليها: «هذا ما أفعله. لا أدخن الآن إلا قبل الجنس، وبعد الجنس، ومع القهوة. لذا يكون الحد الأقصى خمس

سجائر في اليوم. هذا إذا افترضت وجود المضاجعة التي يؤسفني القول إنها ما عادت أمرًا مضمونًا حصوله هذه الأيام، ما عادت كذلك أبدًا».

ابتسمت كارلا رغمًا عن نفسها. قالت: «عليك أن تبدأ الاهتمام بنفسك. أنا جادة في هذا».

نظر إليها. ابتسامة كسلى على وجهه. قال وهو يمرّر يده على جذعه: «ماذا؟ هل ترين أنني سمنت؟».

فتحت كارلا عينيها معبرة عن دهشتها لما سمعته. قالت: «أنت سمين...». أشارت بذقنها إلى بطنه... «المسألة مسألة رأي. عليك أن تقتني كلبًا جديدًا، يا ثيو. تقوم بنشاط جسدي أكبر كثيرًا عندما يكون لديك كلب لأنه يجعلك تخرج من البيت. تعرف أن هذا صحيح. من غير وجود كلب، أنت تكتفي بالجلوس هنا، تأكل وتدخن وتصغي إلى الموسيقى...».

عاد ثيو إلى هاتفه. اكتفى بإجابة سريعة: «من الممكن أن يظهر ديكسون في أية لحظة».

نهضت كارلا واقفة، واقتربت من السرير. انفتح ثوبها عندما جثت أمامه: «ثيو... ضاع ديكسون منذ ستة أسابيع. إنني آسفة، لكن الفتى المسكين لن يعود».

نظر إليها ثيو نظرة حزينة. قال: «نحن لسنا واثقين من هذا». مدّ يده إليها، وضعها برفق على وسطها.

كان الطقس دافئًا إلى حد يسمح بتناول طعام الإفطار في الخارج، على شرفة البيت الأمامية. قهوة وتوست. دخن ثيو سيجارة أخرى وبدأ يتذمّر من ناشره. قال: «إنه جاهل! وأيضًا، عمره نحو ستين عامًا. لا يعرف شيئًا في هذا العالم. يريدني أن أحذف كل ما هو متّصل بالسياسة؛ لكن هذا، عندما تفكّرين في الأمر، هو قلب الرواية نفسه. لا، لا، هو ليس قلبها، هذا غير صحيح. إنه جذرها. إنه الجذر. يريد اجتثاث جذر الرواية. يريد اجتثاث جذرها وإلقاءها في بحر من

العواطف! هل أخبرتك بهذا؟ يرى أن سيوبان في حاجة إلى مزيد من الرومانسية بغية إضفاء صفة إنسانية عليها. لكنها مخلوقة بشرية! بل هي الشخصية البشرية الأكثر اكتمالاً من بين كل ما كتبت». أمالت كارلا كرسيها إلى الخلف مسندة قدميها الحافيتين على الكرسي الذي أمامها. عيناها مغمضتان. كانت نصف مصغية إلى كلامه. لقد سمعت هذا الحديث من قبل... سمعت نسخًا متنوعة منه. تعلّمت أن لا معنى لأن تبدي رأيها، ففي نهاية المطاف، سوف يفعل ما يريد فعله. كف ثيو عن الكلام بعد هنيهة. ظلا جالسين في رفقة صامتة يصغيان إلى الأصوات الآتية من الجوار: أطفال يتصايحون في الشارع، وأصوات أجراس الدراجات على رصيف المرسى، وبطّات تبلغهما أصواتها من بعيد. صوت اهتزاز هاتف على الطاولة. إنه هاتف كارلا. رفعت الهاتف ونظرت إليه، ثم تنهدت وأعادته إلى مكانه.

رفع ثيو حاجبيه مستفهمًا. سألها: «أهو متودّد غير مرغوب فيه؟».

هزت رأسها نفيًا: «الشرطة».

نظر إليها ثيو نظرة طويلة: «ألن تردّي على اتصالهم؟».

«سوف أرد. في ما بعد». عضت على شفتها. «سأفعل هذا. لكني الآن لا أريد تكرار الأمر نفسه من جديد؛ لا أريد أن يظل ماثلًا أمام عيني. لا أريد أن أتخيّله دائمًا».

بسط ثيو يده فوق يديها. قال لها: «لا بأس عليك. لست مضطرة إلى الكلام معهم إن كنت غير راغبة في ذلك».

ابتسمت كارلا: «أظنني أريد الكلام معهم، على الأرجح». أنزلت قدميها عن الكرسي ودسّتهما في الشبشب البيتي الكبير جدًا عليهما، الشبشب الذي استعارته من ثيو. انحنت وصبت لنفسها نصف فنجان من القهوة. أخذت رشفة من فنجانها، فوجدت أن القهوة باردة. نهضت واقفة على قدميها ورفعت بقايا الإفطار. وضعت وعاء القهوة الفضّي وفنجانَيْهما على الصينية، ثم حملت ذلك كله وصعدت الدرجات الحجرية المفضية إلى المطبخ. عادت بعد لحظة. كيس قماشي من أكياس مكتبة «دونت

بوكس» معلق من كتفها. قالت له: «سوف أذهب وأغير ملابسي. علي أن أعود إلى هايواردز بليس». انحنت ومسّت شفتيه بشفتيها مسًّا خاطفًا.

أطبقت يده على رسغها، وراحت عيناه تبحثان في وجهها. سألها: «ألم تنتهي من ذلك بعد؟».

قالت، «انتهيت، تقريبًا...». خفضت عينيها وأشاحت بوجهها محررة نفسها من قبضة يده، كدت أنتهي».

التفتت إليه في سيرها متّجهة إلى داخل البيت: «إذًا، هل ستفعل ذلك؟ هل ستجعل سيوبان أكثر بشرية؟ أظنك قادرًا على أن تجعل لها كلبًا إن لم ترد إعطاءها عشيقًا. لعلك تمنحها كلب ستافي صغيرًا... كلب إنقاذ تحنو عليه!». ضحك ثيو، فتابعت: «لكن هذا صحيح، أليس صحيحًا؟ من الأفضل أن تعطي الشخصية شيئًا تستطيع الاهتمام به ورعايته».

«لديها أشياء كثيرة تهتم بها. لديها عملها، وفنّها...».

«آه، لكن هذا غير كافٍ! أتحسبه كافيًا؟ امرأة من غير رجل أو طفل أو كلب تحبّه تكون امرأة باردة، ألا ترى هذا؟ تكون امرأة باردة، مأساوية، بل تكون امرأة ليست امرأة، من بعض النواحي».

قال ثيو: «أنتِ لست كذلك».

كانت كارلا واقفة بباب المطبخ. استدارت فواجهته وظهرت على شفتيها ابتسامة حزينة: «ألا تظن هذا، يا ثيو؟ ألا ترى هذا، يا ثيو؟ ألا ترى حياتي مأساوية؟».

نهض واقفًا واجتاز المساحة المعشّبة في اتجاهها. صعد الدرجات حتى وصل إليها. ضم يديها بين يديه: «لا أرى أبدًا أن حياتك مأساوية».

نشر ثيو كتابًا بعد ثلاث سنين من زواجهما. كان كتابه كوميديا تراجيدية تجري حوادثها في بلدة صقلية خلال الحرب العالمية الثانية. رُشّحت الرواية لنيل جائزة، «مع أنها لم تنل شيئًا في واقع الأمر». حققت رقم مبيعات كبيرًا جدًا، ثم تلا ذلك فيلم ضعيف المستوى مأخوذ عنها. جنى ثيو مالًا كثيرًا.

في تلك الفترة، بدأت كارلا تتساءل إن كان ذلك الكتاب منبئًا بنهاية

زواجهما. ثيو مسافر طيلة الوقت، يتجوّل ويذهب إلى المهرجانات مصحوبًا بصحافيات شابات جميلات، ويخالط كاتبات مبتدئات طموحات في العشرينيات من أعمارهن، كاتبات مبتدئات ينهمر عليهن ثناء جمّ، ويصادف في الحفلات مديرين كبارًا في مشاريع التطوير في هوليوود، مديرين لامعين إلى حدّ كبير. كانت كارلا آنذاك تعمل في المدينة لدى واحد من مديري الصناديق الاستثمارية. كان عملها في المبيعات. في ولائم العشاء، كانت عيون الناس تلمع عندما تخبرهم عن عملها. وفي حفلات الكوكتيل، كانوا يتحدثون معها وينظرون من فوق كتفها باحثين عن أشخاص أكثر جاذبية.

لكنها ما كانت في حاجة إلى القلق من احتمال أن ينصرف اهتمام ثيو عنها. ملّ حياة السفر سريعًا؛ وملّ الحماسة المرهِقة التي ترافق كل ما هو شاب. ما كان يريد أن يفعل شيئًا غير البقاء في البيت، غير البقاء معها، والكتابة - كان يضع خطة لكتابة رواية أخرى تكون متابعة لروايته الناجحة الأولى، رواية تسرد تاريخ حياة والدة بطل روايته الأولى إبان الحرب العالمية الأولى. ثم صار أقل ميلًا إلى الأسفار بعد أن حبلت كارلا؛ ثم تناقص ذلك الميل أكثر فأكثر بعد ولادة الطفل.

كان ثيو قد تأخر مرتين عن الموعد النهائي لإنجاز كتابه. ثم صار موشكًا على التأخّر عن الموعد الثالث، تمامًا عندما أتمّ ابنه سنته الثالثة. أعلنت كارلا أن عليها أن تسافر إلى برمنغهام لحضور مؤتمر عن المبيعات. عادت إلى عملها منذ فترة وجيزة وصار أمرًا بالغ الأهمية -مثلما قالت- أن تذهب في أسفار من هذا النوع إن أرادت ألا تُنحّى جانبًا... إن أرادت ألا توضع على «مسار الأمهات»[1].

(1) مسار الأمهات: المقصود بهذا التعبير سياسة تعتمدها الشركات والمؤسسات من أجل تمكين الأمهات من مواصلة العمل عن طريق تكليفهن بأعمال غير متعارضة مع واجباتهن الأسريّة، ومن خلال تجنيبهن كل ما قد يتعارض معها، لكنه يعني أيضًا بقاء المرأة في درجة وظيفية متدنية نسبيًا لأنها تكون غير قادرة على الاضطلاع بمهمّات حسّاسة أو ثقيلة.

قال ثيو مقترحًا: «قد أكون قادرًا على الذهاب معك. أنت، وأنا، وبِن - نستطيع أن نجعل ذلك عطلة نمضيها معًا، فما رأيك؟».

غاض قلب كارلا قليلًا - كانت تحلم بالساعات التي قد تمضيها وحدها غارقة في حوض الاستحمام من غير أن يزعجها أحد: تضع قناع تجميل على وجهها، وتعد لنفسها كأس شراب من الميني بار. قالت مختارة كلماتها بعناية: «قد يكون هذا جميلًا جدًا. لكني لست واثقة من إمكانية تحقيقه. أنت ترى... ظهوري هناك ومعي زوج، وطفل صغير أيضًا! أوه، لا تنظر إليَّ هكذا، يا ثيو! لا فكرة لديك أبدًا كيف يكون ذلك في أعين الناس. إذا ذهبتَ إلى عملك مع بن، فسوف يمنحونك وسام الأبوّة لذلك العام. وأما إذا كنت أنا من أفعل ذلك، فسوف يقولون إنني غير قادرة على تحمل أعباء العمل، وإن تفكيري ليس منصبًّا على وظيفتي... ليست قادرة على التعامل مع مهام أكبر أهمية مما هو بين يديها الآن!».

بدلًا من قبوله بهذا، وبدلًا من الاكتفاء بالقول، *آه، لا بأس إذًا، يا عزيزتي. سأبقى في لندن مع بن. اذهبي أنت!* اقترح ثيو أن يتركا بن عند والديه.

«أنتركه في نورثنبيرلاند؟ كيف تظنني قادرة على أخذه طيلة المسافة إلى آلنماوث قبل يوم الجمعة؟».

«أظنهما قادرين على المجيء لأخذه. إنهما يحبّان بن، يا عزيزتي. تعرفين أن ماما تعبده...».

«أوه، بحق الرب! إذا كنت مصرًا على الذهاب معي، فسوف نترك بن عند أختي. لا تنظر إليَّ هكذا! أنجيلا تعبده أيضًا؛ ثم إنها تعيش على مسافة خمس دقائق فقط... ليس لديَّ وقت من أجل ترتيب أي شيء غير هذا».

«لكن...».

«فلتأخذه أنجيلا هذه المرة. وفي المرة القادمة، يمكن أن يذهب إلى بيت أمك».

أبدًا، ما كانت هناك مرة ثانية!

صبيحة يوم الأحد، تلقيا اتصالًا هاتفيًا في غرفتهما في الفندق. كانا يحزمان أمتعتهما ويستعدّان للعودة إلى لندن، كانا يناقشان أفضل طرق العودة. طلب منهما الرجل الذي اتصل أن ينزلا إلى مكتب الاستقبال في الفندق، لكنه لم يلبث أن بدا كأنه غيّر رأيه. كلّم شخصًا آخر، ثم قال إن عليهما أن ينتظرا في غرفتهما، وإن أحدًا سوف يصعد إليهما.

سألته كارلا: «ما الأمر؟ قل لي، ما الأمر؟». لكنها لم تتلق إجابة عن سؤالها.

قال ثيو: «أنا واثق من أن أحدًا قد سرق سيارتنا».

أتاهما عنصرا شرطة، رجل وامرأة. قالا إن حادثة وقعت في بيت شقيقة كارلا. سقط بن من شرفة الطابق الأول في البيت، سقط على درجات الحديقة في الأسفل.

قالت كارلا غير فاهمة: «لكنها تبقي باب غرفة المكتب مقفلًا. سور الشرفة مكسور. هذا ما يجعلها تبقي الباب مغلقًا». لكن الباب ما كان مغلقًا. حبا بن الصغير خارجًا إلى الشرفة، ثم انزلق عبر الفتحة التي في سورها وسقط على الدرجات الحجرية... سقط عشرين قدمًا. كان ابن خالته البالغ ثماني سنوات يلعب في الحديقة فعثر عليه. على الفور، طلب سيارة إسعاف.

«هل سيكون بخير؟ هل سيكون بخير؟». ظلت كارلا تطرح السؤال نفسه مرة بعد مرة، لكن ثيو كان قد خرّ جاثيًا على ركبتيه يصرخ متألمًا مثل حيوان. كانت عينا الشرطية دامعتين؛ وكانت يداها مرتعشتين. هزت رأسها نفيًا وقالت إنها آسفة -جدًا: وصل طاقم الإسعاف في غضون دقائق معدودة، لكنهم وجدوا أنهم غير قادرين على فعل أي شيء له. سألت كارلا من جديد: «ولكن، ألن يكون بخير؟».

بعد موت والدة كارلا وأنجيلا المبكر جدًا عقب إصابتها بسرطان الثدي، ظلّ والدهما في بيت الأسرة بالغ الاتساع ذي الطوابق الثلاثة في لوندزديل سكوير، مع أنه كان واضح تمامًا أن البيت كبير عليه كثيرًا. غدا

الصعود من غرفة مكتبه في الطابق الأول إلى غرف النوم في الطابق الثاني أطول فأطول، وصار أكثر خطورة. صارت الحديقة مهملة ونمت نباتاتها نموًا عشوائيًا. صارت المزاريب مسدودة، وبدأ سقف البيت يرشح ماءً. بدأت إطارات النوافذ تتعفّن. والسور الحديدي على الشرفة الصغير جدًا، على الشرفة المفضية إلى غرفة مكتبه صدئًا. أكل الصدأ الحديد كله.

انتقل الأب إلى بيت لرعاية المسنّين قبل ستة شهور من موته. ومنذ ذلك الوقت، كانت كارلا قد بدأت عيشها مع ثيو، فاحتلت أنجيلا بيت الأسرة. كانت لديها خطط كبيرة من أجل ذلك البيت، وتوقّعت أن تطول مهمة تجديده الشاقة سنين كثيرة. صممت لوحات جدارية اعتزمت طلاءها في الممرات وفوق السلم. ولكن، كان عليها قبل ذلك أن تنجز أعمال الترميم الأساسية التي يأتي إصلاح السقف في مقدمتها. بطبيعة الحال، استهلك الأمر كل ما كان لديها من مال، وصار على كل شيء آخر أن ينتظر.

لم يفكر أحد في سور الشرفة الصدئ إلى أن ولد دانييل. ما إن كبر قليلًا وصار قادرًا على الحبو حتى أقفلت أنجيلا باب غرفة المكتب المفضي إلى الشرفة. وبعد ذلك، ظل الباب مقفلًا دائمًا. كانت القاعدة هي أن يظل الباب مقفلًا دائمًا. وطيلة الوقت ظل باب غرفة المكتب مقفلًا.

«أين كانت أنجيلا؟». كان ثيو وكارلا جالسين في مقعد سيارة الشرطة الخلفي؛ ما كان أي منهما قادرًا على قيادة السيارة بنفسه. «أين كانت؟». كانت كارلا تقول هذا بصوت يكاد يكون هامسًا؛ عيناها مغمضتان، «أنا، فقط لا أستطيع أن أفهم. أين كانت أنجيلا؟».

قالت الشرطية: «كانت في غرفة نومها، في الطابق العلوي».

«ولكن، لماذا كان دانييل هو الذي استدعى سيارة الإسعاف؟ أختي، ماذا كانت تفعل؟».

قالت الشرطية: «الظاهر أنها كانت نائمة عند وقوع الحادثة».

قال ثيو: «لم تكن نائمة. كانت تحاول النوم لكي تتخلّص من أثر الشراب. أليس هذا صحيحًا؟».

أمسكت كارلا بيده وقالت: «نحن لا نعرف هذا».
انتزع يده من يدها كأن ماء مغليًا وقع عليها. قال: «ألا نعلم؟».

أخذتهم سيارة الشرطة إلى مستشفى وينغتينتون. لاقتهما هناك الموظفة المعنيّة بالعلاقات الأسرية، وحاولت إقناعهما بألا يريا الجثة. قالت لهما، «من الأفضل كثيرًا أن تتذكرا ولدكما الصغير في أحسن أحواله... أن تتذكراه جاريًا هنا وهناك، أو راكبًا دراجته». لم يصغيا إليها. ما كان أحد منهما قادرًا على تقبّل فكرة عدم رؤيته مرة أخرى. ما أسخف أن يُطلب هذا منهما!

في غرفة باردة ساطعة الإنارة، جلس الاثنان أكثر من ساعة يتناقلان ابنهما بينهما. قبّلا أصابعه الممتلئة وقبلا كعبي قدميه. حاولا تدفئة جسده البارد براحات أكفهما، وبدموعهما.

بعد ذلك، أعادتهما سيارة الشرطة إلى بيتهما في شارع نويل رود حيث كان والدا ثيو في انتظارهما. كانت الكلمات الأولى التي وجهها ثيو إلى أمه هي: «أين هي؟». أشارت برأسها صوب السلم. قالت: «إنها هناك، في الأعلى». كان وجهها وصوتها متوترين. «إنها في الغرفة الإضافية».

قالت كارلا: «ثيو، من فضلك!».

سمعته يصيح: «كنت نائمة بعد إكثارك من الشراب، أليس كذلك؟ كنت ثملة، أليس هذا صحيحًا؟ لقد تركته، تركته وحده، وتركت الباب مفتوحًا، تركته وحده. لقد تركته. لقد تركته».

كانت أنجيلا تنوح وتعول عويلًا معذبًا، لكن ثيو لم يلِن أبدًا: «اخرجي من بيتي! لا تعودي إلى هذا المكان أبدًا! لا أريد رؤيتك بعد الآن، لا أريد رؤيتك بعد الآن أبدًا».

سمعت كارلا صوت دانييل. كان باكيًا أيضًا، سمعته يقول: «اتركها وشأنها! اتركها يا عمي ثيو! أرجوك! اتركها وشأنها!».

نزلا إلى الطابق السفلي، أنجيلا ودانييل يدًا بيد. حاولت أنجيلا

معانقة أختها، لكن كارلا لم تقبل ذلك. أشاحت بوجهها عنها. تهدل كتفاها وجثت أرضًا، ثم تكوّرت على نفسها مثلما يفعل حيوان يحاول حماية نفسه من وحش مفترس.

بعد ذهابهما، وبعد أن صار باب البيت مغلقًا، التفتت والدة ثيو إلى كارلا وقالت: «لماذا لم تتركيه يأتي إليَّ؟ لو أتى إليَّ، لاعتنيت به».

نهضت كارلا واقفة. شدّت على قبضتَيْ يديها. عبرت المطبخ خارجة إلى الحديقة الخلفية حيث كانت دراجة ابنها ذات العجلات الثلاث منقلبة على جانبها وسط المرج الأخضر. بدأت تصرخ.

صارت كارلا وثيو يلومان نفسَيْهما؛ وصار كل منهما يلوم الآخر من غير انقطاع. صارت كل جملة تبدأ بكلمة لو:

لو لم تذهبي إلى المؤتمر...

لو لم تكن مصرًا على الذهاب معي...

لو كنتِ غير مهتمة كثيرًا بما يظنه الناس...

لو أننا أخذناه إلى أبي وأمي...

انكسر قلباهما وتشظيا إلى الأبد وما عاد أي مقدار من الحب، مهما يكن عميقًا، مهما يكن قويًا، بقادر على شفائهما.

- 8 -

بعد ثلاث وعشرين ساعة من اعتقال لورا، قالت لها الشرطة إن في وسعها أن تذهب إلى بيتها. كان البيضة هو من نقل إليها هذا النبأ. قال لها: «من المحتمل كثيرًا أن نكون في حاجة إلى التحدّث معك مرة أخرى. لذا، لا تذهبي إلى أي مكان، يا لورا».

أجابت لورا: «آه، نعم، لا مشكلة في هذا. سوف ألغي تلك الرحلة التي اعتزمت القيام بها إلى عالم ديزني. لا تقلق».

أومأ البيضة برأسه. قال لها: «نعم، من المستحسن أن تلغيها». ثم ابتسم لها ابتسامته الحزينة، تلك الابتسامة التي أنبأتها بأن أمرًا سيئًا سوف يحدث.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة عندما خرجت من مركز الشرطة إلى البرد، إلى المطر المتواصل. صعدت إلى الباص في شارع غرايز إن، ثم تهاوت مرهقة على المقعد الشاغر الوحيد في طبقة الباص السفليّة. كشّرت المرأة الجالسة إلى جوارها. كانت امرأة ممتلئة الجسم، أنيقة الملبس. تزحزحت المرأة مقتربة من النافذة في محاولة لتفادي أي احتكاك مع هذه الراكبة الجديدة المبتلة التي تفوح رائحتها. مالت لورا برأسها إلى الخلف وأسندته إلى ظهر المقعد. أغمضت عينيها. نفخت المرأة نفخة استياء. تجاهلتها لورا وأدارت وجهها بعيدًا عنها. تنهّدت المرأة. أحست لورا بفكها يتوتّر وقبضتي يديها تتكوران. عدّي من *واحد إلى* عشرة، هذا ما كان أبوها يقوله لها، لذا حاولت فعل ذلك: واحد اثنان ثلاثة، واحد اثنان ثلاثة، واحد اثنان ثلاثة – لم تستطع تجاوز الثلاثة، ولم تستطع تجاوز أي شيء. تنهّدت المرأة مرة أخرى

وزحزحت مؤخرتها السمينة مرة أخرى. ودّت لورا أن تصرخ بها، *الذنب ليس ذنبي، الذنب ليس ذنبي، الذنب ليس ذنبي أبدًا.*

هبّت واقفة. قالت بنبرة حادّة محدقة في جارتها: «أعرف. أعرف أن رائحتي غير لطيفة. أعرف هذا. أمضيت في مركز الشرطة أربعًا وعشرين ساعة، وقبل ذلك ذهبت إلى التسوّق، وقبل ذلك كانت لدي ثماني ساعات من العمل. لذا، لم تسنح لي فرصة لكي أستحم منذ، منذ يومين تقريبًا. الذنب ليس ذنبي. لكن، أتعرفين ماذا؟ بعد نصف ساعة من الآن، ستكون رائحتي مثل رائحة الورود؛ وأما أنت فسوف تظلّين بقرة غبية سمينة مثلما أنت الآن».

استدارت لورا ونزلت من الباص قبل ثلاثة مواقف. وطيلة طريقها حتى بيتها، ظلّت غير قادرة على الكف عن رؤية التعبير على وجه تلك المرأة، عن رؤية وجهها الذي صار قرمزيًا لشدّة حرَجها. كان عليها أن تعضّ بأسنانها على باطن وجنتها حتى تمنع نفسها من البكاء.

لا يزال المصعد معطّلًا. جرّت نفسها على السلم جرًّا حتى بلغت الطابق السابع. كانت تقاوم دموعها طيلة صعودها: مرهَقة، ساقها تؤلمها، الجرح نابض في ذراعها، جائعة جدًا. قدّموا إليها طعامًا في مركز الشرطة، لكن قلقها جعلها غير قادرة على ابتلاع لقمة واحدة. إلا أنها أحسّت الآن جوعًا شديدًا جعل دوارًا يصيبها عندما أدخلت المفتاح في قفل الباب. أدارت المفتاح، وفتحت الباب. بدا المطبخ كأنه منهوب - افترضت أن الشرطة قد فعلت هذا. الخزائن والدروج مفتوحة، والأطباق والأواني منتشرة في كل مكان. وسط تلك الفوضى كلها، كان طعامها التالف الذي اشترته من السوبر ماركت بآخر ما لديها من مال.

أولت هذا كله ظهرها.

أطفأت الأنوار ومضت إلى غرفتها من غير أن تستحم ومن غير أن تنظّف أسنانها. اندست في فراشها وبدأت تبكي بنشيج خافت. حاولت

تهدئة نفسها بتدليك رقبتها من الخلف، مثلما كان أبوها يفعل حتى تنام عندما تعاني اضطرابًا أو ألمًا.

ما أكثر ما لديها الآن من ذلك! الاضطراب، والألم. كانت طفولتها الأولى التي عاشتها في جنوب لندن الكالح الوسخ طفولة هادئة لا شيء متميزًا فيها. كانت هادئة إلى حدّ جعلها شبه عاجزة عن تذكّر أي شيء من تلك الأيام، غير صورة قائمة بذاتها، صورة لا صلة لها بأي أمر آخر: بيت ذو شرفة واقع على شارع ضيق، وإحساسها بملمس العشب الجاف الخشن تحت قدمَيْها في الصيف. لا تزدحم ألوان كثيرة في ذاكرتها إلا بعد أن بلغت التاسعة، أي بعد أن انتقلت مع والديها إلى قرية صغيرة في ساسكس.

هناك، بدأت المشكلات كلها.

ليس هذا لأن في تلك القرية مشكلة. أحبّت لورا القرية ورأتها جميلة، جذابة، ببيوتها الحجرية ومروجها الخضراء، والجيران المهذبون وأطفالهم الشقر، وكلابهم. أعلنت جانين، والدة لورا، أن جوّ القرية يقتل الحماسة والإبداع. من الواضح أن هذا شيء غير حسن. لكن لورا أحبّت القرية. أحبت مدرسة القرية حيث كان في صفها خمسة عشر تلميذًا فقط، وحيث أعلنها المعلمون قارئة جيدة جدًا. أحبت ركوب دراجتها لأنها تصير من غير رقابة وتنطلق في الطرق الريفية الضيقة باحثة عن التوت البري.

كان والدها، فيليب، قد حصل على وظيفة في بلدة قريبة. تخلى عن حلمه في أن يعيش حياة مصمم مسرحي، وصار الآن يعمل محاسبًا. حقيقة تجعل جانين تفتح عينيها على اتساعهما كلما أتى ذكر هذا الأمر. تقول بصوت فيه نبرة استياء: «محاسب»، وتسحب من سيجارتها نفسًا عميقًا وتشدّ كمّي بلوزتها الريفية... «ألا يبدو هذا أمرًا مسليًا؟».

«لا يمكن أن تكون التسلية مدار الحياة دائمًا، يا جانين. أحيانًا، علينا أن نكون كبارًا راشدين».

«صحيح، يا فيليب. ولا يجوز أن يحظى الكبار بأي قدر من التسلية، لا سمح الله!».

في مخيلة لورا، ما كان أبوها وأمها هكذا على الدوام. لديها ذكريات غامضة عن أوقات كانت فيها أمها أسعد حالًا. تتذكّر عندما كانت أمها لا تجلس إلى طاولة العشاء عاقدة ذراعيها على صدرها، مكتفية بلقمات قليلة من طعامها، مجيبة بوجه متجهم عن كل سؤال يطرحه أبوها. كان هناك زمن رأت فيه أمها تضحك طيلة الوقت، كان هناك زمن رأت فيه أمها تغني.

تقول لورا مقترحة: «من الممكن أن نعود إلى لندن»، فتبتسم أمها لحظة وتداعب شعرها بيدها ثم تسرح عيناها في لا مكان. لكن أبوها كان يجيبها -مبتهجًا ابتهاجًا زائدًا، مبديًا حيوية مبالغًا فيها- «لا نستطيع العودة إلى لندن، يا دجاجتي. إن لدي عملًا هنا. ثم إننا نعيش هنا في بيت جميل، أليس جميلًا؟».

وفي الليل، تسمعهما لورا يتجادلان.

تهسّ أمها بصوت مخيف: «لديك عمل هناك! في الاستشارات المالية. بحق الرب، يا فيليب! أهذا حقًا ما تريد أن تقضي حياتك فيه؟ أن تحصي أموال الآخرين طيلة النهار؟».

وأيضًا: «أهذه هي الحياة التي سنعيشها؟ حياة عادية؟ في الريف؟ في ساسكس؟ أنت تعلم أن هذا ليس ما التحقتُ به».

«التحقتِ به؟ هذا زواج، يا جانين، لا دورة مسرحية!».

كانت لورا طفلة متفائلة، وكان يُخيّل إليها أنها إذا تظاهرت بعدم سماع تلك المجادلات، وإذا بذلت جهدًا كبيرًا وسلكت مسلكًا حسنًا جدًا، فإن ما يجعل أمّها تعسة هكذا سوف يختفي من تلقاء ذاته. بذلت

لورا كل ما أمكنها حتى تشيع السرور في قلب أمها، وكانت تسارع إلى إبلاغها بكل ثناء تتلقّاه من معلميها، أو تريها ما رسمته في المدرسة.

وفي البيت، بعد الظهر، كانت لورا تلازم أمها دائمًا. إن كانت لديها أعمال تنظيف، فهي تساعدها، أو تجلس إلى جانبها عندما تقرأ، أو تتبعها بهدوء من غرفة إلى غرفة عندما تتنقل في أرجاء البيت غير قادرة على الاستقرار في مكان بعينه. كانت تحاول قراءة تعابير وجه أمها، وتحاول تخيّل ما تفكر فيه وما يجعلها تتنهد هكذا أو تزيح خصلة شعر عن وجهها. كانت تنجح في هذا بعض الأحيان، مع أن أمها تصيح بها في أحيانٍ أخرى وتقول لها: «بحق الرب، يا لورا! أعطني دقيقة، من فضلك! أَعطني دقيقة واحدة أكون فيها مع نفسي!».

في الخريف، بدأت جانين تتلقّى دروسًا في الفنون. ثم حدث تغيّر مع اقتراب عطلة عيد الميلاد. هبّت من الشرق ريح شديدة البرودة أتت معها سماء زرقاء جميلة جمالًا يكاد يبلغ حدّ الألم. برد قارس أتى معه على غير انتظار ذوبان الجليد في الأسرة، بين الزوجين. بدا لها كأن هدنة قد أعلنت. ما كانت لدى لورا أية فكرة عن سبب هذا التغير، لكن شيئًا تغير لأن تلك المشاحنات توقّفت. ما عاد أبوها يبدو كأنه يشعر بالذنب، وما عاد يبدو ضحية مضايقات متواصلة. صارت أمها تبتسم عندما تغسل الأطباق؛ وصارت تجلس إلى جانب لورا عندما تتابعان التلفزيون في الأمسيات بدلًا من جلوسها في كنبة منفردة تقرأ كتابًا. بل إنهم صاروا يذهبون إلى لندن... مرة إلى متجر هيمليز، ومرة إلى حديقة الحيوان.

كانت بداية السنة الجديدة متألّقة أملًا. صارت أمها تخرج إلى الباب كي تودّعها عند ذهابها إلى المدرسة صباحًا وعلى وجهها ابتسامة، وكانت هناك أيضًا وعود برحلة تزلج عائلية في عطلة نهاية الأسبوع، إن أثلجت.

وقد أثلجت حقًا، لكنهم لم يذهبوا إلى التزلج.

في يوم الجمعة ذاك، تساقط أكثر من إنشين ونصف الإنش من الثلج في أقل من ساعة واحدة فكان ذلك كافيًا لإلغاء تدريبات كرة القدم في المدرسة. لم تكد الساعة تبلغ الثالثة بعد الظهر عندما انطلقت لورا على دراجتها ماضية في الطريق المنحدرة بأقصى سرعة، عائدة إلى البيت. كانت تسير في منتصف الطريق حيث أذابت عجلات السيارات الثلج عن الإسفلت. لكن الظلمة بدأت ترخي سدولها في ذلك الوقت، فلم تر لورا السيارة التي انعطفت داخلة الطريق، ولم تسمعها. بدت كأنها أتت من لا مكان.

طارت لورا اثنتي عشرة قدمًا وسقطت في الشارع على ظهرها. كانت أمها واقفة تنتظرها في الممر أمام البيت، فسمعت صوت تحطّم خوذة الوقاية على الأرض. كسور خطيرة في جمجمتها وساقها وترقوتها. لم يتوقّف سائق السيارة التي صدمتها.

ثم أتت المشقّة، وأتى الألم. ست عمليات جراحية، وشهور وشهور في المستشفى. وساعات وساعات من المعالجة الفيزيائية المؤلمة، المرهقة، والمعالجة الكلامية والمعالجة النفسية. في آخر المطاف، شفيت إصاباتها كلّها؛ شفيت إلى هذا الحد أو ذاك. لكن بذرة الفساد قد زُرعت. تحسّن كل شيء، لكن لورا صارت أسوأ حالًا. صارت أكثر بطئًا، وأكثر غضبًا، وأقل جاذبية. وفي داخلها، بدأت ظلمة مُرّة تمتد وتتوسّع وهي ترى، بقنوط يائس، كيف تضيق آفاقها بعد أن كانت ممتدة أمامها من غير حدود.

في الصباح، وضعت لورا في المايكرويف المأكولات التي كانت مجمدة؛ وضعتها كلها، ثم راحت تلتهمها التهامًا. أكلت منها أقصى ما استطاعت أكله، ورمت البقية في سلة القمامة، ثم ارتدت ملابسها لكي تذهب إلى العمل.

«ماذا تظنين نفسك فاعلة؟». هذا ما قالته مايا التي تعمل لورا لديها

في محل تنظيف الملابس عندما خرجت من الغرفة الخلفية فوجدت لورا تخلع معطفها وتعلّقه على المشجب خلف الطاولة.

قالت لورا: «هذا وقت عملي. إنه يوم الأربعاء».

«نعم، نعم، والبارحة كان يوم الثلاثاء، وكان يوم عمل لك أيضًا، لكنك لم تأت، أليس كذلك؟». بدأت لورا تقول شيئًا لكن مايا رفعت يدها فأسكتتها. قالت لها: «لا، لست مهتمّة بسماع هذا. إنني آسفة، لكني لست مهتمّة أبدًا، يا لورا. لا يعنيني سماع أعذارك هذه المرة فقد ضقت ذرعًا بهذا و...».

«مايا، أنا آسفة...».

«هل تعلمين أي يوم كان يوم أمس؟ هل تعلمين؟ كان يوم عيد الميلاد الخامس لحفيدي، وكانت أمه تريد أخذه في نزهة خاصة إلى حديقة الحيوان. كان منتظرًا أن أكون معهما في تلك النزهة، لكني لم أكن معهما. هل تفهمين هذا؟ لم أكن معهما لأنني بقيت هنا، لأنني بقيت بدلًا منك. لكنك لم تجدي لديك قدرًا من اللباقة يجعلك تتصلين بي، على الأقل».

«لم أستطع، يا مايا. أنا آسفة جدًا. إنني آسفة حقًا. آسفة جدًا لأنني خذلتك...».

«ألم تستطيعي الاتصال؟ لماذا؟ هل أصابك شيء؟». طأطأت لورا رأسها... «أوه، لا بد أنك تمزحين مزاحًا قذرًا. اعذريني إن قلت هذا، لكن، هل اعتقلتك الشرطة من جديد؟». رفعت مايا يديها مثلما يفعل من يستسلم... «آسفة، يا حبيبتي. لكني لا أستطيع قبول هذا. لا أستطيع قبوله. لقد اكتفيت تمامًا. احتملت قدرًا كافيًا من هذا الهراء. ثم إنني حذرتك... ألم أحذرك؟ حذرتك مرات كثيرة. تتأخّرين، ولا أستطيع الاعتماد عليك، ولست لبقة مع الزبائن...».

«لكن، يا مايا، لم يكن الأمر...».

«أعرف! أعرف ما تريدين قوله. لم يكن الذنب ذنبك. لا يكون

الذنب ذنبك أبدًا. لعل الذنب ليس ذنبك. لعل الذنب ليس ذنبك، لكنه ليس ذنبي، ليس ذنبي أبدًا! ألا ترين هذا».

تقيأت لورا على الرصيف، أمام محل تنظيف الملابس. البيتزا وأصابع السمك تناثرت كلها على الأرض. صاحت مخاطبة مايا عبر واجهة المحل: «لم أتعمّد فعل هذا». كانت مايا تنظر إليها فاغرة فمها، مصدومة. لم تتعمد فعل هذا. لا يمكن أن تكون قادرة على التقيؤ بإرادتها - ما حدث هو أنها أدخلت بطاقتها في آلة النقود القائمة إلى جوار باب المحل، فعلمت أن لديها سبع جنيهات وسبعة وخمسين بنسًا في حسابها المصرفي. هذا كل ما تملكه في العالم، فضلًا عن الجنيهات الأربعة في محفظتها. وقد طُردت الآن من عملها. أدركت الأمر عند ذلك فكان مثل لكمة مباشرة في أعلى بطنها - يعني طردها من عملها أن عقوبات كثيرة ستطالها. من الممكن أن يحجبوا عنها مساعدة الإسكان فقد فعلوا هذا لأشخاص تعرفهم. في بعض الحالات، حرموهم من المساعدة شهورًا كثيرة. فكّرت في أنها ستصير من غير بيت، إلا إذا دخلت السجن بتهمة القتل. هذا ما جعلها تتقيأ على الرصيف. مسحت فمها وسارت مبتعدة، عاضّة على شفتها السفلى، محاولة تهدئة الذعر الذي بدأ يتجمّع في معدتها الفارغة.

اتصلت بأمها فور وصولها إلى البيت. فبصرف النظر عن المرات الكثيرة التي خذلتها فيها أمها، المرات الكثيرة التي خيبت فيها أملها، بدت لورا غير قادرة على الكف عن حبها وعن تخيل أن الأمر قد يكون مختلفًا هذه المرة.

«ماما! هل تسمعينني؟» خشخشة في الهاتف، وضجيج في الخلفية. «ماما؟».

«لورا! كيف حالك، يا عزيزتي؟».

«ماما، أنا لست في حال جيدة. هل تستطيعين أن تأتي لرؤيتي؟»
صمت طويل، ثم «ماما؟»
«آسفة، يا حبيبتي! ماذا قلت؟»
«قلت: هل تستطيعين القدوم لزيارتي؟».
«نحن الآن في إسبانيا. لذا قد يكون ذلك صعبًا...» ضحكت أمها، أطلقت ضحكة خفيضة جشّاء جعلت قلب لورا يؤلمها. «لكننا سنعود بعد بضعة أسابيع. من الممكن أن أراك بعد عودتنا».
«أوه. بضعة أسابيع! أنا... أين أنتما؟».
«نحن في إشبيلية... مثل البرتقال»[1].
«نعم، سمعت بها...». ابتلعت ريقها بصعوبة، «اسمعيني، يا ماما. حدثت أمور سيئة، وأنا واقعة الآن في بعض المشكلات...».
«أوه، يا لورا! ليس مرة أخرى!».
عضّت لورا على شفتها، «نعم، مرة أخرى. آسفة. لكن... كنت أتساءل... ألا تستطيعين إقراضي بعض المال حتى أتدبر أمري؟ لقد صادفت حظًا سيئًا. لست مذنبة في هذا».
«لورا...». خشخشة جديدة على الخط.
«لم أسمعك جيدًا، يا ماما».
«أقول إن الوقت غير مناسب الآن لأن أمورنا صعبة جدًا».
«في إشبيلية؟».
«نعم، في إشبيلية. إن لدى ريتشارد بضع لوحات في معرض فنّي هنا؛ لكنها واحدة من تلك الصفقات التي تكونين فيها مضطرة إلى دفع المال مقابل حصولك على مكان لعرض لوحاتك. لذا...».
«هل يعني هذا أنه لم يبع شيئًا منها؟».

(1) برتقال إشبيلية: نوع من البرتقال جاف قليلاً وفيه شيء من الطعم المر، منسوب إلى مدينة إشبيلية الإسبانية.

«ليس بعد».

«لا بأس».

حلّت فترة من الصمت تلتها خشخشة أخرى في خط الهاتف. سمعت لورا أمها تتنهد. تكسّر شيء في تلك اللحظة. أحست خيبتها تمتد مثل قبضة تشدّ على قلبها.

«لورا، هل تبكين؟ أوه، يا لورا، لا تبكي! أرجوك! لا تفعلي هذا. تعرفين أنني لا أستطيع احتمال أن يحاول الناس الضغط عليّ من الناحية العاطفية».

قالت لورا: «لست أبكي، لست أبكي». لكن صوت بكائها صار الآن مسموعًا.

قالت أمها بنبرة قاطعة مثلما يتكلّمون في عالم الأعمال: «استمعي إليّ. ابكي مثلما تريدين، ثم اتصلي بي مرة أخرى. هل تسمعين؟ سوف أسأل ريتشارد إن كنا نستطيع أن نرسل إليك مالًا. هل فهمت؟ لورا؟ مع السلامة الآن».

بكت لورا برهة. وبعد أن فرغت من البكاء، واستهلكت انفعالها كله، اتصلت بأبيها، لكنه لم يرفع السماعة. تركت له رسالة صوتية: «بابا، مرحبًا! نعم، لقد اعتقلوني يوم أمس. اشتبهوا في أنني ارتكبت جريمة قتل. وفي النهاية، تركوني أذهب من غير توجيه اتهام. لكنني طُردت من عملي بعد غيابي يومًا كاملًا لأنني كنت محتجزة عند الشرطة. فسد الطعام الذي اشتريته. ولم يبق لدي أي مال. هل تستطيع الاتصال بي؟ تحياتي. بالمناسبة، أنا لورا!».

ذلك الذي أفلت بفعلته

عندما يستيقظ ذلك الصباح، يكون غير قادر على تخيّل كيف سيكون يومه، وغير قادر على تخيّل ما سيفضي إليه ذلك اليوم، وكل ما فيه من ذرى ووهدات. لا يتخيّل وهو يحلق ذقنه أمام المرآة المتسخة في الحمام الخلفي، ماء صدئ في المغسلة، رائحة براز في كل مكان... لا يتخيل أنه سوف يلتقي فتاة جذابة إلى هذا الحد.

فمن أين له أن يتخيل كيف سيجري الأمر؟ كيف ستعابثه وتغازله وتجرح مشاعره، ثم تأتي راكضة، تعود إليه، معلنة قبولها، طالبة المساعدة، طالبة رفقته، طالبةً أن تكون كفُّه على فخذها الجميل الناعم في مقعد السيارة الأمامي.

عندما يستيقظ ذلك الصباح، لا يستطيع تخيّل الانطلاق من غير قواعد أو قيود، لا يستطيع تخيّل مدى الإثارة، مقدار الترقب.

- 9 -

تعمل ميريام أربعة أيام في «كتب على قارب» التي هي مكتبة عائمة في القناة، تمامًا خلف سوق برودواي. هذه المكتبة التي تضمّ مزيجًا من كتب جديدة وكتب مستعملة تقف على شفير الإفلاس منذ سنين. وفي الآونة الأخير، صار مالكها، نيكولاس، مضطرًا -بحسب كلماته- للاعتماد على لطف محبي الموسيقى (أي على جمع مبالغ مالية بسيطة من عدد كبير من أولئك الناس)، حتى يظل المكان قادرًا على الاستمرار. (كان هذا صحيحًا بكل معنى الكلمة: جمعوا منذ حين أموالًا بغية إصلاح هيكل المركب عندما بدأ الماء يتسرّب إلى جوفه).

إلى حدّ كبير، كانت مهمة ميريام أن تقوم بأعباء «المكتب الخلفي» - تنجز الحسابات، وتتابع الشطر الأكبر من الأمور الإدارية، وتصفّ الكتب على الرفوف، وتحافظ على نظافة المكان. ما عاد مسموحًا لها أن تخدم العملاء (هي فظّة معهم أكثر مما يجِوز)، وما عاد مسموحًا لها أن تكتب البطاقات التي توضع على الرفوف - السطور القليلة التي يكتب فيها العاملون في المكتبة آراءهم في أحدث إصدارات الكتب (لأنها تكتب عبارات قاسية أكثر مما يجوز). فوق هذا، كانت ميريام شخصًا منفّرًا. لم يقل نيكولاس هذا أبدًا، لكنه ما كان في حاجة إلى قوله. تعرف ميريام تمام المعرفة أن من ينظر إليها لا يراها جذّابة، وأنها لا تشد الناس إليها، وأن لديها وفرة من كل ما من شأنه أن يكون نقيض الجاذبية. كانت تدرك هذه الأمور؛ وكانت مستعدة لمواجهتها. ففي آخر المطاف، لمَ لا؟ ماذا يمكن أن يكون هناك من بدائل؟ لا معنى لأن

تتظاهر بأن الأمور ليست مثلما هي في الواقع. لا معنى لأن تتظاهر بأنها شخص مختلف عما هي في الحقيقة.

يذهب نيكولاس أيام الأربعاء لرؤية المعالج النفسي، فيكون على ميريام أن تفتح المكتبة. تصل دائمًا في التوقيت الصحيح، ولا تتأخر أبدًا، لا تتأخر دقيقة واحدة... لا تستطيع أن تتأخر. وفي هذا الصباح، عبرت من تحت جسر «كات آند موتون» تمامًا عند الساعة التاسعة إلّا ربعًا ففاجأتها رؤية زبون يقف أمام المكتبة. كانت كفّا الرجل تُحيطان بوجهه، وكان يحاول النظر إلى الداخل عبر النافذة. ظنّته سائحًا، لكن الرجل رجع إلى الخلف خطوة ونظر في اتجاه ميريام فتجمّدت وتحفّزت. إنه ثيو مايرسون.

تمالكت أعصابها وذكّرت نفسها: لا تزال هذه الدودة حية! أخذت نفَسًا عميقًا، ثم شدت قامتها وسارت إليه بخطوات واثقة. صاحت: «هل أستطيع مساعدتك؟».

تجهّم وجهه. استدار وأتى لملاقاتها. قال لها: «الحقيقة أنك تستطيعين».

شاء الحظ أن تكون حركة الناس قليلة في تلك اللحظة، فوجدا نفسيهما وحيدين على ممر المرسى. الجسر من خلفها، والقارب أمامها، وثيو مايرسون واقف في طريقها. قالت له: «لم نفتح المكتبة بعد»، ثم خطت في اتجاه الماء خطوة محاولة أن تتجاوزه، «نفتح في الساعة التاسعة. سيكون عليك أن تأتي في وقت لاحق».

تحرّك مايرسون في الاتجاه نفسه، فاعترض طريقها من جديد. قال لها: «لست هنا لرؤية الكتب. أتيت لتحذيرك حتى لا تتدخلي في شؤوني... حتى تبتعدي عن أسرتي».

دسّت ميريام يديها المرتعشتين في جيبيها. قالت له: «لم أقترب من أسرتك أبدًا، إلا إذا كنت تعني ابن أختك». نظرت في عينيه مباشرة، «شؤون مفزعة». أخرجت مفتاح المكتبة من حقيبتها وتمكّنت آخر

الأمر من تجاوزه ومتابعة طريقها. «أنا شاهدة. هل قالوا لك هذا؟ أتت الشرطة لرؤيتي. طرحوا علي أسئلة كثيرة. وقد أجبت عن أسئلتهم».

استدارت ونظرت إلى ثيو. علا وجهها ابتسامة قسرت نفسها عليها. قالت: «هل كنت تريدني أن أفعل غير هذا؟ لقد قلت لهم ما...» -دسّت يدها في حقيبتها وأخرجت منها هاتفها- «ما رأيك في أن أتصل بهم؟ إن لديَّ رقم المحقق في هاتفي. قال لي إن علي أن أخبره إذا تذكرت أي شيء، أو إذا لاحظت أي شيء غريب أو غير طبيعي. فما رأيك؟ هل أطلب رقمه الآن؟ هل أقول له إنك أتيت لكي تراني؟». رأت ميريام كيف عرت وجهه مسحة من ذعر كأن ظلًا قد سقط عليه. أحسّت بدفقة شديدة من مسرّة لم تتوقّعها أبدًا، «ما قولك، يا سيد مايرسون؟».

إذًا، هكذا يكون الإحساس بالقوة! هذا ما قالته ميريام في نفسها.

أنهت ميريام عملها في ذلك اليوم، وعادت إلى بيتها. تناولت صندوقها الخشبي الذي تحتفظ فيه بأشيائها الصغيرة. تناولته حتى قبل أن تعد لنفسها فنجان شاي، وقبل أن تغسل يديها. أخذته من على الرفّ فوق مدفأة الحطب ووضعته على طاولة المطبخ. فتحت الصندوق وراحت تستعرض محتوياته: طقس تنغمس فيه من وقت إلى وقت حتى تهدئ قلقها وتوتّرها، أو طريقة تريح بها نفسها المتعبة وتنظّم أفكارها وتركّز على ما هو مهم حقًا بالنسبة إليها.

لقد كانت «سمكة غريبة»، وكانت تعرف هذا، تعرف ما هي، وتعرف كيف يراها الناس. ينظر الناس إلى ميريام فيرون امرأة بدينة في أواسط العمر لا مال لديها، ولا زوج، ولا سلطة على أحد. يرونها من الخارج، يرون كيف تعيش في زورق وترتدي ملابس من المتجر الخيري وتقص شعرها بنفسها. ينظر بعضهم إليها فلا يلقون إليها بالًا؛ وينظر بعضهم إليها ظانين أنها قابلة لأن تفعل ما يعجبهم، كل ما يعجبهم، متخيلين أنها لا حول لها، وأنها لا تستطيع فعل شيء في هذا الشأن.

من الصندوق المفتوح أمامها، أخرجت ميريام ورقة، ورقة كبيرة من مقاس A4 مطوية نصفين، ثم مطوية مرّة أخرى. فتحت الورقة وبسطتها على الطاولة أمامها. مرّت على رأس الرسالة براحة يدها. قرأت الكلمات مرّة أخرى، الكلمات التي قرأتها مرّات كثيرة حتى صار لديها إحساس يقول لها إنها قادرة على تكرارها عن ظهر غيب أو، على أقل تقدير، تكرار الأجزاء المسيئة منها.

عزيزتي السيدة لويس،

أكتب إليك بصفتي محامي مؤسسة هاري سميكي التي تنشر أعمال ثيو مايرسون، وذلك ردًا على رسالتك التي وصلتنا في الرابع من شهر شباط. أكتب إليك باسم كل من الشركة والسيد مايرسون الذي وافق على محتويات هذه الرسالة.

نودّ أن نوضح، منذ البداية، أن السيد مايرسون ينفي نفيًا تامًّا ما ورد في رسالتك من مزاعم متصلة بالاعتداء على حقوق الملكية الفكرية الخاصة بك. مزاعمك لا أساس لها على الإطلاق.

لقد زعمت أن رواية «ذلك الذي أفلت بفعلته»، الرواية التي ألّفها السيد مايرسون ونشرها تحت اسم مستعار هو كارولين ماكفرلين، فيها نقل حرفي لـ«موضوعات وأجزاء كبيرة من حبكة» مذكراتك. هذا زعم باطل لعدد من الأسباب.

حتى يستقيم الادعاء بوقوع اعتداء حقيقي على حقوق الملكية الفكريّة، لا بد من وجود صلة سببية بين عمل المدعي والعمل الذي يُزعم أنه اعتدى على حقوقه الفكرية. عليك التدليل على أن السيد مايرسون استخدم مذكراتك في كتابة رواية «ذلك الذي أفلت بفعلته».

إن السيد مايرسون مقرّ بأنك طلبت منه قراءة مخطوطك. وهو مقرّ أيضًا بأنه وافق على الاستجابة لطلبك على الرغم

من ازدحام برنامجه بمهمّات وواجبات كثيرة تثقل على وقته. وكما أوضح لك السيد مايرسون عندما ذهبت إلى بيته يوم الثاني من شهر كانون الأول، فقد وضع مخطوطك في حقيبته عندما طار إلى قرطاج لحضور مهرجان هناك. للأسف، ضاعت حقيبته أثناء سفره على الخطوط الجويّة البريطانية، ثم لم يعثروا عليها، ولم يستعِدها أبدًا. من هنا، صار السيد مايرسون غير قادر على قراءة مخطوطك.

إن التشابهات التي تزعمين وجودها بين «ذلك الذي أفلت بفعلته» وبين مذكراتك لا تعدو أن تكون تشابهًا في أفكار وموضوعات شديدة العمومية. لا نرى الآن ضرورة، ولا سببًا منطقيًا موجبًا، لتناول كل مقارنة من المقارنات الضعيفة التي حاولتِ سردها...

لقد تقدَّمت بمزاعم كاذبة خطيرة ضد السيد مايرسون...

إن من شأن أي إجراء قانوني تقدمين عليه أن يكون غير ملائم وغير مبرر منطقيًا، وسوف يدحضه السيد مايرسون بكل قوة. وسوف يحرص أيضًا على جعلك تتحملين التكاليف المترتبة على ذلك: أمر لا شك لدينا أبدًا -بالنظر إلى ما سلف- في أن المحكمة سوف تقرره.

ها هو الأمر كله، مكتوبًا على الورق. مع تلك الإهانات الموجهة إليها كلها، ومع الاتهامات المؤذية المزعجة، ومع ذلك التقليل من شأن مزاعمها واعتبار أنها «*ضعيفة، زائفة، مختلَقة، لا أساس لها أبدًا، غير ملائمة، غير منطقية*»، فإن من الممكن العثور على محتوى حجّتهم -في جوهره- متجسدًا في الفقرة الأخيرة من الرسالة: لدينا المال كله. من هنا، لدينا السلطة كلها، وليس لديك أي شيء!

بيدين مرتعشتين، أعادت ميريام طي الرسالة وأرجعتها إلى قعر

الصندوق. تناولت بدلًا منها دفتر الملاحظات الصغير الأسود، الذي تسجّل فيه ما يحدث في القناة. إنها تعيش هنا، في هذا الزورق، منذ ست سنين. وقد تعلّمت أن على المرء أن يكون يقظًا. الحياة البشرية كلها هنا: أشخاص طيبون، مهذبون، كرماء، مجدّون في عملهم؛ ومعهم سكارى ومدمنو مخدرات، ولصوص، وكل ما عدا ذلك. على المرء أن يظلّ منتبهًا إلى ما يجري من حوله. ينبغي أن تظل عيناه مفتوحتين دائمًا. عليه أن يكون محترسًا من المفترسين. (تعرف ميريام هذا أكثر مما يعرفه معظم الناس).

هذا ما يجعلها تدوّن ما تراه. فعلى سبيل المثال، سجّلت في دفترها توقيت ظهور لورا المجنونة التي تعمل في محل تنظيف الملابس، مساء يوم الجمعة، مع دانييل ساذرلاند. سجّلت أيضًا ظهور كارلا مايرسون خالة الشاب، بمعطفها الجميل، وقَصّة شعرها المتقنة، وأسنانها المستقيمة... سجّلت توقيت قدومها وقرعها باب ابن أختها. كان ذلك يوم الأربعاء الماضي. كان ذلك قبل يومين اثنين من مقتل دانييل. وكانت في يدها زجاجة نبيذ.

بعد ذلك، التقطت المفتاح -مفتاح لورا المجنونة، ذلك الذي وجدته على أرضية زورق القتيل- وأدارته بين أصابعها متحسّسة حوافه التي لا يزال الدم دبقًا عليها. كان لدى ميريام إحساس يقول لها إن من الواجب حماية لورا مهما يكن ما فعلته. ففي آخر المطاف، لورا شخص آخر لا حول له، أليست كذلك؟ أوه، إنها جميلة، رشيقة، متألّقة العينين. لكنها فقيرة أيضًا، ولديها قدر من الاضطراب. إن فيها شيئًا غير سليم: تمشي مشية عرجاء؛ وأيضًا، هناك خلل في عقلها. ليس عقلها سليمًا تمامًا. من الممكن أن يستغل الناس شخصًا من هذا النوع. شخصًا في مقتبل العمر، ضئيل الحجم، قليل الحيلة مثل لورا... تمامًا مثلما استغلوا ميريام.

لكن المقدرة تنتقل أحيانًا. أليس هذا ما يحدث؟ أحيانًا، تنتقل بطرق غير متوقّعة. تنتقل المقدرة، وتتلوّى الديدان خائفةً.

ماذا لو أن ميريام لم تر لورا أبدًا - خلافًا لما دوّنته في دفترها الصغير؟ ماذا لو أنها قالت للشرطة إنها لم تر مع دانييل ساذرلاند أحدًا غير كارلا مايرسون؟ وماذا لو أنها (هذا ما راحت تفكر فيه الآن) كانت قد رأت كارلا مايرسون أكثر من مرة؟ لقد طلب المحقق منها أن تتصل به إن تذكّرت أي شيء آخر. هذا ما قاله لها. إذا تذكّرت شيئًا، مهما يكن ذلك الشيء صغيرًا، فمن الممكن جدًا أن يكون مهمًا. ماذا لو أنها تذكرت -أوه، أتذكر هذا الآن!- سماع شيء من الأشياء، سماع أصوات مرتفعة ظنّتها أول الأمر أصوات أشخاص يمضون وقتًا ممتعًا، لكن لعلها كانت شيئًا آخر، لعلها كانت مجادلة عنيفة!

أعدت ميريام لنفسها فنجان شاي، ثم جلست واضعة قدميها في حوض ملأته ماء دافئًا. أتت على نصف علبة البسكويت الغني بالألياف الغذائية وهي تفكّر في ما ينبغي قوله لمحقّق الشرطة. فمثلًا، أيكون عليها ذكر أنها صادفت مايرسون ذلك الصباح؟ أم يكون من الأفضل أن تظلّ محتفظة بهذه الورقة، وأن تتركها ورقة احتياطية يمكن أن تلعبها في وقت لاحق؟ كان لديها إدراك حادّ لحقيقة أن عليها أن تتعامل مع هذه الأمور تعاملًا بالغ الحرص. لا يجوز أن تتهوَّر أبدًا، ولا يجوز أن تترك هذه القدرة الجديدة التي صارت لديها تعبث بعقلها.

طلبت رقم المحقق، واستمعت إلى رسالة الترحيب المسجلة بصوته.

«المحقق باركر! مرحبًا! أنا ميريام لويس. قلت لي إن عليّ أن أتصل إذا فكرت في أمر، أو إذا تذكرت أمرًا. نعم، الأمر هو... خطر في ذهني أن تلك المرأة التي قلت لك إنني رأيتها، المرأة التي أخبرتك عنها، المرأة الأكبر سنًا، تذكرت الآن أنني رأيتها ليلة الجمعة. تعرف أنني ظننت ذلك حدث يوم الخميس لأنني كنت عائدة من عملي عندما

رأيتها مارّة من هناك. كانت في يدها زجاجة نبيذ. لا أعني أن هذا أمر مهم، لكن المسألة هي أنني كنت في تلك اللحظة عائدة من العمل. لكني لم أذهب إلى العمل يوم الخميس لأن معدتي كانت تؤلمني قليلًا. هذا أمر غير مألوف لأن بنيتي الجسدية قوية جدًا، بشكل عام. المهم في هذا هو أنني لم أكن على ما يرام يوم الخميس ولم أذهب إلى عملي، فعملت يوم الجمعة بدلًا منه...».

أنهت ميريام المكالمة. انحنت لكي تأخذ قطعة بسكويت أخرى، لكنها عدلت عن ذلك. رفعت ساقيها ووضعتهما على المقعد. ما أشد إحساسها بالرضا! أن يكون لديها شيء ضد مايرسون! تخيّلت لحظةً ذلك الرجل العظيم نفسه واقفًا في غرفة مكتبه ممسكًا سماعة الهاتف - لعلها مكالمة من محقّقي الشرطة! لعلهم يقولون له إنهم سيأخذونها لاستجوابها... سيأخذون عزيزته كارلا! تخيّلت شدة ذعره. تخيّلت ما قد تفعله به هذه المحنة. فكّرت أيضًا في التغطية الصحافية المسيئة إليه.

ألن يعلّمه هذا درسًا؟ ألن يعلّمه هذا درسًا عما يصيب من يأخذ شيئًا لا يخصّه؟... من يعامل ميريام كأنها لا قيمة لها، كأنها شيء من الأشياء... من يستخدمها مثلما يشاء، ثم يرميها.

وإذا عانت كارلا أيضًا! هذا ليس حسنًا! لكن، مثلما يكون عدو عدوي صديقي، من الممكن أحيانًا أن يكون صديق عدوي عدوًا لي. هذا ما لا يمكن تفاديه. هكذا يسير العالم. هكذا تحدث هذه الأمور. وهذا ليس منصفًا. في أي نزاع، لا بد أن يسقط ضحايا أبرياء!

أغلقت ميريام دفتر ملاحظاتها. أعادته إلى الصندوق، ثم وضعت المفتاح فوقه. رأت على خلفية خشبه الثمين القرطين الذهبيين، قرطي لورين، والصليب الفضي الذي كان هدية من أبيها يوم تعميدها الثاني عندما بلغت الرابعة عشرة. كانت في الصندوق بطاقة تعريفية من تلك البطاقات التي يعلّقونها في طوق رقبة الكلب. اسم الكلب مكتوب على البطاقة: ديكسون.

ذلك الذي أفلت بفعلته

توقّف صوت النحيب. هناك الآن أصوات أخرى. استغلت الفتاة الغطاء الذي وفّرته الأصوات الجديدة لكي تكسر النافذة. ثم أزالت، بأسرع ما استطاعت، أكبر قدر ممكن من شظايا الزجاج قبل أن تحاول الانسلال عبر الفتحة. لكنها ألحقت بنفسها جروحًا بليغة في كتفيها وحوضها وفخذيها عندما دفعت بجسدها المتسخ عبر إطار النافذة المربع الصغير.

جلست القرفصاء مستندة إلى الجدار بظهرها. سال الدم من جروحها وتقطّر على الأرض الصلبة من تحتها. سوف تترك خلفها أثرًا من دم عندما تجري. خلاصها الوحيد هو أن تبلغ البلدة قبل أن يأتي خلفها: إذا انطلقت الآن فلعل لها فرصة!

السماء مظلمة الآن، لا قمر فيها. الليل هادئ إلا من نقيق الضفادع الرتيب. لكنها لا تزال تسمع صوتيهما في الداخل. أصوات صادرة عنه، وأصوات صادرة عنها.

تغمض عينيها، وتعترف لنفسها بحقيقة الأمر. ثمة فرصة أخرى للخلاص: تستطيع أن تعود إلى البيت، أن تعود من الباب وتدخل المطبخ. تستطيع العثور على سكين هناك. تفاجئه. تقطع بلعومه.

تتخيّل لحظة كم ستحسّ صديقتها بالانفراج. تتخيل كيف تتعانقان، كيف تتعلّق كل منهما بالأخرى. تتخيل إخبارها الشرطة عما حدث. تتخيل استقبالها في المدرسة استقبال الأبطال وكم ستكون أسرة صديقتها شاكرة لها!

كم ستكون أسرة صديقتها ممتنة؟

تتصوّر وجه صديقتها الجميل، وأطرافها الطويلة، وأبويها اللطيفين، وملابسها الثمينة. يملأها التفكير في حياتها، وفي سعادتها.

تتخيل الفتاة نفسها تدخل الغرفة شاهرة السكين. تتخيله يستدير ويمسك بها، يلكمها في حنجرتها. تتخيله جاثيًا فوقها، ركبتاه ضاغطتان على صدرها. تتخيل وزنه فوقها. تتخيل حدّ السكين مضغوطًا تحت رقبتها، على وجنتها، على شفتها.

هي لا تعرف حتى إن كان في المطبخ سكين.

تستطيع أن تحاول مساعدة صديقتها. تستطيع أن تقاتل. أم لعل عليها أن تستفيد من تفضيله صديقتها الجميلة عليها. تستطيع الآن أن تجري، أن تفرّ.

الذنب ليس ذنبها. أصلًا، هي لم ترد الصعود إلى السيارة.

إنها آسفة. هي آسفة حقًا. إنها آسفة. لكنها تواصل الجري.

- 10 -

المحقق باركر. صلعة رأسه لامعة في ضوء الصباح الساطع. ينظر إلى الشرطية التي أدخلت عودًا بلاستيكيًا في فم كارلا ومرّت به على باطن وجنتها. أخرجت الشرطية العود، ووضعته في كيس نايلون شفاف. أومأ برأسه عندما فرغت الشرطية من عملها. بدا راضيًا. طلب من الشرطية أن تنتظره في السيارة المتوقّفة في الخارج. كان باركر قد أوضح لكارلا أن الزورق الذي كان مسكن دانييل ساذرلاند زورق مستأجر. قال لها إنه كان قذرًا. كانت فيه آثار ما لا يقل عن عشرة أشخاص، بل ربما أكثر. لذا، فهم يأخذون عينات DNA وبصمات الأصابع من الجميع -مثلما قال- بغية استبعاد أكبر عدد ممكن من الأشخاص من دائرة الشبهات.

كارلا جالسة إلى طاولة غرفة الطعام. مسحت فمها بمنديل ورقي. قالت وهي تدفع بكتفيها إلى الخلف حتى تخفف التوتر الذي أحسته في أعلى عمودها الفقري: «نعم، هناك احتمال كبير لأن تعثروا على أثر لي». رفع المحقق باركر حاجبيه مستفهمًا وعقد ذراعيه على صدره. تابعت كارلا قائلة: «لقد كذبت عندما قلت إنني لا علم لي بأنّ دانييل يعيش في زورق. كذبت عندما قلت إنني لا أراه». لم يقل باركر شيئًا. اجتاز الغرفة وجلس إلى الطاولة، قبالة كارلا. شبك أصابع كفيه. «لكنكم تعرفون هذا، أليس كذلك؟ قال أحدهم لكم شيئًا، أليس هذا صحيحًا؟ هذا ما جعلك تأتي. هل رآني أحدهم؟». ظل باركر صامتًا ولم يقل شيئًا. إنها تلك الحيلة القديمة من جديد، حتى يجعلونك تتكلّم، حتى تشعر بضغط يدفعك إلى ملء الصمت.

كان وضوح هذه الحقيقة مزعجًا، لكن كارلا كانت أكثر إرهاقًا من أن تستطيع المقاومة - لا تنام إلا ساعة، أو ساعتين متصلتين، منذ آخر مرة أتى فيها المحققون إلى بيتها، منذ خمسة أيام. ترى أشياء، وتحدّق في الظلال، في بقع سوداء تتحرّك عند زوايا مجال رؤيتها. في ذلك الصباح، مرّت بمرآة على الجدار فأجفلت عندما رأت وجه أختها -وجهها- ينظر إليها: وجنتان غائرتان، وملامح خوف.

«لقد أخبرني دانييل بأنه استأجر زورقًا. أخبرني عندما جاء لكي يأخذ حوائجه. طلب مني أن أزوره هناك. قال لي إن عليّ ألا أتوقّع الكثير. ذهبت إليه. ذهبت مرتين. لا تسألني متى ذهبت على وجه التحديد لأنني -صدقًا- غير قادرة على الإجابة.»، توقفت لحظة، «كذبت عليكم لأنني لم أرد الإقرار أمام ثيو بأنني ذهبت إليه».

مال باركر قليلًا إلى الخلف في جلسته. قال وهو يثني أصابعه إلى أن فرقعت مفاصلها بطريقة مقززة: «وما سبب هذا؟».

أغمضت كارلا عينيها لحظة. أصغت إلى صوت أنفاسها. سألت المحقق: «هل تعلم ما حدث لابني؟».

أومأ برأسه واكتسى وجهه تعبيرًا جادًا. قال لها: «أعلم. قرأت ما كُتب عن الحادثة آنذاك. شيء فظيع».

أومأت كارلا برأسها إيماءة صغيرة متيبّسة. «نعم. كانت أختي تعتني به عندما حدث ذلك. لست أدري إن كتبوا هذا. على أية حال، كان منتظرًا منها أن تعتني به. لم يسامحها ثيو أبدًا. قطع علاقته بها منذ ذلك الوقت، ولم يرها منذ موت ابننا إلى يوم موتها. ما كان يريدها في حياتنا. على أية حال، ما كان يريد وجودها في حياته التي كانت في ذلك الوقت حياتي أنا أيضًا. هل ترى ما أقوله لك؟ كنت أرى أختي ودانييل سرًا. بالطبع، كان ثيو يشكّ في أنني أراها من حين إلى آخر؛ وقد جرت بيننا مشاحنات في هذا الشأن. لكننا انفصلنا، وانتقلت إلى هذا البيت. بعد ذلك، ما عاد الأمر يبدو مهمًا. لكني لا أزال حريصة على عدم ذكرهما

أمامه. هكذا هو الأمر، في ما أظن. إنني أكذب على ثيو في ما يخص هذا الجانب من حياتي منذ زمن طويل إلى حدّ يجعلني أحيانًا أنسى متى يكون ضروريًا أن أكذب ومتى لا يكون ضروريًا. لم أرد أن يعرف ثيو أنني زرت دانييل في زورقه».

قطّب المحقق وجهه. قال لها: «يعني هذا أنك كذبت علينا، كذبت على الشرطة، في خضم تحقيق جنائي في جريمة قتل لمجرد أنك غير راغبة في أن يعرف زوجك السابق أنك كنت ترين ابن شقيقتك!». بسط راحتي كفيه أمامها فاتحًا أصابعهما، «يبدو هذا لي أمرًا شديد الغرابة. يبدو هذا لي...» رفع حاجبيه، «هل تخشين زوجك السابق، يا سيدة مايرسون؟».

هزّت كارلا رأسها هزّة صغيرة. قالت له: «لا. لا. إنني، فقط، لم أرد إغضابه». تابعت بصوت هادئ: «أحاول دائمًا ألا أزعج ثيو. وجود علاقة بيني وبين دانييل يغضبه».

«هل تصيب السيد مايرسون نوبات غضب؟».

هزّت كارلا رأسها من جديد. ظلّت مصرّة: «لا. إنه ليس... الأمر ليس هكذا».

سألها باركر: «فكيف هو إذًا؟»، بدا عليه مظهر شخص مهتمًا اهتمامًا حقيقيًا. كان ينظر إليها كأنها عيّنة، كأنها عجيبة من الأعاجيب. «هل كان السيد مايرسون يرى أنك تحاولين العثور على بديل للابن الذي فقدتماه؟ وهذا البديل هو ابن شقيقتك؟ أهذا ما يجعل علاقتك مع دانييل تغضبه؟».

هزّت كارلا رأسها مرة أخرى، لكنها لم تقل شيئًا. أشاحت عن المحقق بوجهها وحدّقت في الحديقة الخلفية المرصوفة الحزينة، وسقيفتها المقفلة، ونباتاتها التي اسودّ لونها بعد أن ماتت في أصصها.

كانت السقيفة خالية إلا من درّاجة صغيرة ذات عجلات ثلاث. لا تزال مربوطة إلى مقوَدها خصلات من خيوط لامعة زرقاء. كانت

الدراجة هدية بن في عيد ميلاده الثالث. أقاموا له حفلة في بيتهم في شارع نويل رود، حفلة اقتصرت على العائلة - والدي ثيو، وأنجيلا، ودانييل، وشقيق ثيو الأكبر مع زوجته وأطفالهما. بعد تناول الحلوى، وبعد إطفاء الشموع، أخذوا الدراجة إلى الخارج، ذهبوا إلى رصيف المرسى. أفعمت الفرحة صدر أنجيلا وهي تنظر إلى بن يجرّب دراجته الجديدة، ساقاه الممتلئتان تعلوان وتهبطان وهو يحرّك الدواسات بأسرع ما استطاع. وجه ثيو! اعتزازه بابنه! قال: «لا يجد أية صعوبة. أترون هذا؟».

أنجيلا تدخّن. رفعت حاجبها وقالت له: «هذه دراجة ثلاثية العجلات، يا ثيو. يستطيع أي شخص ركوب دراجة ثلاثية العجلات».

دانييل يدفع بن على دراجته في طريق عودتهم إلى البيت مع حلول الغسق، مع تضاؤل أعداد الناس في الخارج. والدة ثيو تقول له: «احترس، يا دانييل. لا تسرع كثيرًا». في حين تجاهلها كل من بن ودانييل تجاهلًا تامًا. علت ضحكاتهما عندما مالت الدراجة عند زاوية فكادت تنقلب.

وبعد رحيل بن، بعد انتهاء الجنازة وانصراف المعزّين المزعجين، مضت كارلا إلى فراشها وظلّت هناك. صار ثيو لا يأتي إلى الفراش إلا نادرًا. ظل مستيقظًا استيقاظًا شرسًا، غاضبًا. كانت كارلا تتناول أدوية منوّمة، فتنام نومًا سديميًا تسمع فيه صوت خطواته في مكتبه في أعلى السلم، تسمعها وهو ينزل الدرجات. يعبر المطبخ خارجًا إلى الشرفة حتى يدخّن، ثم تسمع من جديد صوت خطوه الثقيل. تسمعه يشغل الراديو، ثم يغلقه، يقلّب قنوات التلفزيون، يستمع إلى نصف أغنية قبل أن يدفع الإبرة منزلقة على الأسطوانة.

يصعد السلم أحيانًا ويقف بالباب من غير أن ينظر إليها. يحدّق إلى الخارج عبر النافذة المقابلة، يده على وجهه، أصابعه تعبث بشعر ذقنه النابت. يقول بعض الأحيان أشياء، عبارات تبدو أنها تؤدي إلى أسئلة

لم يصلا إليها أبدًا. يتحدّث أحيانًا عن أنجيلا وكيف كانت في طفولتها. يقول: «قلت لي إن نوبات غضب مزاجيّة كانت تصيبها. كنت تتحدّثين دائمًا عن مخيلتها المجنونة. تقولين إنها مخيلة متعطّشة إلى الدم. كانت مخيلة متعطّشة إلى الدم».

وفي حالات عارضة، يطرح أسئلة مباشرة: «هل تظنين أنها كانت تغار؟ تغار عندما ترى كيف كان ابننا؟».

كان هذا الأمر مدار نقاش بينهما عندما كان بن حيًا: كم ينبغي أن يكون قاسيًا على أنجيلا أن تقارن بين ابنها وابنهما. اجتاز بن مراحل نموه اجتيازًا سريعًا جدًّا. كان نشطًا، حيويًا، كثير الكلام؛ وصار يعرف العدّ قبل بلوغه سنته الثالثة. كان ثيو يحب أن يقول للناس: «سوف يقرأ قبل بلوغه الرابعة». وكان على كارلا أن تنصحه بألّا يباهي بابنه كثيرًا.

لم يكن دانييل هكذا. كان مضطربًا في طفولته، وكان نومه سيئًا. استغرق زمنًا طويلًا قبل أن يبدأ الحبو. لم يبدأ الكلام إلا بعد أن أتم سنتين ونصف سنة. كان ولدًا صغيرًا حزينًا، أخرق، كثيرًا ما تصيبه نوبات غضب عارم.

كان ثيو يسألها: «أتظنين أن هذا أزعجها؟ كم كان بن طفلًا متميزًا؟ هذا لأن دانييل طفل غريب بعض الشيء، أليس كذلك؟ أعلم أنني لست موضوعيًا -لا يكون أي شخص موضوعيًا عندما يتعلق الأمر بطفله- لكن، مع هذا، في هذه الحالة، أعتقد، موضوعيًا، بأن بن كان طفلًا رائعًا. لقد كان...».

«ماذا تقول؟». بدا صوت كارلا كأنه صوت شخص آخر، صوت امرأة عجوز، «ما الذي تحاول قوله؟».

يقترب من السرير، عيناه متسعتان، وجهه محمر، «أسألك إن كنت تظنين بأن الغيرة قد أصابت أنجيلا. إن كانت، على مستوى من المستويات...».

تطبق يدا كارلا على لحافها. بصعوبة، تدفع بجسدها إلى الأعلى

حتى تصير جالسة في السرير. «أتسألني إن كنت أظن بأن أختي تعمّدت ترك ذلك الباب مفتوحًا لأنها ترى ابننا أكثر تميزًا من ابنها؟ أتسألني إن كنت أظنها أرادت موت بن؟».

«لا! بحق الرب، لا! لا أقول إنها أرادت موته. لا. يا إلهي! لا أقول إنها تعمّدت فعل أي شيء. أتساءل فقط إن كانت، في لا وعيها...».

تتهاوى كارلا ساقطة على فراشها. تشد اللحاف فوقها، تشده فوق كتفيها، فوق رأسها. «اتركني وحدي، يا ثيو. أرجوك، اتركني وحدي».

***

كان هذا قبل سنة من اكتساب كارلا عادة النهوض من فراشها كل يوم، والاستحمام، ثم ارتداء ملابسها. انقضى ثمانية عشر شهرًا قبل أن ترى أختها من جديد، قبل أن تراها سرًّا. قالت لثيو إنها قرّرت الالتحاق بصف لليوغا، ووضعت على جسدها الممتلئ الواهي قميصًا ذا كمَّين قصيرين، وبنطلونًا رياضيًا، ثم ذهبت إلى بيت أختها في هايواردز بليس. تراجعت كارلا مصدومة عندما فتحت لها أنجيلا الباب. لم تكبر أختها ثمانية عشر شهرًا، بل عقودٌ من السنين. كانت مهزولة الجسم، جلدها الشاحب مشدود على جمجمتها. بدت كأنها قد جفّت كلها، كأنها صارت مفرغة.

ابيضّ شعر أنجيلا في ليلة واحدة. هذا ما قالته، على أية حال. شاب شعر الشقيقتين في وقت مبكر؛ لكن أنجيلا زعمت أنها آوت إلى فراشها داكنة الشعر يوم الثلاثاء، فاستيقظت صباح الأربعاء وقد ابيض شعرها كله. هكذا كان الأمر. أبقت على شعرها طويلًا، ولم تصبغه. قالت: «أبدو مثل ساحرة في واحدة من قصص الجنيّات، ألا أبدو هكذا؟ إنني أخيف الأطفال في السوبر ماركت». كانت مازحة، لكن كارلا لم تجد في الأمر أية طرافة. كارلا أيضًا لم تصبغ شعرها. لكنها قصّته قصيرًا جدًا عندما بدأ يشيب. أجفلت عندما قالت لها أنجيلا: «أنت محظوظة. إن لك رأسًا حسن التكوين. إن قصصت شعري قصيرًا فسوف أبدو

كأنني قادمة من الفضاء».

كان هذا إطراء، لكنه أزعج كارلا. لم يعجبها سماعها كلمة «محظوظة» على لسان أختها؛ ومن المؤكد أن إطلاق هذه الصفة عليها ما كان سارًّا لها أبدًا. قالت عابسة: «ليس ممكنًا أن يشيب شعرك بين عشية وضحاها. لقد تقصّيت هذا الأمر. إنها أسطورة». كان ما قالته صحيحًا. ولكن، كان صحيحًا أيضًا أنها قرأت عن شابات، عن شابات أصغر كثيرًا منها ومن أختها، نساء سوفتيات قاتلن من أجل بلادهن في الحرب العالمية الثانية، وواجهن أهوالًا فظيعة، فشابت شعورهن بين عشية وضحاها. قرأت أيضًا عن نساء كمبوديات شهدن أمورًا مخيفة جعلتهن تفقدن أبصارهن.

قالت أنجيلا: «هذا ما حدث لي. لا تستطيعين القول إن ما حدث لم يحدث. لا تعرفين هذا لأنك لم تكوني هنا».

صارت «دروس اليوغا» شيئًا أسبوعيًا، تمرينًا على التصميم بالنسبة إلى كارلا. كانت مؤمنة بالعمل الجاد الدؤوب. الحقيقة أنها كانت مقتنعة بأن أكبر الأهداف قيمة كثيرًا ما يكون أصعبها إدراكًا. كانت مؤمنة بأن المرء، إن بذل جهدًا كافيًا في أمر من الأمور، فمن المحتمل كثيرًا أن يتمكّن من تحقيقه. فلندعُ هذه الفكرة نظرية العشرة آلاف ساعة: إن أمضت عشرة آلاف ساعة تحاول الصفح عن أختها، فهل تنجح في هذا؟ لا سبيل إلى معرفة الإجابة؛ لكن هذا بدا لها أسلوبًا منطقيًا. ففي آخر المطاف، رحل والداها، ورحل ابنها. ما عاد لديها في العالم إلا قليلٌ مما هو ثمين، مما هو غال على قلبها: أنجيلا، ودانييل الصغير، وبالطبع ثيو. لكنها كانت عارفة في قرارة أكثر أجزاء قلبها حزنًا أنهما، هي وثيو، لن يقدرا أبدًا على تجاوز ما أصابهما.

ذات مرة، عندما أتت كارلا لزيارة أنجيلا واقتربت من باب البيت، سمعت أصواتًا مرتفعة. ما كادت تدق الباب حتى انفتح، حتى جذبته أختها بحركة عنيفة كأنها تحاول اقتلاعه من الجدار. قالت عندما رأت

كارلا: «أوه، يا إلهي! نسيت أنه يوم لقائنا. دانييل ليس في المدرسة. إنه...»، توقفت عن الكلام ورفعت كتفيها، «إنه فقط، ليس في المدرسة».

جلستا في غرفة المعيشة مثلما تفعلان دائمًا. وبعد وهلة، نزل دانييل للسلام عليها. خلال شهور فراقهما الثمانية عشر، كبرت أنجيلا عشر سنين، ولم يكبر دانييل أبدًا. صار في التاسعة، لكنه ظل قصير القامة بالنسبة إلى سنه، وظل غير واثق من نفسه. كانت له عادة التحرك متسللًا: يظهر فجأة، من غير إنذار، ويشد على يديه، يعصرهما أمام بطنه. قالت كارلا مبتسمة: «مثل حيوان صغير».

قالت أمه: «مثل متوحّش صغير».

في ذلك اليوم، عندما ظهر ظهوره المفاجئ، وقف بالباب وقال: «مرحبًا، يا خالتي كارلا». ابتسم لها كاشفًا عن أسنان مغلفة بالمعدن.

نهرته أنجيلا: «يا إلهي! دانييل! لا تفعل هذا!».

قالت لأختها: «إنه جسر تقويم الأسنان. ما عاد قادرًا على أن يبتسم ابتسامة طبيعية. يحاول أكثر الأطفال، عندما يضعون جسور تقويم... يحاولون إخفاء أسنانهم. لكنه لا يفعل مثلهم. إنه يبتسم هذه الابتسامة المخيفة، دائمًا».

انسلَّ دانييل مبتعدًا. انسل انسلالًا هادئًا، مثلما جاء. همست كارلا: «لا، يا أنجيلا! قد يسمعك». انكسر قلبها إشفاقًا عليه؛ انكسر ما كان باقيًا من قلبها.

جلبت له مجموعة ضخمة من أقلام التلوين عندما أتت في المرة التالية. صعدت بها إلى غرفته. لمعت عيناه عندما رأى الهدية. همس: «أوه!»... جعله سروره عاجزًا عن العثور على كلمات. ابتسم ابتسامته المخيفة، «خالتي كارلا!». أحاط خصرها بذراعيه النحيلتين.

تجمّدت كارلا في مكانها. كانت غير متأهبة لهذا الإحساس الذي داهمها، لهذا الإحساس بجسد طفل يضم جسدها أول مرة منذ زمن بعيد جدًا. تقطّعت أنفاسها، ولم تطق النظر إلى رأسه الصغير، إلى

شعره الكستنائي الغزير، إلى رقبته التي لاحظت كدمتين صغيرتين عليها. كانت الكدمتان كأنهما أثر إبهام وسبّابة. كأن أحدًا أمسكه من رقبته وقرصه قرصة شديدة. عندما رفعت كارلا رأسها، رأت أختها واقفة تنظر إليهما.

قالت لها وهي تشيح بوجهها: «يخوض مشاجرات في المدرسة، طيلة الوقت». سمعت كارلا صوت خطواتها نازلة السلم، خطوات ثقيلة ثقلًا غريبًا غير متناسب مع خفّة وزنها.

تركت كارلا الطفل يحتضنها بضع لحظات، ثم فكّت ذراعيه من حول خصرها بلطف وقرفصت على الأرض، حتى صارت عيناها على مستوى عينيه. سألته: «هل هذا صحيح، يا دانييل؟ هل تتشاجر مع الآخرين؟».

ظل لحظة من غير أن ينظر إليها. وعندما نظر، كان تعبير وجهه جادًّا. قال لها بصوت خافت: «أحيانًا! الناس أحيانًا لا... إنهم لا...». نفخ وجنتيه وأطلق زفرة قوية، «أوه، لا أهميّة للأمر».

«بل هو مهم، يا دانييل، إنه أمر مهم».

هز رأسه بطيئًا وقال: «لا، غير مهم. غير مهم لأنني راحل. سوف أذهب إلى مدرسة جديدة. سوف أعيش هناك، ولن أعيش هنا بعد الآن». احتضنها من جديد. هذه المرة أحاط رقبتها بذراعيه. سمعت صوت أنفاسه سريعًا، خفيفًا، مثل أنفاس حيوان محاصر.

أكدت لها أنجيلا ما سمعته من الصغير. سوف يذهب إلى مدرسة داخلية. «سيدفع أبوه التكاليف. كانت مدرسته في ما مضى. إنها في مكان ما في أكسفوردشايرد. واضح أنها مدرسة جيدة جدًا».

«مدرسة في أكسفوردشايرد؟ أنجيلا، هل أنت واثقة من هذا؟».

«لا فكرة لديك أبدًا عن مدى صعوبة الأمور، يا كارلا». خفضت صوتها، «لا تعرفين أبدًا كم هو صعب». من جديد، ظهرت في صوتها تلك النبرة الحادّة، «لا تفعلي هذا. لا تنظري إليّ بهذه الطريقة. أنت لا

ترين ما يحدث، لا ترين... لا تكونين هنا إلا مرة في الأسبوع كله، ولا ترين كيف يتصرف عندما يكون وحده معي، لا تعرفين هذا. لقد أصابته صدمة كبيرة. كان ما حدث صدمة له. كان صدمة عنيفة جدًا».

هزت كارلا رأسها كأنها تقول إنها غير راغبة في سماع هذا. قالت أنجيلا: «أعرف أنك لا تريدين سماع ما أقوله لك، لكنها الحقيقة». مدّت يدها إلى سجائرها. أخرجت من العلبة سيجارة. الآن، صارت يدا أنجيلا ترتعشان دائمًا. فيما مضى، كان يظهر عليهما ارتعاش بسيط في الصباح بعد الشرب في الليلة السابقة، لكن ارتعاشهما صار الآن متواصلًا... ارتعاش يرغمها على إبقاء يديها متحركتين، تحرص دائمًا على استخدامهما، على أن تمسك بهما شيئًا حتى تشغلهما: كأس، كتاب، قداحة.

«نعم، بالطبع، أصابته صدمة».

أشعلت أنجيلا سيجارتها. أخذت منها نفسًا، ثم تابعت: «يقول الطبيب النفسي إنه بدأ الآن يبوح له بما رآه... هل ترين؟ يقول إنه رآه يسقط، إنه رأى بن يسقط من الشرفة. يقول الآن، إنه لم يعثر عليه فحسب، بل رأى ما حدث كله». أغمضت عينيها، «يقول إنه صرخ وصرخ، وإن أحدًا لم يأت. يقول...». رفعت كارلا يدها - كانت انجيلا محقّة، فهي لا تريد سماع هذا. قالت لها: «من فضلك». صمتت لحظة ريثما تهدأ أنفاسها، «لكني واثقة من أن ذلك الطبيب لا يظن -لا يمكن أن يظن- أن معالجة صدمته ممكنة من خلال فصله عن أمه!».

قالت أنجيلا وهي تسحق في طبق السجائر سيجارتها التي لم تدخّن إلا نصفها: «أمه هي المشكلة كلها. إنه يلومني، يا كارلا؛ يلومني على ما حدث». رفعت رأسها ناظرة إلى أختها. مسحت دموعًا جرت على خديها، مسحتها بظهر يدها، «لقد قال للطبيب النفسي إنني مذنبة في ما جرى».

قالت كارلا في نفسها، نعم، *أنت مذنبة في ما جرى. بالطبع، الذنب ذنبك أنت*.

- 11 -

من فضلك، ألا تفتح فمك أكثر قليلًا، يا سيدي!

كانت امرأة شابة، سريعة الحركة، ترتدي ملابس الشرطة الرسمية. كانت منحنية فوقه تدخل في فمه عودًا من البلاستيك. مع أن من المتوقع أن تكون هذه العملية مزعجة لأن فيها قدرًا من الاعتداء على الخصوصية، فقد فوجئ ثيو مفاجأة غير سارة عندما اعترف لنفسه بأنه وجدها مثيرة. أغمض عينيه، لكن الأمر ازداد سوءًا. حاول ألا ينظر إليها وهي تأخذ بصمات أصابعه. وعندما قابلت عيناه عيني المرأة آخر الأمر، رأى فيهما أنها أحسّت شيئًا، أحست شيئًا أزعجها. ساءه هذا كثيرًا. أراد أن يقول لها، *إنني آسف. إنني آسف حقًا. أنا لست من هذا النوع. لست من أولئك الناس. أنا رجل ملتزم بامرأة واحدة.*

كارلا هي المرأة الوحيدة التي أحبّها ثيو. كانت في حياته نساء من قبلها. وقد مرّت في حياته نساء من بعدها مرورًا عارضًا. لكن كارلا كانت هي المرأة بالنسبة إليه، ولا شك في هذا أبدًا. كان يراها المرأة الوحيدة في حياته، والمرأة المتعدّدة، لأن لديه كارلا هذه ولديه كارلا السابقة. بدا له أنه عرف خلال حياته أكثر من كارلا، كارلات كثيرات أحبهنّ جميعًا وسوف يحبهنّ دائمًا مهما تجسّدن له في صور مختلفة.

كانت كارلا كل ما لديه. بطبيعة الحال، كان لديه بن أيضًا. كان لديه بن طيلة تلك الفترة القصيرة الرائعة، طيلة سنوات ثلاث وسبعة وأربعين يومًا من الفرحة الخالصة. وأما الآن، فما عاد لديه غير كارلا. كارلا، وعمله.

منذ خمسة عشر عامًا، عندما مات بن، كان ثيو غارقًا في كتابة روايته الثالثة. هجر الكتابة من غير أن يفكّر في الأمر كثيرًا، لأنه ما عاد قادرًا على

احتمال قراءة كلمات كتبها عندما كان بن يلعب على العشب في الخارج، أو يغني مع أمه في المطبخ. ظل سنة، أو سنتين، غير قادر أبدًا على الكتابة. بل إنه لم يكد يحاول العودة إليها. وفي المرات القليلة التي أقدم فيها على المحاولة، عندما حاول الكتابة، لم يأته شيء. كيف يكتب عندما يكون قلبه محطّمًا؟ عندما يكون قلبه منتزعًا من جسده انتزاعًا؟ وماذا يكتب؟ أي شيء! قال له وكيل أعماله. لا أهمية للأمر، اكتب أي شيء. لذا، كتب ثيو، كتب قصة عن رجل يفقد طفله لكنه ينقذ زوجته. كتب قصة عن رجل يفقد زوجته لكنه ينقذ طفله. كتب قصة عن رجل يقتل شقيقة زوجته. كان ما كتبه فظيعًا... كان فظيعًا كله. قال لوكيل أعماله: «هذا مثل اقتلاع سن من فمك. بل هو أسوأ من ذلك. إنه مثل اقتلاع أظافرك». بعد أن فقد قلبه، صار كل ما يفعله عديم القيمة، عقيمًا، لا أهمية له. سأل وكيل أعماله وهو يجلس مذعورًا أمام شاشة الكمبيوتر الخالية: «وماذا لو صرت غير قادر على العمل بعد الآن لأن ذلك الرجل الذي يكتب قد اختفى؟».

في غضون ذلك، كانت كارلا تنزلق بعيدًا عنه. ظلت موجودة، لكنها ليست موجودة. كانت كأنها طيف في البيت. تخرج من الغرف عندما يدخلها، وتُغمض عينيها عندما يَعبر مجال رؤيتها. صارت تذهب إلى دروس اليوغا فلا تبدو عليها عند عودتها أية سكينة، بل تكون مضطربة، غاضبة، تتجوّل في البيت بخطوات عنيفة وتخرج إلى الحديقة حيث تجلس وتحكّ ذراعها بأظافرها إلى أن تنزف دمًا. كان يحاول الوصول إليها، لكن محاولاته ظلت خرقاء مرتبكة. هذا ما أدركه في وقت لاحق. أدرك أنها كانت محاولات لا طائل منها. وأما فكرة أن عليهما أن يحاولا إنجاب طفل آخر فكان ردّها عليها غضبًا باردًا، صقيعيًا.

بدأ ثيو يمكث في البيت وقتًا أقل، ثم أقل. صار يسافر إلى مهرجانات الكتّاب، ويلقي محاضرات في جامعات بعيدة جدًا. كانت له علاقة قصيرة، غير مرضية، مع صحافية أصغر منه كثيرًا. ثم تركته كارلا في آخر المطاف. لكن هجرانها ما كان مقنعًا تمامًا. اشترت بيتًا لا يبعد عن بيته إلا خمس دقائق.

حاول ثيو كتابة شيء غير الروايات. حاول الكتابة عن القيمة المتدنية التي ينسبها الناس إلى الأبوة، ووضع حقائق تَحرّر المرأة موضع التساؤل، وتأمل في العودة إلى قيم أكثر تقليدية (قيم فيها تحيّز جنسي ضد المرأة). كره نفسه. كره نفسه كثيرًا. عجز عن العثور على كلمات تضاهي هول خسارته، كلمات تضاهي عمق حنقه.

من غير ابنه، من غير زوجته، من غير عمله، وقع ثيو في لجّة يأس عميق.

بعد انصراف عناصر الشرطة، خرج ثيو لكي يسير قليلًا. كان من عادته أن يخرج في هذا التوقيت وينجز دورة سريعة من حول الحي - تمامًا قبل وجبة الغداء حتى يمنع نفسه من تناولها في وقت مبكر أكثر مما ينبغي. كان لديه نزوع إلى الإفراط في الأكل. وقف في الممر، ومدّ يده كي يتناول معطفه. بحركة غريزية، مدّ يده كي يتناول رسن الكلب، لكن يده عادت من غيره. ما كان أمرًا غريبًا أن يمد يده إلى رسن الكلب، فهو لا يزال يفعل هذا كل يوم تقريبًا، لأنه لم يألف غياب ديكسون، لم يعتد غيابه بعد. لا... الأمر الغريب هو أن رسن ديكسون ما كان في مكانه على المشجب. نظر ثيو من حوله، لكنه لم يعثر عليه. قال في نفسه إن من الممكن أن تكون عاملة التنظيف قد أبعدته، لكنه لم يستطع التفكير في السبب الذي جعلها تفعل ذلك.

كان من عادته أن يسير على طول مرسى القوارب. لكن الشريط العازل الذي وضعته الشرطة من حول المرسى لا يزال هناك. اتخذ بدلًا من ذلك وجهة الجسر الذي في شارع دانبري. هناك أيضًا، رأى رجلًا في ملابس الشرطة - شاب على وجهه طفح جلدي بعد الحلاقة. ابتسم الشرطي عندما رأى ثيو، ورفع يده بالتحية قبل أن ينتبه إلى نفسه وينزل يده.

أبصر ثيو فرصة.

سار مقتربًا من الشرطي الشاب. قال له: «لا يزال بحثكم متواصلًا، أليس كذلك؟ لا تزالون في بحث عن الأدلة!»

احمر وجه الشرطي: «امم، صحيح، نعم. الحقيقة أننا نبحث عن سلاح الجريمة».

قال ثيو: «بالطبع، بالطبع. سلاح الجريمة. نعم...». قال هذا وهو ينظر إلى القناة، يمنة ويسرة، كأن من المحتمل أن يرى السكين من هناك، من فوق الجسر، «من الأفضل أن أتركك تتابع عملك. أتمنى لك حظًا طيبًا».

قال الشرطي: «حظًا طيبًا لك أيضًا». ازداد وجهه احمرارًا.

«ما الأمر؟».

«أوه، إنه... فقط... كتاباتك. آسف. أنا...»

«لا. لا مشكلة أبدًا».

«أنا من معجبيك. هذا كل ما في الأمر. نعم. أنا معجب كثيرًا برواية «*ذلك الذي أفلت بفعلته*». أثارت اهتمامي كثيرًا طريقة معالجتك الموضوع كله. أعني التراجع والتقدم في سرد القصة كلها، وتركنا نرى ما في عقل القاتل - كان هذا لامعًا جدًا! في البداية، لا تدرك ما يحدث؛ وبعد ذلك، يكون الأمر مثل... واو! جميل جدًا. أعجبني أسلوبك في قلب كل شيء رأسًا على عقب وفي اللعب بتعاطفنا مع الشخصيات، أو نفورنا منها، وتلك الأشياء كلها...».

ضحك ثيو مصطنِعًا عدم التصديق... «حقًا... حسبت أن الجميع رآها فكرة فظيعة!»

«أنا لا أرى هذا. رأيتها فكرة ذكية. هذا أسلوب جديد في رواية القصة، أسلوب يجعلك تفكر، أليس ما أراه صحيحًا؟ هل تظن أنك ستكتب رواية أخرى؟ أعني رواية جريمة أخرى. أعني...». توقّف لحظة لكي يعثر على طريقة تعبّر عما أراد قوله، «رواية أخرى من روايات *كارولين ماكفرلين*».

رفع ثيو كتفيه وقال للشرطي: «لست أدري. أفكر في هذا الأمر، بكل تأكيد». لوّح بذراعه في اتجاه الماء من غير أن يشير إلى شيء بعينه. قال: «قد أقتبس فكرة رواية مما حدث هنا، فما قولك؟ قد أضع

لها عنوان *الفتى الذي يعيش في زورق*». ضحك كل منهما ضحكة مرتبكة.

سأله الشرطي: «هل يعني هذا أنك تستمد أفكارك من الحياة الواقعية؟».

«نعم، الآن، هذا سؤال...». قال ثيو هذا متوقفًا قبل إنهاء جملته، آملًا ألا يكون الشرطي ينتظر إجابة واضحة.

لحظة صمت قصيرة غير مريحة سبقت قول الشرطي الشاب: «لأنني، كما ترى... إذا أردت هذا، إذا أردت مناقشة أفكار من أجل رواية جريمة، من قبيل... جوانب من عمل الشرطة، أو الطبّ الشرعي، أو أي شيء من هذا القبيل...». أدرك ثيو أن الشرطي يكلّمه وأن عليه أن ينتبه إلى ما يقول، «فقد أكون قادرًا على مساعدتك في بعض من هذه الأمور، على سبيل المثال».

ابتسم له ثيو ابتسامة كبيرة. قال له: «هذا لطف كبير منك. لطف كبير حقًّا. أنا... اممم... لا بأس. في هذه اللحظة، كنت أتساءل، أتساءل فقط، مثلما تعلم، ما مدى ما استطعتم تحقيقه من تقدّم حتى الآن؟ في هذه القضية... اممم، آه، قضية ابن أخت زوجتي». شد الشرطي على شفتيه. تراجع ثيو إلى الخلف خطوة باسطًا كفيه، مباعدًا بين أصابعه. قال له: «انظر! أعرف أنك لا تستطيع إعطائي معلومات. لكني كنت أتساءل لأن -كما تعلم- لأن ما حدث كان محزنًا جدًّا، كان محزنًا لزوجتي، محزنًا لكارلا. فظيع ما عانته في الآونة الأخيرة. إن كنتم قد اقتربتم من اعتقال شخص مشتبه فيه، فسوف تكون في هذا راحة كبيرة لكل منا. بالطبع...»

استنشق الشرطي نفسًا عميقًا من بين أسنانه المطبقة. «نعـ- م...»، قال له خافضًا رأسه قليلًا، «الأمر مثلما قلت قبل قليل. لا أستطيع إعطاء معلومات عن...»

أومأ ثيو برأسه إيماءة تعاطف مع الشرطي. تعبير كئيب على وجهه.

بحث في جيب سترته، ثم أخرج علبة السجائر. قدّم إلى الشرطي سيجارة، فقبلها.

قال الشرطي وهو يقترب من ثيو حتى يشعل سيجارته: «انظر. أستطيع أن أقول لك إن تحرّيات الطب الشرعي جارية الآن، في هذه اللحظة. وأنا واثق من معرفتك أن هذه الأمور تستغرق بعض الوقت. لا نحصل على النتائج بين ليلة وضحاها. الأمر ليس مثل التحرّيات التي تتم في مسرح الجريمة، أو أي شيء من ذلك الهراء...»

«تحرّيات الطب الشرعي...؟»، قالها ثيو مستحثًّا الشرطي على قول المزيد.

قال الشاب بصوت منخفض: «الملابس. الملابس التي عليها دماء».

«آه...». هذا مطمئن، «ملابس عليها دماء تخص... تخص تلك الفتاة، أليس كذلك؟ الفتاة التي استجوبتموها؟ لأنني -كما تعلم- رأيت تلك الفتاة. رأيتها تجري مبتعدة عن المكان. رأيتها ذلك الصباح، لكني لم أفعل شيئًا. ما أغبى هذا! قلت في نفسي إنها قد تكون ثملة، أو شيئا من هذا القبيل».

اكتسى وجه الشرطي تعبير اهتمام عميق: «يا سيد مايرسون! ما كنتَ قادرًا على فعل أي شيء. ما كان أحد قادرًا على فعل شيء من أجل السيد ساذرلاند لأن إصاباته كانت بليغة جدًّا».

أومأ ثيو برأسه. «نعم، بالطبع. بالطبع. لكن، فلنعد إلى هذه الفتاة. أظن أن التحقيقات متركزة عليها، أليس كذلك؟ أعني، الآن. فلا وجود... أوه، لست أدري إن كان للأمر صلة بالمخدرات، أو بسرقة، أو...».

هز الشرطي الشاب رأسه بحزن. قال: «لا أستطيع أن أقول لك شيئًا الآن. نحن نتتبّع عددًا من الأدلة».

أومأ ثيو برأسه، أومأ بحركة سريعة. قال للشرطي: «بالطبع!». كان يفكر في أن عبارة «نتتبّع عددًا من الأدلة»، لا تعني في حقيقة الأمر شيئًا

أكثر من «ليست لدينا أدنى فكرة عما يجري». همّ بأن يسير مبتعدًا. لكنه، عندما كاد يتحرّك، رأى أن هذا الشاب ذا الوجه المبقّع توّاق إلى أن يبوح له بأمر، إلى أن يبرهن على أهميته، على قيمته. لذا، سأله ثيو: «ألا تستطيع إخباري أي شيء عنها؟ أعني، الفتاة. لا أريد معرفة اسمها، بالطبع. لكني كنت أتساءل -مفترضًا أنها من سكان هذه المنطقة- قالوا في الصحف إنها من سكان آيلينغتون - إنها الآن حرّة طليقة، تتجوّل هنا وهناك. وبالطبع، نتيجة أنني... أنني شخص معروف، لن يكون صعبًا عليها أن تصل إليّ، وإلى زوجتي، أن تعرف من نحن. المسألة هي... لعلّي مصاب بنوع من الرهاب... لكن ما أريد معرفته هو: هل هي خطيرة؛ هذه الفتاة؟ نعم، من الواضح أنها خطيرة. لكن، هل هي خطرٌ عليّ؟ هل هي خطر علينا؟».

كان واضحًا أن الشرطي الشاب غير مرتاح أبدًا، وأنه ممتلئ رغبة في البوح بمعلومات سريّة. اقترب من ثيو وقال له بصوت خافت: «إن لها سوابق كثيرة».

مكتبة
t.me/t_pdf

«سوابق؟».

«سوابق عنف».

ارتدّ ثيو عن الشرطي مذعورًا.

«انظر! لا ينبغي أن يثير هذا الأمر مخاوفك. إنها، فقط غير مستقرّة. هذا كل ما سأقوله لك. هذا كل ما أستطيع قوله. انظر! أريد أن أطمئنك، أريد ذلك - سوف نفتش القناة مرّة أخرى بعد ظهر هذا اليوم. لا نزال نبحث عن سلاح الجريمة. وما إن نعثر عليه، حتى يكون الأمر قد صار في حكم المنتهي. ما إن نضع يدنا على سلاح الجريمة حتى يصير اعتقال المجرم وشيكًا جدًّا».

***

عاد ثيو إلى مكتبه وقد شاع في نفسه شيء من الاطمئنان. تصفّح الرسائل الواردة التي كان من بينها بضع رسائل من معجبين أحالها إليه مكتب وكيله الأدبي. في ما مضى كانت تأتيه عشر[illegible] هذه الرسائل

كل يوم، وكان واحد من صغار الموظفين في مكتب الوكيل الأدبي يتولّى أمرها. لكن توارد الرسائل صار أقل على مرّ السنين. لا يستخدم ثيو وسائط التواصل الاجتماعي، ولا يردّ على الإيميلات. ولكن، إذا تجشّم أحدهم عناء الكتابة إليه على الورق، فمن المرجَّح أن يردّ شخصيًا على رسالته.

عزيزي السيد مايرسون/ الآنسة ماكفرلين،

رجائي ألّا تمانع كتابتي إليك، فأنا شديد الإعجاب برواية «ذلك الذي أفلت بفعلته». وقد كنت أتساءل من أين تأتي بأفكارك؟

تنهد ثيو منزعجًا. يا إلهي! هل صحيح أن العثور على الأفكار أمر صعب؟ أن تصوغها في كلمات، وأن تضعها على الورق، هذه حكاية أخرى. لكن الأفكار ملقاة على قارعة الطريق، أليس كذلك؟

... وعلى نحو خاص، من أين أتيت بفكرة هذا الكتاب؟ هل أخذتها من مقالة صحافية أم من أحاديثك مع الشرطة؟ أفكّر في أن أكتب بنفسي قصة جريمة، فأنا أستمتع بقراءة أخبار الجرائم في الإنترنت. هل تطلب من الشرطة أحيانًا أن تساعدك في حبكة الرواية، في جرائم بعينها، في نسج تلك الأمور كلها معًا، إلخ؟ مكتبة

أتساءل أيضًا لماذا لم تعط الشخصيات أسماء في رواية «ذلك الذي أفلت بفعلته»؟ هذا أمر غير مألوف أبدًا!

من فضلك، هل من الممكن أن تجيبني عبر الإيميل لأنني توّاق إلى قراءة ردودك على أسئلتي.

المخلص لك،

هنري كارتر

(henrycarter759@gmail.com)

ملاحظة أخيرة: لا أتفق في الرأي مع المراجعات الصحافية التي قالت إن كتابك فيه «بغض للنساء» و«تكلّف وادّعاء». أظنهم لم يفهموا الرواية كما ينبغي.

ضحك ثيو عندما قرأ هذا. وضع الرسالة في صينية الرسائل الواردة واعدًا نفسه بأن يعود إليها في اليوم التالي. نهض واقفًا ومدّ يده من فوق الطاولة لكي يتناول سجائره. لحظة فعل ذلك، رفع رأسه ونظر من النافذة، نظر صوب رصيف المرسى فرأى ميريام لويس واقفة هناك كأنها عمود. كانت تنظر إليه مباشرة.

ارتدّ إلى الخلف وصاح: «يا إلهي!». كاد لشدّة ذعره يسقط فوق كرسي مكتبه. أطلق شتيمة بصوت مرتفع، ثم نزل السلم مسرعًا واندفع خارجًا إلى الحديقة. فتح بوابة الحديقة الخلفية وتلفّت ناظرًا من حوله. لقد اختفت. سار ثيو على رصيف المرسى بضع دقائق، جيئة وذهابًا، شادًّا على قبضتي يديه. كان العابرون هناك يلتفون من حوله والتحسّب ظاهرٌ على وجوههم. هل كانت هناك حقًا؟ أم إنه صار يتخيّل رؤية أشياء غير موجودة؟ أهذا ما انتهى إليه أمره؟

من غير زوجته، ومن غير ابنه، ومن غير عمله، سقط ثيو في لجّة اليأس. وفي يأسه هذا، كتب رواية من روايات الجريمة. كان ذلك اقتراح وكيله الأدبي الذي قال له: «عندما قلت لك أن تكتب أي شيء، كنت أعني هذا. اكتب أي شيء، فقط حتى تستعيد عادة الكتابة. جرّب الخيال العلمي، الرومانسي، أي شيء - لن تصدق أبدًا مقدار ما يُنشر من أعمال تافهة لا قيمة لها تحت عنوان «الروايات التجاريّة». لا أهمية أبدًا لأن يكون العمل جيدًا، وليس ضروريًا أن تكون له قيمة. سوف نضع اسم شخص آخر على ما تكتبه. ما عليك إلّا أن تكتب شيئًا». لذا، حاول ثيو أن يكتب. الكتابة الرومانسية تعني الإفلاس؛ وما كان ذهنه متجهًا إلى الخيال العلمي. وأما الجريمة!... من الممكن أن ينجح في هذا. كان يحبّ كتابات مورس؛ وقد قرأ دوستويفسكي. فكم يمكن أن يكون هذا صعبًا؟ ليس في حاجة إلّا إلى نقطة بداية مناسبة، إلى فكرة مناسبة، حتى ينطلق في الأمر. عندها، أتته الفكرة من تلقاء نفسها، أتته

إلى باب بيته. التقط الفكرة وجرى بها. عمل عليها. صاغها وشكّلها. صنع منها شيئًا متميّزًا.

نشرت رواية «ذلك الذي أفلت بفعلته» تحت الاسم المستعار كارولين ماكفرلين، وكانت عملًا تجريبيًا إلى حدّ بعيد. تتحرك حبكة الكتاب أمامًا في بعض أجزائه، وخلفًا في أجزاء أخرى، مع تحوّل زاوية النظر، بعض الأحيان، بزاوية مئة وثمانين درجة بحيث يصير تفكير القاتل مكشوفًا أمام القارئ. كان ذلك كتابًا يبيّن، بل يفضح، كيف يمكن التلاعب بعواطف القارئ. كان كتابًا يعرّي حقيقة أننا نتعجّل القفز إلى النتائج في ما يتعلق بالبراءة والذنب، بالسلطة والمسؤولية.

حقّقت تلك التجربة نجاحًا كبيرًا. صحيح أن ثيو اعتنى بإخفاء شخصيته واستخدم اسم امرأة (قال له وكيله الأدبي، «تحب النساء الجرائم! تستمتعن كثيرًا بالتنفيس عن شعورهن بأنهن ضحايا»)، فإن السرّ لم يبق سرًا. باح أحدهم بالسرّ. وبطبيعة الحال، كان معنى هذا أن يحقّق الكتاب مبيعات ضخمة على الفور. وأيضًا جعل هذا الكشف النقّاد يشحذون سكاكينهم (ظهرت مراجعات شريرة حقًا)، كما جعل المجانين يخرجون من جحورهم. («لقد سرقتَ قصتي!»). إلا أن الكتاب حقق هدفه المركزي. عاد ثيو يكتب من جديد. هكذا كان الأمر: عندما سكت صوت الإلهام، رفض ثيو أن يستسلم. وقع في يده جزء من قصة، فاستولى عليه وجعله ملكًا له. تلك كانت حقيقة الأمر.

ذلك الذي أفلت بفعلته

الترقب.

أحيانًا، يكون الترقب هو الجزء الأفضل، لأن الأشياء لا تسير دائمًا مثلما تريد لها أن تسير. لكن عليك، على الأقل، أن تكون شاكرًا. أليس عليك أن تكون ممتنًا؟ أن تكون ممتنًا لضياء الشمس الحارّ على ظهرك، ولخروج الفتيات بتنوراتهن القصيرة وبلوزاتهن ذات الياقات المنخفضة. يرى في المقهى فتاة جالسة مع صديقتها القبيحة. الفتاة ترتدي تنورة. لم ترتد بلوزة ذات ياقة واسعة، بل قميصٌ قصير الكمَيْن من غير حمّالة ثديين. فتاة جميلة.

تشمّر تنورتها قليلًا حتى تمنحه نظرة أفضل فيشعر بأنه ممتن لها. يبتسم لها، لكن وجهها يتجهّم بدلًا من أن تردّ على ابتسامته بابتسامة. تقول لصديقتها القبيحة، وكأن!

وكأن!

ينتابه شعور بغيض كأنه صار مفرغًا من داخله، كأن شيئًا بدأ يأكله. ينتابه توق مخيف، توق خلّفه الموضع الذي كان ينبغي أن تظهر فيه ابتسامتها.

- 12 -

ظنّت ميريام أنها لن تستطيع العودة إلى الزورق. ظنت أنها قد تموت هناك، على ممر المرسى. أحست بالموت قادمًا إليها. موجة الذعر العاتية. ضاق مجال رؤيتها، وزحفت الظلمة إليها. ضاق صدرها، وصارت أنفاسها لهاثًا. بدأ قلبها يخفق عنيفًا. كادت تسقط على الدرجات النازلة إلى كابينة زورقها. انهارت على المقعد وتدلى رأسها حتى مسّت ذقنها صدرها. مرفقاها على ركبتيها. حاولت استعادة انتظام أنفاسها. حاولت إبطاء ضربات قلبها المجنونة. غبية. غبية. غبية. ما كان عليها أن تذهب إلى هناك حتى تراه – من يعرف ما كان ممكنًا حدوثه؟ كان من المحتمل أن يطلب الشرطة. وكان من المحتمل أن يزعم أنها أتت لمضايقته. كان ممكنًا أن ينتهي الأمر بوضع كل ما كانت تعمل من أجله موضع الخطر.

لقد استسلمت لرغبتها، للرغبة نافدة الصبر في رؤية مايرسون، حتى إن كان ذلك لمحة خاطفة. ما كانت الأخبار مفرحة لها أبدًا: انقضى يومان منذ اتصالها بالمحقّق باركر، ولم تسمع بعد أي شيء عن أي شخص جديد يجري استجوابه في ما يتصل بمقتل دانييل.

لقد بدأت تتساءل إن كانوا يأخذون كلامها على محمل الجدّ. ليست هذه أول مرة يزعم فيها أحدهم أنه مهتم بمصلحتها اهتمامًا حقيقيًا، أو يتظاهر بأنه مصغ إليها، ثم يصرف النظر عنها في أسرع وقت. من الممكن أن يكون مايرسون قد قال لهم شيئًا عنها، شيئًا يُفقدها اعتبارها. هذا ما جعلها في حاجة إلى رؤيته، إلى رؤية وجهه، إلى رؤية الخوف او التوتر أو الانزعاج ظاهرًا عليه،

وقد كانت تعرف تمام المعرفة أين ينبغي أن توجّه أنظارها: إلى الأعلى، صوب النافذة المطلّة على الحديقة. إنها نافذة غرفة مكتبه التي تنتصب من خلفها طاولة المكتب المتينة المصنوعة من خشب الماهوغاني حيث يكدح مايرسون، رأسه منكبّ على اللابتوب، وسيجارته المشتعلة مستندة إلى طبق السجائر الزجاجي المربَّع، وهو يصوغ جملًا ويبتكر صورًا. يكتب مقصيًا ميريام عن قصّتها نفسها... إهانة أحسّت بأنها تكاد تكون فعلًا من أفعال العنف.

عندما تتخيله ميريام في بيته، جالسًا خلف طاولة مكتبه، نازلًا إلى المطبخ حتى يعد لنفسه وجبة خفيفة، متوقّفًا لحظة -قد يتوقف لحظة- أمام صورة في إطار معلّقة في الصالة، صورة تضمه مع زوجته، شابين نشيطين مبتسمين، فهي لا تختلق هذه التفاصيل اختلاقًا، لا تأتي بها من الهواء. لقد زارت في ما مضى بيت ثيو مايرسون الجميل المبني على الطراز الفيكتوري في شارع نويل رود. لقد سارت فعبرت ردهة المدخل واجتازت الممر المظلم المطلي بلون رمادي فخم. أعجبتها اللوحات المعلّقة على الجدران، والسجادة العجمية الملونة بألوان الجواهر، السجادة المبسوطة على أرضية من الخشب الأصلي الصلب. أعجبتها غرفة الاستقبال المزدحمة جدرانها بأرفف تئن تحت ثقل مجلّدات لامعة. أحست وخزة إشفاق حادّة عندما لاحظت صورة في إطار فضي موضوعة على الطاولة في تلك الغرفة، صورة طفل صغير باسم، داكن الشعر.

كان قد مضى على بداية عمل ميريام في المكتبة ما لا يقل عن ستة أشهر عندما ظهر مايرسون أول مرة سائرًا على ممر المرسى مع كلبه الصغير ذي الشعر الكثيف: كلب مزعج كثير النباح ربطه إلى عمود في الخارج ودخل حتى ينظر إلى الكتب. كان مايرسون يقف مع نيكولاس، مدير ميريام، ويتحدّثان عن الكتب التي تبيع جيدًا، والكتب

التي لا تحقّق مبيعات، وعن المؤلفين الذين يواجهون انتقادات عنيفة على صفحات «لندن ريفيو أوف بوكس» والذين من المحتمل أن يفوزوا بجائزة بوكر. وفي الظلال، خلف الرفوف، تسترق ميريام السمع إليهما، غير مرئية.

لقد قرأت كتبه - قرأها أكثر الناس. حقّق كتابه الأول في أواسط التسعينيات مبيعات متواضعة، لكنه حظي بمراجعات محبّذة. وأما كتابه الثاني فقد كان من أكثر الكتب مبيعًا. وبعد ذلك اختفى. لم يختف من قوائم أفضل الكتب مبيعًا فحسب، بل غاب أيضًا عن المكتبات كلها. وصار اسمه يظهر أحيانًا في بعض المقالات في ملحق يوم الأحد الأدبي بعد أن طغت مأساة شخصية على النجاح الأدبي الذي حقّقه في التسعينيات.

كانت ميريام ترى أن كتاباته لقيت تقديرًا مبالغًا فيه. لكنها اكتشفت أنها، حتى هي، غير محصّنة إزاء وهج الاحتكاك بالمشاهير - غريب كم يكون المرء سريعًا في إعادة تقييم مستوى أعمال واحد من المؤلفين، عندما لا يعود ذلك المؤلف اسمًا مجردًا، لا يعود صورة شخص معجب بنفسه مطبوعة على غلاف كتاب، بل يصير شخصًا حياً متنفسًا له ابتسامة خجلى وكلب تفوح رائحته.

صباح يوم من أيام الأربعاء في أوائل الصيف، لعله كان بعد ستة شهور من زيارته الأولى إلى المكتبة، ظهر مايرسون من جديد، في حين كانت ميريام وحدها في المكتب. ربط كلبه كعادته فوضعت ميريام أمام الكلب وعاء فيه ماء. شكرها مايرسون بكل لطف وسألها إن كانت لديهم نسخ من كتاب إيان رانكين الجديد. تحققت ميريام من الأمر فاكتشفت أن الكتاب لم يصدر بعد. اكتشفت أنه سيصير متوفّرًا في بحر الأسبوع التالي. قالت لمايرسون إنها ستحتفظ بنسخة من أجله، إن أراد. أجابها قائلًا إنه يريد ذلك؛ ثم راحا يتحدّثان. سألته إن كان يعمل على شيء جديد، فقال لها إنه قد بدأ العمل... الحقيقة أنه

يفكّر في تجريب كتابة رواية جريمة. فوجئت ميريام: «حقًا! ما كنت أظن أبدًا أنك ميّال إلى هذا النوع من الكتابة».

مال برأسه إلى هذا الجانب وإلى ذاك، وعلت وجهه ابتسامة ظريفة. قال لها: «الحقيقة... هي أن الأمر ليس هكذا. لكن الظاهر أنني أجد نفسي واقعًا في حالة من الركود». كان هذا صحيحًا لأن أكثر من عشرة أعوام انقضت منذ آخر مرة نشر فيها شيئًا ذا قيمة، «بدأت أفكر في أن من الممكن الآن أن أجرّب شيئًا مختلفًا كل الاختلاف». قال هذا ونقر بإصبعه على صدغه، «حتى أرى إن كنت أستطيع الخروج بشيء جديد».

وفي الأسبوع التالي، عندما وصل كتاب رانكين الجديد في موعده، وضعت ميريام واحدة من نسخه جانبًا. لكن ثيو لم يأت لأخذ نسخته. لم يأت ذلك اليوم، ولم يأت في اليوم الذي تلاه، ولا في اليوم الذي بعده. كان لديها عنوانه -في ما مضى أرسلوا إليه كتبًا عن طريق البريد- وكانت تعرف مكان بيته بالضبط لأنه ليس بعيدًا جدًا عن زورقها: أقل من مسيرة ميل واحد على امتداد القناة. لذا، قررت أن تأخذ الكتاب إليه بنفسها.

خشيت أن يعتبر ثيو ما فعلته تطفلًا. لكنه فتح لها الباب فبدا عليه سرور حقيقي عندما رآها. قال لها: «هذا لطف كبير منك». دعاها إلى الدخول، «كنت متوعّكًا قليلًا». كان مظهره يوحي بذلك: دوائر قاتمة تحت عينيه اللتين كان في بياضهما اصفرار من حول بؤبؤيهما. وجهه محمرّ. كان البيت عابقًا برائحة الدخان. قال لها بصوت متكسّر قليلًا: «هذا الوقت من السنة صعب عليّ». لم يمضِ في الكلام أكثر من ذلك؛ ولم تسأله ميريام المزيد. بحركة غريبة خرقاء، وضعت يدها على ذراعه فأبعدها مبتسمًا، محرَجًا. عندما عرفت ميريام ثيو مايرسون أول مرة أحسّت إزاءه برقّة كبيرة.

شربا الشاي في الخارج، على الشرفة الصغيرة أمام مكتبه؛ وتحدّثا

عن الكتب. كان ذلك في أول الصيف عندما تبدأ المساءات تطاولها، وتفوح رائحة أزهار الويستيريا كثيفة في الهواء. موسيقى خافتة آتية من راديو في مكان قريب. استندت ميريام إلى ظهر مقعدها وأغمضت عينيها. إحساس غامر بالرضا، بالتميّز. أن تكون الآن هنا، في هذه الحديقة الجوهرة في لندن، في وسط المدينة تمامًا، متحدّثة في موضوعات كثيرة مع هذا الكاتب المرموق الجالس إلى جوارها! لمحت احتمالًا ينفتح أمامها، احتمال حياة مختلفة تمام الاختلاف عن حياتها الحاليّة، حياة أغنى كثيرًا (بالمعنى الثقافي) وأكثر امتلاء بالناس. لا يعني هذا أنها تخيّلت شيئًا رومانسيًا... ليس مع ثيو! ما كانت غبية. لقد رأت صور زوجته وأدركت أن لا مجال للمقارنة بينهما. لكنه جالس معها الآن يعاملها معاملة الند للند. يعاملها معاملة صديق. عندما انصرفت ذلك المساء، صافح ثيو يدها بحرارة وقال لها مع ابتسامة: «عرّجي عليّ في أي وقت تشائين». كم كانت حمقاء عندما صدّقت كلامه!

كان لديها عرض تقترحه عندما أتت لرؤيته مرة أخرى. كان ذلك شيئًا ظنّت أنه قد يقرّب بينهما. إنه كتاب، كتابها الذي يروي قصتها... مذكّرات تعمل عليها منذ سنين، لكنها لم تجرؤ أبدًا على جعل أحد يراها، لأنها لا تعرف أحدًا تستطيع أن تثق به ثقة كافية لتركه يرى حقيقتها الخفية... إلى أن التقت مايرسون، الكاتب الحقيقي، الرجل الذي يعيش بدوره مأساة شخصية. لقد اختارته.

... كم أساءت الاختيار!

كانت موقنة من أنها تعهد بقصتها إلى رجل مستقيم، إلى رجل من طينة طيبة. لكنها، في حقيقة الأمر، كانت تعرّي روحها أمام دجّال، مستغِل.

لعل المرء يظن أنها صارت الآن قادرة على تمييز من هم كذلك!

كان جيريمي اسم أول مستغِل مفترس التقته ميريام. وكان اسمه المختصر جيز. في عصر يوم جمعة خانق الحرّ في شهر حزيران، صعدت ميريام وصديقتها لورين إلى سيارة جيز الفولفو ذات اللون الأزرق الباهت. كانتا واقفتين في الطريق تستوقفان السيارات العابرة - كان الناس يفعلون هذا في الثمانينيات، حتى في هيرتفوردشاير. لقد تخلّفتا عن حضور الدرسين الأخيرين في المدرسة بغية الذهاب إلى المدينة والتسكّع هناك، وتدخين السجائر، وتجريب ملابس لا تستطيعان شراءها.

توقفت السيارة فجلست لورين في المقعد الأمامي لأنها... لماذا لا تفعل هذا؟ هي أكثرهما رشاقة وجمالًا (إن أردنا الصدق، ما كانت أي منهما جميلة حقًا). لورين هي التي توقّف جيز من أجلها. لذا، جلست في المقعد الأمامي. جلست ميريام في المقعد الخلفي، خلف لورين. ألقى عليهما سائق السيارة التحيّة، وقال لهما اسمه، وسألهما عن اسميهما لكنه لم ينظر إلى ميريام؛ لم ينظر إليها أبدًا.

على أرضية السيارة، كانت علب بيرة وزجاجات ويسكي فارغة تتدحرج عند قدمَيْ ميريام. كانت في السيارة رائحة غريبة لم تستطع إخفاءها رائحة سيجارتي جيز ولورين... رائحة شيء فيه حموضة مثل حليب فاسد. ودّت ميريام أن تخرج من السيارة لحظة صارت جالسة فيها. كانت تدرك أن عليهما ألا تفعلا هذا. كانت تدرك أنها فكرة غير حسنة. فتحت فمها كي تقول شيئًا، لكن السيارة انطلقت بهما سريعًا. تساءلت ميريام عما يمكن أن يحدث إن فتحت باب السيارة. هل يخفّف السرعة؟ سوف يعتبرها مجنونة. هذا هو الاحتمال الأرجح. فتحت النافذة وتنفست الهواء الصيفي الحارّ.

انبعثت أغنية من راديو السيارة، أغنية بطيئة النغمات. مدّ جيريمي يده لكي يغير المحطة، لكن لورين وضعت يدها على ذراعه. قالت له: «لا تغيرها. أحب هذه الأغنية. ألا تعجبك؟»

بدأت تغني:

«لست آسفًا على الوقت الذي أمضيته معها
فما أخذته منها لن أعيده إليها»

لكن جيز لم يأخذهما إلى المدينة. عاد بهما إلى بيته، «للتدخين».

قالت ميريام: «لدينا سجائر هنا»، فضحكت لورين وضحك جيز.

«ليس ذلك النوع من التدخين، يا ميريام».

كان جيز يعيش في بيت مزرعة زريّ بعيد عن المدينة بضعة أميال. وكان البيت يقع في آخر طريق ضيّقة طويلة متعرجة غير مفضية إلى أي مكان. يضيق إسفلت الطريق، ثم يضيق إلى أن يتلاشى كله وتمضي السيارة مترجرجة عبر طريق ترابيّة إلى أن تبلغ بوابة البيت. تقلّصت أمعاء ميريام وظنت أنها سوف تتغوط في ملابسها. نزل جيز من السيارة لكي يفتح البوابة.

قالت ميريام للورين بصوت مرتعش، ملحّ: «أظن أن علينا أن نذهب. هذا المكان غريب. وهو شخص غريب. لا يعجبني هذا».

قالت لورين: «لا تكوني جبانة هكذا».

عاد جيز إلى السيارة وقادها عبر الممر إلى أن أوقفها إلى جوار سيارة أخرى، سيارة سيتروين قديمة بيضاء اللون. قفز قلب ميريام عندما رأت تلك السيارة. كانت لدى أمها سيارة مثلها. إنها واحدة من تلك السيارات التي تقودها نساء في أواسط العمر. لعل أمه هنا! قالت هذا في نفسها قبل أن تنتبه إلى أن إطارات السيارة تالفة تمامًا، إلّا أن أسفل السيارة يكاد يكون ملتصقًا بالأرض. ارتعشت على الرغم من حرارة الطقس.

نزل جيز من السيارة أولًا، ثم تبعته لورين. تردّدت ميريام لحظة. لعل من الأفضل أن تبقى في السيارة! توقّفت لورين ونظرت إليها مضيّقة عينيها. قالت لها، *هيا!* ثم أشارت إليها بأن تلحق بهما.

نزلت ميريام من السيارة. ارتجفت ساقاها مع اقترابها من البيت.

عندما انتقلت من ضياء الشمس الساطع إلى الظل، رأت أن البيت ليس زريًا فحسب، بل متداعٍ أيضًا. كانت نوافذ غرف الطابق العلوي مكسورة، ونوافذ الطابق السّفلي مغلقة بألواح خشبية. قالت ميريام: «أنت لا تعيش هنا!». كان في صوتها انزعاج واضح. التفت جيز ونظر إليها أوّل مرة. كان وجهه خاليًا من أي تعبير. لم يقل شيئًا. تابع سيره ممسكًا بذراع لورين. التفتت لورين ونظرت إلى ميريام من فوق كتفها فرأت ميريام أنها مذعورة أيضًا.

دخلوا البيت. كان قذرًا: زجاجات وأكياس نايلون وعلب سجائر متناثرة على الأرض. كانت في البيت رائحة غائط، رائحة قوية. ليست رائحة فضلات حيوانات فقط. غطّت ميريام أنفها وفمها بيدها. ودّت أن تعود أدراجها، أن تجري إلى الخارج، لكن شيئًا منعها من فعل ذلك، شيئًا جعلها تتابع حركتها إلى الأمام، قدم تلو الأخرى، سائرة خلف لورين وجيز في الممر. تجاوزوا سلّمًا ودخلوا ما ينبغي أن يكون غرفة معيشة لأن فيه أريكة تالفة عند الجدار.

ظنّت ميريام أنها، إن تصرفت تصرفًا طبيعيًا، فسوف يكون كل شيء طبيعيًا. ظنت أنها قادرة على إرغامه على أن يكون طبيعيًا. إن كان هذا كله موحيًا بما يحدث في أفلام الرعب، فليس معنى ذلك أنه سيكون مثل فيلم من أفلام الرعب، على العكس تمامًا. في أفلام الرعب، لا تتوقع الفتيات أبدًا ما سوف يحدث لهن.

كانتا غبيتين جدًا.

كانتا غبيتين جدًا.

ذلك الذي أفلت بفعلته

تستيقظ.

مفاصلها متيبسة، وألم في وركها، نصف عمياء، غير قادرة على التنفس. غير قادرة على التنفس! تنتفض، وترفع جسدها إلى أن تصير في وضعية الجلوس. قلبها صاخب في صدرها. دوار في رأسها لفرط توترها. تستنشق نفسًا عميقًا من أنفها. هي قادرة على التنفس، لكن في فمها شيئًا، شيئًا طريًا، رطبًا. تحاول أن تبصق ذلك الشيء. يداها خلف ظهرها. تحاول تخلصيهما. تتابع المحاولة على الرغم من الألم. تنجح آخر الأمر في تحرير يدها اليمنى. تُخرج الخرقة من فمها. ترى أنها قميص صيفي خفيف ذو لون أزرق باهت.

في غرفة أخرى غير بعيدة كثيرًا، تسمع صوت بكاء.

(لا تستطيع التفكير في ذلك الآن).

تنهض واقفة على قدميها. عينها اليمنى لا تنفتح. بأظافرها، تنتزع الفتاة برفق دمًا متخثرًا عالقًا بأهدابها. ينجح الأمر؛ ينجح قليلًا. تنفتح عينها قليلًا. صارت الآن قادرة على الرؤية.

الباب مقفل، لكن هناك نافذة. الغرفة في الطابق السفلي. النافذة صغيرة؛ هذا صحيح. وهي ليست نحيلة. لم يحلّ الظلام تمامًا. عند الأفق، هناك، ناحية الغرب، تظهر أطياف، ثم تتبدّد، ثم تتشكّل من جديد. تمتلئ السماء طيورًا، ثم تخلو منها، ثم تمتلئ. هذا جميل. إذا بقيت هنا -هذا ما تقوله الفتاة في نفسها- هنا تمامًا، في هذه البقعة، وإذا ظلّت تنظر، فلن يحلَّ الظلام أبدًا، وهو لن يأتي لكي ينال منها.

يعلو صوت النحيب فتبتعد الفتاة عن النافذة. تصير غير قادرة على رؤية الطيور.

الباب مقفل، والنافذة مقفلة. لكن زجاجها من طبقة واحدة. زجاج قابل للكسر. قابل للكسر، لكن كسره سيحدث صوتًا - هل يكون لديها وقت كافٍ للخروج من النافذة قبل أن يأتي؟ هل ستكون قادرة على جعل جسدها الممتلئ يمرّ عبر تلك الفتحة الصغيرة؟ صديقتها تستطيع المرور من هذه النافذة. صديقتها نحيلة. ظلّت مواظبة على تدريبات الباليه حتى بلغت الثالثة عشرة. ينثني جسدها بطرق لا تستطيعها الفتاة.

(لا تستطيع الآن أن تفكر في صديقتها، ولا في كيفيّة انثناء جسدها، أو في كم يمكن أن ينثني قبل أن ينكسر).

يتوقّف صوت البكاء. يبدأ من جديد. تستطيع سماع صوت يقول، أرجوك، أرجوك. الأمر المضحك هو... (ليس مضحكًا، ليس مضحكًا أبدًا) هو أن الصوت ليس صوت صديقتها، إنه صوته. هو من يرجوها!

- 13 -

تستيقظ لورا فتجد نفسها على الأريكة، مرتدية ملابسها كلها. فمها جاف. تنقلب فتسقط على الأرض. تتناول هاتفها. لديها مكالمات فائتة: واحدة من إيرين، ومكالمتان من رقمين مختلفين لا تعرفهما. مكالمة من أبيها. فتحت البريد الصوتي حتى تستمع إلى رسالته.

«لورا...»، قالها صوت غير صوت والدها، «أنا دييدره. أكلمك من هاتف فيليب. مم مم مم...». من بين أمور مزعجة كثيرة لدى دييدره، أمور تجعل لورا تشدّ على أسنانها غيظًا، تلك العادة في تزيين كلامها بأصوات همهمة غريبة كأنها توشك على الغناء ولا ينقصها شيء غير أن تعثر على النغمة المناسبة... «تلقينا رسالتك. المسألة هي، يا لورا... المسألة هي أننا اتفقنا، اتفقنا في ما مضى، على أننا لن نعطيك مالًا كلما أوقعت نفسك في مشكلة جديدة. عليك أن تتعلمي ترتيب أمورك بنفسك. مم مم مم. سوف تتزوج ابنتي بيكي هذا الصيف. أنت تعرفين هذا. لذا، فإن لدينا متطلبات كبيرة تثقل على ميزانيتنا. لا بد لنا من وضع أولويّات. مم مم مم. إذًا، لا بأس، مع السلامة، يا لورا».

تساءلت لورا إن كان أبوها قد سمع رسالتها. ألا يمكن أن تكون دييدره قد استمعت قبله إلى ما في هاتفه من رسائل فحذفت منها ما رأته غير مهمّ؟ تتمنّى أن يكون الأمر هكذا لأن هذا الاحتمال أقلّ إيلامًا لها. أقلّ إيلامًا لها أن يكون والدها لا يعلم أصلًا بأنها واقعة في مأزق. تستطيع الاتصال به. تستطيع أن تتأكد من الأمر. إلا أنها ما كانت واثقة كل الثقة من أنها قادرة على احتمال معرفة الحقيقة.

تصفحت موقع بي بي سي الإخباري واجفة القلب. بحثت عن

قصص عن مقتل دانييل. لكن أملها خاب. لا أنباء جديدة منذ يوم أمس. تسير تحرّيات الشرطة في عدد من الخطوط المختلفة. يناشدون كل من يعرف شيئًا أن يأتي كي يدلي بشهادته. كم يمكن أن يكون عدد هؤلاء؟ كم شخصًا رآها ذلك الصباح تسير على ممر المرسى ودم على شفتيها؟

بدأت تكتب رسالة نصية إلى إيرين حتى تلهي ذهنها عن تلك الأفكار.

آسفة جدًا جدًا فقد واجهت بضع مشكلات ☹
أنا آتية إليك الآن حضّري قائمة التسوق. أراك بعد قليل ☺

في ما مضى، اعتادت أن تطلب من إيرين إرسال قائمة التسوق عبر الهاتف حتى تشتري ما فيها أثناء ذهابها إليها. وأما الآن، فلا بد لها من الذهاب إليها أولًا حتى تأخذ المال الذي ستشتري به.

دقت لورا الباب ففتحته امرأة بدا شكلها مألوفًا، لكن بطريقة غريبة.

قالت لورا: «أوه! هل... هل السيدة بارنز هنا؟ أنا لورا، وأنا...».

لم تكمل جملتها لأن المرأة استدارت مبتعدة وهي تقول: «نعم، نعم، إنها هنا. ادخلي». قالت هذا بنبرة توحي بقدر من الانزعاج. سمعت صوت المرأة يقول: «الظاهر أن معاونتك الصغيرة قد أتت آخر الأمر».

مدّت لورا رأسها من باب غرفة المعيشة. قالت: «هل أنت بخير، يا شقيّة؟». ابتسمت لإيرين ابتسامة كبيرة. تضحك إيرين عادة كلما قالت لورا هذا، لكنها لم تضحك هذه المرة. بدت في قلق شديد.

رفعت يديها المعوجّتين في الهواء، وقالت: «لورا! قلقت عليك كثيرًا. أين كنت يا لورا؟».

«آه، أنا آسفة، يا صديقتي». مضت لورا إلى آخر الغرفة حتى تقبّل إيرين على وجنتها، «لقد كان أسبوعًا... أسبوعًا كأنه، لن تصدقي كيف كان ذلك الأسبوع. سأحكي لك كل شيء عنه. سأحكي لك. لكن، كيف حالك أنت؟ أرى أنك بخير، ألست بخير؟».

قالت المرأة الأخرى: «بما أن صديقتك صارت هنا...». كان صوتها مبتورًا، قاطعًا، «أظن أنني ذاهبة. هل تريدين مني شيئًا، يا إيرين؟»، سألتها هذا وقد مالت برأسها جانبًا. علّقت من كتفها حقيبة يدّ اعتقدت لورا أنها باهظة الثمن، ثم حملت كيسَيّ تسوّق كانا عند الباب. دفعت إلى لورا بقطعة ورق. نظرت إليها نظرة فيها قدر من الازدراء. قالت لها: «هذه قائمتها. أظنك ستهتمين بأمرها».

قالت لورا: «نعم، سأهتم بها»، ثم ألقت نظرة سريعة في اتجاه إيرين التي كشرت قليلًا.

قالت المرأة: «لا حاجة إلى أن يرافقني أحد حتى الباب». خرجت من الغرفة مسرعة وأغلقت بابها من خلفها. وبعد لحظة، سمعت لورا صوت انطباق باب البيت.

سألتها: «من هذه المرأة؟».

رفعت إيرين حاجبها وقالت: «إنها كارلا. كارلا مايرسون. شقيقة صديقتي أنجيلا».

«لطيفة، أليس كذلك؟». قالت لورا هذا وغمزت لإيرين بعينها.

أطلقت إيرين صوتًا كالنخير. قالت: «أشعر في حضور كارلا، بطريقة من الطرق، أنها تنظر إليّ من فوق. ليس بمعنى أنها امرأة طويلة القامة! هي تكلّمني كأنني غبيّة. كأنني عجوز غبيّة. إنها تثير أعصابي». صمتت لحظة وهزّت رأسها بحركة بطيئة، «ولكن، لا ينبغي أن أكون غير لطيفة. لعلها ليست الشخص المفضّل عندي في هذا العالم، لكنها عاشت زمنًا صعبًا جدًا. توفيت أختها، ثم ابن أختها...».

أدركت لورا الأمر فجأة فقالت: «أوه، نعم!». هذا ما جعلها ترى شكل تلك المرأة مألوفًا... إن فيها شيئًا يشبهه. شيء من حول العينين، وشكل الفم، وكيف ترفع ذقنها قليلًا عندما تتكلم، «أوه، يا ربي! ما كنت أعرف هذا. إذًا، هي خالته!».

انعقد حاجبا إيرين. قالت: «هذا صحيح. أرى الآن أنك سمعت بما جرى لدانييل».

أومأت لورا برأسها. قالت لها: «صحيح. صحيح. يمكنك أن تقولي هذا».

«تحدّثت الأنباء كلها عن الأمر، أليس كذلك؟ وهم لم يمسكوا بالشخص الذي فعل ذلك...».

قالت لورا: «أظن أن الوقت لا يزال مبكرًا». انزلقت عيناها عن إيرين. أنقذها وجود القائمة التي ناولتها المرأة إياها. نظرت إليها، ثم عبس وجهها. قالت: «هل هذه قائمتك؟ هل كتبت هذا بنفسك؟».

أومأت إيرين برأسها: «أوه، نعم. ما كان لديها صبر يجعلها تنتظرني ريثما أفكر في ما يلزمني. ذهبت إلى المطبخ ونظرت في خزائنه، ثم استنتجت بنفسها ما ينبغي شراؤه».

فتحت لورا عينيها على اتساعهما، «موسلي!؟ أنت لا تحبين الموسلي. تفضلين الكورن فليكس المقرمش مع المكسرات».

قالت إيرين: «قلت لها هذا، لكنها لم تصغ إلي!».

«أرز برّي؟ ما هذا... يا إلهي!». مزّقت لورا القائمة، وألقت بقصاصات الورق في الهواء كأنها تنثر قصاصات ملوّنة، «كل ما عليك فعله عندما تتذكّرين شيئًا مما يلزمك هو أن تسجلي ملاحظة على هاتفك لكي...».

«أوه، لا أستطيع الكتابة عن هذه الأشياء. المفاتيح صغيرة جدًا، وأنا لا أستطيع رؤية ما يحدث حتى عندما أضع نظارتي. وفي أحيان كثيرة، يغيّر هذا الشيء اللعين كلماتك من غير أن يستأذنك في ذلك. ينتهي الأمر بأن تكتبي كلامًا لا معنى له».

قالت لورا معترضة: «لا، لا. لست مضطرة إلى كتابة أي شيء. ما أفعله -انظري- هو أنني أسجّل ما أريده. إن لديّ ذاكرة ضعيفة جدًا. لذا، كلما تذكّرت شيئًا ينبغي فعله، أو شراؤه، أو... مهما يكن، فإنني

أستخدم التسجيل الصوتي. لذا، لست مضطرة إلى الكتابة بأصابعك. ما عليك إلّا أن تقولي ما يلزمك».

هزت إيرين رأسها وقالت: «أوه، لا، لا أظن هذا. ليست لدي أية فكرة عن طريقة استخدام هذا الشيء. بل إنني لا أعرف إن كان موجودًا في هاتفي».

«بل تستطيعين. تستطيعين، بالطبع!». تناولت لورا هاتف إيرين ومرّت بإصبعها على الشاشة. عثرت على تطبيق التسجيل الصوتي. نقرت عليه. قالت بصوت مرتفع: «كورن فليكس مقرمش مع المكسرات، لا موسلي مقززة». غمزت لإيرين بعينها، «ثم، انظري هنا! تستطيعين الاستماع إلى التسجيل».

قال الهاتف: «*كورن فليكس مقرمش مع المكسرات*، لا موسلي مقززة».

ضحكت إيرين وقالت: «يبدو هذا سهلًا. دعيني أرى مرة أخرى».

بعد كتابتهما قائمة تسوّق جديدة، قالت إيرين للورا أن تأخذ من محفظتها عشرين جنيهًا لكي تدفع ثمن المشتريات. تعطيها إيرين خمسة جنيهات كلما أحضرت إليها مشترياتها. كان هذا سخاءً حقيقيًا، لأن الأمر لا يستغرق، في الأحوال العادية، أكثر من خمس عشرة دقيقة من وقتها. لكن لورا أخذت هذه المرة ورقتين من فئة عشرين جنيهًا. دفعت ثمن المشتريات أربعة عشر جنيهًا، ووضعت الباقي في جيبها، ثم أضاعت فاتورة المشتريات في طريق عودتها إلى البيت.

بينما كانت تضع المواد التي اشترتها في أماكنها، أحاطت إيرين علمًا بما كان يجري - كيف أضاعت مفتاح بيتها فاضطرت إلى كسر النافذة حتى تدخل الشقة؛ وكيف جرحت ذراعها؛ وكيف فقدت عملها بعد ذلك كله. لم تذكر شيئًا عن الجزء المتعلّق بدانييل. ليست إيرين

معنيّة بأن تسمع كيف ضاجعته، وكيف نشب خلاف بينهما، وكيف اعتقلتها الشرطة.

قالت لورا: «أنا آسفة حقًا لأنني لم أتصل قبل الآن». فرغت من وضع الأشياء في أماكنها، وأعدت لكل منهما فنجان شاي. ووضعت قطع بسكويت بالشوكولاته في طبق. «ترين كيف كنت واقعة في دوامة حقيقية». كانت إيرين جالسة على كنبتها المفضلة؛ وكانت لورا متكئة على مشع التدفئة تحت النافذة وقد مدت ساقيها أمامها. «لم أتعمّد أن أخذلك هكذا».

هزت إيرين رأسها. «أوه، يا لورا. أنت لم تخذليني. لكني قلقت عليك كثيرًا. إذا حدث شيء من هذا القبيل مرة أخرى، فعليك أن تعلميني به. قد أكون قادرة على مساعدتك».

فكّرت لورا في المال الذي أخذته، وكرهت نفسها. سوف تعيد المال. عليها أن تعيده إلى محفظة إيرين، وأن تطلب منها إقراضها مالًا، أن تطلب ذلك مباشرة مثلما يفعل أي شخص طبيعي. تطلب منها المساعدة، تمامًا مثلما قالت إيرين. لكن الوقت قد فات. فات الوقت الآن. كانت حقيبة يد إيرين إلى جوارها، على الكنبة. وهي غير قادرة على إعادة المال الآن. لا سبيل إلى فعل ذلك من غير أن تنتبه إيرين إليه. وعلى أية حال، إن كانت هناك لحظة مناسبة لطلب المساعدة، فقد انقضت تلك اللحظة، انقضت قبل ثوان. كان الوقت مناسبًا عندما عرضت إيرين ذلك.

ظلت عندها بعض الوقت. بقيت وقتًا كافيًا لفنجان شاي آخر وقطعتين إضافيتين من البسكويت. لكن شهيتها كانت شبه معدومة لأن قلّة أمانتها كانت تتفاعل داخلها فتفسد طعم كل شيء.

استأذنت بالانصراف، ثم مضت.

وفي طريق خروجها، لاحظت أن باب البيت رقم ثلاثة -باب بيت أنجيلا ساذرلاند المجاور لبيت صديقتها- كان مفتوحًا قليلًا. دفعت

الباب برفق شديد. نظرت داخل البيت فرأت معطف كارلا ساذرلاند ملقى على درابزين السلم. رأت حقيبة يدها باهظة الثمن معلقة إلى عمود السلّم. ورأت الحقيبتين اللتين كانتا معها، حقيبة التسوّق والحقيبة القماشيّة، ملقاتين على الأرض. كانتا ملقاتين هناك بحيث يستطيع المرء تناولهما من الباب. أولئك الأثرياء! أحيانًا، يكونون كأنهم يدعون المرء إلى سرقتهم.

بعد وصولها إلى بيتها، أفرغت محتويات الحقيبة القماشية على أرض غرفة المعيشة. تسارعت ضربات قلبها عندما تدحرجت من الحقيبة علبتان جلديتان صغيرتان ظهرتا بعد الوشاح العتيق البالي، وبعد سترة من صنع إيف سان لوران، سترة قديمة لكنها لا تزال لائقة. التقطت العلبة الأولى، العلبة القرمزية، ثم فتحتها: خاتم ذهبي عليه ما بدا لها أنه حجر عقيق أحمر كبير الحجم. وفي العلبة الثانية التي كانت أكبر قليلًا من العلبة الجلديّة الأولى، وجدت واحدة من ميداليات سان كريستوفر، ذهبية أيضًا. كانت منقوشة على ظهرها ثلاثة حروف BTM وتحتها تاريخ 24 آذار 2000. لعلّها... هل هي هدية لطفل يوم تعميده؟ ربما! ليست هدية لدانييل لأن هذه الأحرف لا تطابق اسمه. لا بد أنها هدية لطفل آخر. أغلقت العلبة. من المؤسف أن هذه الأحرف منقوشة عليها -قالت هذا في نفسها- فهي تجعل بيعها أكثر صعوبة. وأما الخاتم، إن كان حقيقيًا، فلا بد أن قيمته غير قليلة أبدًا.

ما أشدّ وضاعتها!

ذهبت إلى المطبخ. أفرغت جيوبها، وأحصت كل ما كان لديها من مال: تسعة وثلاثون جنيهًا، ونصف جنيه. ستة وعشرون جنيهًا من هذا المال سرقتها من صديقتها إيرين.

يا لها من كاذبة، سارقة، وضيعة!

استمعت لورا إلى الرسائل الصوتية المسجلة في هاتفها. وأصغت

إلى صوتها يذكرها بأن تتصل بالمجلس من أجل إعانة الإسكان، وبأن تتصل (من جديد) بالأشخاص المسؤولين عن أعمال الصيانة في المبنى من أجل إصلاح سخّان الماء، وبأن تتصل بالممرضة في عيادة الطبيب حتى تطلب منها تجديد الوصفة الطبية. استمعت إلى صوتها يذكّرها أيضًا بأن عليها أن تشتري حليبًا وجبنًا وخبزًا... وطماطم أيضًا...

كفّت عن الإصغاء فقد أرهقها التفكير في هذه الأشياء كلّها، الأشياء التي عليها أن تفعلها، وفي العقبات التي تستطيع منذ الآن رؤيتها تعترض سبيلها. تصفّحت سريعًا الرسائل الواردة في هاتفها، رسائل من فتيانٍ كانت تدردش معهم، آفاق كانت تتّبعها لكنها ما عادت الآن مهتمة بها، وما عادت لديها طاقة من أجلها. استمعت إلى رسائل البريد الصوتي. واحدة منها رسالة باردة من شركة التأمين، ورسالة أخرى من طبيبتها النفسية.

«لقد تخلّفت عن موعدين اثنين، يا لورا. لذا، أخشى أن نكون مضطرين إلى حذفك من قائمة من نقدّم إليهم خدماتنا إذا تخلفت مرّة ثالثة. هل تفهمين ما أقوله لك؟ لا أريد فعل ذلك لأنني أظننا حقّقنا تقدّمًا طيبًا وتوصلنا إلى إبقائك في حالة مستقرة. لا نريد أن يذهب ذلك العمل كله هباء، أليس كذلك؟ من هنا، أنتظر رؤيتك بعد ظهر يوم الاثنين، الساعة الثالثة. إذا كنت غير قادرة على المجيء، فأرجو أن تتّصلي بي اليوم لكي نحدّد موعدًا آخر».

انزلقت لورا قليلًا في جلستها على كرسيها. دلّكت فروة رأسها بلطف مستخدمة أطراف أصابعها، وأغمضت عينيها. ذرفت دموعًا تدحرجت بين أهدابها وانسابت على وجنتيها. توقّف، توقّف، توقّف، قالت هذا لنفسها بصوت خافت... *فقط ليته يتوقّف!*

لقد أحيلت إلى تلك الطبيبة النفسية بعد حادثة الطعن بالشوكة. كانت الطبيبة امرأة لطيفة، صغيرة الوجه، كبيرة العينين. كان شكلها

يوحي للورا بمخلوق يعيش في الغابات. قالت لها إن عليها أن تضع حدًا لردّات فعلها العنيفة. «الظاهر أنك تمضين حياتك كلها كمن يحاول إطفاء الحرائق. تواصلين الاندفاع من أزمة إلى أزمة. ما علينا فعله الآن هو محاولة العثور على طريقة لكسر هذا الجنون المتكرّر لردود الأفعال. علينا رؤية إن كنا قادرين على ابتكار استراتيجية من أجل...».

الأطباء النفسيون ماهرون دائمًا في ابتكار الاستراتيجيات: استراتيجيات ترمي إلى جعلها تقلع عن اندفاعاتها ونوبات غضبها، وفقدانها السيطرة على نفسها. استراتيجيات ترمي إلى جعلها تتوقّف وتفكّر وتحميها من الإقدام على تصرفات خاطئة. *أتعرفين مشكلتك، يا لورا؟ أنت تقدمين على خيارات سيئة.*

لا بأس! هذا ممكن! لكن تلك ليست أكثر من طريقة واحدة من طرق النظر إلى الأمر نفسه. قد يكون ممكنًا النظر إليه بطريقة أخرى والقول، أتعرفين مشكلتك، يا لورا؟ لقد صدمتك سيارة عندما كنت في العاشرة، فارتطم رأسك بالإسفلت، وعانيت كسرًا في الجمجمة، وكسرًا في عظم الترقوة، وكسرًا مضاعفًا في عظم الساق، ورضًّا في الدماغ، ثم أمضيت اثني عشر يومًا في غيبوبة تلتها ثلاثة شهور في المستشفى. خضعت لعدّة عمليات جراحية مؤلمة؛ وكان عليك أن تتعلّمي الكلام من جديد. أوه، وفوق هذا كلّه، علمت عندما كنت لا تزالين راقدة على سرير المستشفى أن من أحببته أكثر من أي شخص في العالم قد خذلك، الشخص الذي كان منتظرًا منه أن يحبك، وأن يحميك. أيكون عجيبًا بعد هذا أن تجدي أية إساءة مؤذية جدًا؟ أن تكوني غاضبة؟

ذلك الذي أفلت بفعلته

حيث ينبغي لابتسامتها أن تكون، ظهر سؤال: إذًا، أين نحن ذاهبون؟ لا وجود الآن لفراغ حيث ينبغي لابتسامتها أن تكون لأنها الآن مبتسمة، ولأنها ما عادت غاضبة. يفكّر في الأمر، وكيف سيكون. يتمنّى لو أن صديقتها ما كانت هناك، في المقعد الخلفي. لكن، إذا امتنع عن النظر إليها، وإذا امتنع عن التفكير فيها، فقد يسير كل شيء على ما يرام.

لا يعجبه كيف تنظر صديقتها إليه. تنظر إليه على نحو يذكّره بأمه التي ينبغي أن يكون قد نسيَ كل شيء عنها، لكنه لم ينس أبدًا. كانت قبيحة مثلها؛ عضّها كلب عندما كانت فتاة، وظلت تتحدّث عن تلك الحادثة دائمًا. ندبة على فمها، وشفتها ملتوية كأنها تكشّر عن أنيابها... هذا ما كانت تفعله عادة.

كدمات لحقت بها من الداخل ومن الخارج؛ تصرخ عليه دائمًا، أو على أبيه؛ تريده أن يكون بائسًا، مثلها تمامًا؛ ولا تطيق أبدًا أن تراه ضاحكًا، أو لاهيًا، أو سعيدًا.

انظر الآن! ها هو يفكر في أمه من جديد. لماذا تكون دائمًا في ذهنه؟ إنه ذنب تلك الفتاة الأخرى، الفتاة القبيحة الجالسة في المقعد الخلفي. هي التي جعلته يتذكّر أمه. يفكّر فيها كلما فعل أشياء، مهما تكن تلك الأشياء – قيادة السيارة، محاولة النوم، متابعة التلفزيون، عندما يكون مع فتيات. وأسوأ ما في الأمر هو أنه يجعله يشعر كأنه مفرغ من داخله، كأنه ليس فيه دم كافٍ لملء جسده. يجعله هذا غير قادر على فعل شيء. يجعله هذا غير قادر على رؤية شيء، عدا اللون الأحمر.

- 14 -

كان قلق إيرين على لورا عظيمًا. وقفت في مطبخها تسخّن الفاصولياء في مقلاة كي تسكبها على التوست (لو كانت كارلا هنا لما وافقتها على هذا). تفكّر في الاتصال بها لكي تتأكد من أنها بخير. قالت لها إنها بخير («كالذهب، تعرفين أنني بخير»)؛ لكنها مشتتة الذهن، بدت قلقة. بالطبع، فقد خسرت عملها ولا بد لها أن تكون قلقة. ألا يقلق من يخسر عمله؟ لكن الأمر بدا لها أكثر من ذلك. اليوم، بدت لورا غير مرتاحة عندها، غير مرتاحة بطريقة لم تلحظها إيرين من قبل.

لا يعني هذا أنها عرفتها منذ فترة طويلة. شهران فقط منذ أن دخلت كل منهما حياة الأخرى. مع هذا، سرعان ما صارت إيرين مهتمة بأمر الفتاة. كان فيها شيء ضعيف جدًا، شيء مكشوف معرّض للخطر، شيء جعل إيرين تخاف عليها. بدت لها هشّة أمام أسوأ ما يمكن أن يقدّمه العالم إليها. وقد صارت إيرين معتمدة على هذه الشابة الهشّة، فقد وجدت نفسها وحيدة من غير أنجيلا. بطبيعة الحال، كانت تدرك وجود خطر في أن تسمح لنفسها برؤية لورا، على نحو ما، بديلًا عن أنجيلا.

كانتا متشابهتين، كلٌّ بطريقتها: كلتاهما لطيفة، طريفة، ضعيفة ضعفًا واضحًا. لكن أفضل ما في أنجيلا ولورا -من وجهة نظر إيرين- هو أنهما لا تنطلقان من افتراضات مسبقة. لم تفترض لورا أن إيرين غير قادرة على تعلم كيف تستخدم تطبيقًا جديدًا على هاتفها. لم تفترض أنجيلا أن إيرين لن تكون مهتمة بكلمات سالي روني. لم تفترض أية واحدة منهن أن إيرين لن تضحك عند سماع نكتة بذيئة (ستضحك إن

كانت النكتة مضحكة). لم تفترض أية واحدة منهن أنها عاجزة جسديًا، أو ضيّقة الأفق، أو غير مهتمة بما يجري في العالم. لم تر أن أية واحدة منهن شاردة الذهن، أو عجوزًا مخبولة، مثلما تراها كارلا.

كانت إيرين في الثمانين من عمرها، لكنّها لا تحسّ نفسها في الثمانين. ليس هذا لأنها نشطة أنيقة المظهر (بصرف النظر عن التواء كاحلها)، بل لأن إحساسها ببلوغها الثمانين كان أمرًا مستحيلًا. لا يحس أحد أنه بلغ الثمانين. عندما تفكّر إيرين في هذا الأمر، ترى أنها تحسّ بنفسها في الخامسة والثلاثين. أكثر قليلًا، لا بأس... ربما في الأربعين! أمر طيّب أن تحسّ نفسها في تلك السن. ففي تلك السن، تعرف من أنت. أنت لا تعود متقلبًا أو غير واثق، لكن الزمن لم يطل بك بعد بما يكفي لأن تقسو، لأن تفقد مرونتك.

الحقيقة هي أنك ترى نفسك، تحس نفسك في داخلك، بطريقة معينة. ومع أن الناس الذين عرفتهم طيلة حياتك يظلّون، على الأرجح، ينظرون إليك بالطريقة نفسها، فإن عدد الأشخاص الجدد القادرين على رؤيتك ذلك الشخص نفسه الذي كنته، ذلك الشخص الذي في داخلك، بدلًا من اعتبارك جملة من مظاهر الضعف التي تأتي مع التقدّم في السن، يظل عددًا محدودًا.

ما عاد في حياة إيرين الآن أشخاص كثيرون ممن عرفوها طيلة عمرها. فالأصدقاء كلهم، تقريبًا، أصدقاؤها وأصدقاء ويليام، انتقلوا من المدينة حتى يكونوا أقرب إلى أبنائهم وبناتهم وأحفادهم؛ انتقلوا منذ زمن بعيد. في ذلك الوقت، ما كان هذا مصدر قلق كبير بالنسبة إلى إيرين لأنه ما كان ممكنًا أبدًا أن تشعر بأي قدر من الوحدة طالما ظل ويليام معها. لكن ويليام خرج صباح يوم مشمس من أيام شهر آذار منذ ست سنين، خرج لكي يشتري صحيفة، ثم لم يعد إلى البيت أبدًا. داهمته نوبة قلبية فسقط ميتًا عند كشك الصحف. كانت إيرين تظنه قويًا مثل ثور؛ وكانت تظن أنه قادر على البقاء إلى الأبد. خُيّل إليها أن تلك

الصدمة ستقتلها. خُيّل إليها هذا أول الأمر، لكن الصدمة لم تلبث أن انجلت عنها وحلّ الأسى محلها، فكان أشد وقعًا منها.

أجفلت إيرين عندما سمعت صوت باب يُغلق عنيفًا. كان ذلك باب البيت المجاور. لقد ألفت إيرين -ألفت تمامًا- سماع صوت إغلاق ذلك الباب. تحاملت على نفسها ونهضت واقفة على قدميها، ثم مالت عند النافذة لكي تنظر إلى الخارج، لكنها لم تر أحدًا أمام باب بيت أنجيلا. افترضت أنها كارلا تفعل هناك ما لا يعلمه أحد إلّا الرب. مضى على وفاة أنجيلا شهران، ولا تزال كارلا تأتي إلى بيتها، تأتي يومًا بعد يوم، «تستعرض الأشياء وترتّبها». لكن إيرين وجدت مشقة في تخيل ما هو في حاجة إلى استعراض وترتيب في بيت صديقتها: ما كانت أنجيلا تملك الكثير. نشأت الشقيقتان، كارلا وأنجيلا، في أسرة ثرية. لكن الظاهر أن ما أتاهما من عائلتهما قد انتهى أكثره، بطريقة من الطرق، إلى كارلا. بطبيعة الحال، كان بيت أنجيلا ملكًا لها. لكن، لا شيء غير البيت. كانت تؤمّن عيشتها المتواضعة من كدحها في العمل على نسخ النصوص وتدقيقها. ما جرى هو أنها أنجبت طفلها في سن مبكرة، وكان والده واحدًا من أساتذتها في الجامعة. كانت تلك علاقة تعسة، وحملًا غير متوقّع، فخرجت حياة أنجيلا عن مسارها. جعلها هذا تعيش حياة صعبة. تعرف إيرين هذا تمام المعرفة. جعلتها تلك التطورات تعاني الكثير... معاناة مالية، ومعاناة في تنشئة الطفل، ومعاناة مع شياطينها.

يظنّ الناس أن حياتك لا تكون مكتملة من غير أطفال. لكنهم مخطئون. أراد ويليام وإيرين أطفالًا، لكنهما لم ينجحا في إنجاب أطفال. مع هذا، عاشت إيرين حياة جيدة جدًا. كان لها زوج أحبها؛ وعملت موظفة استقبال في عيادة للأسنان فوجدت ذلك العمل ممتعًا أكثر مما توقّعت. كانت أيضًا تعمل متطوّعة مع الصليب الأحمر. عطلات في

إيطاليا، ورحلات إلى المسارح. ما العيب في هذا؟ إن أردنا الصدق، هي لا تمانع أبدًا في أن تحظى بمزيد من تلك الحياة. ثم إن أمرها لم ينته بعد صرف النظر عما يظنّه الناس. ليست جالسة في انتظار الموت. تودّ زيارة فيلا سيمبروني في رافيلو، وكذلك زيارة بوزيتانو حيث صوّروا فيلم «*السيد رايبلي الموهوب*». أوه! ليتها تزور مدينة بومبي أيضًا!

لقد قرأت إيرين في مقالة صحافية أن النساء اللواتي لم تنجبن ولم تتزوجن هنّ أسعد الناس على وجه الأرض. لا يصعب عليها إدراك سبب هذا، لأن هناك الكثير مما يمكن قوله عن هذا النوع من أنواع الحرية، عن عدم كون المرء مسؤولًا أمام أي إنسان، وعن عيشه مثلما يود ويهوى. فما إن تقع المرأة في الحب حتى تصير غير قادرة أبدًا على أن تكون حرّة تمامًا، أليس كذلك؟ عندها، يكون الوقت قد فات.

بعد موت ويليام، انزلقت إيرين إلى واحدة من حالاتها المزاجية الصعبة. يدعونها الآن اكتئابًا مع أنها كانت أيام شبابها «حالات مزاجية»، لا أكثر. كانت أنجيلا تدعوها «الكلب الأسود». ومن وقت إلى آخر، كان ذلك الكلب يزور إيرين؛ كان يزورها منذ أوائل شبابها. تلزم الفراش أحيانًا، وفي أحيانٍ أخرى تحتمل الأمر إلى أن ينتهي. كانت تلك الحالات تأتيها على غير انتظار. حالات يطلقها أحيانًا حزن ذو سبب واضح (مثلًا، ثالث إجهاض لها. الإجهاض الأخير). وأما في أوقات أخرى، فكان اكتئابها يأتيها على غير انتظار، يأتيها في أجمل أيامها. لكنها عرفت كيف تستمرّ، ولم تستسلم أبدًا. لم تستسلم لأن ويليام لم يتركها تستسلم. كان ويليام ينقذها دائمًا. وبعد ذلك، بعد رحيل ويليام، دخلت أنجيلا حياتها فكان ذلك أعجوبة.

أتاها عيد الميلاد متسللًا سنة 2012، سنة رحيل ويليام. لا تدري كيف أفلحت في ألا ترى كيف ظهرت على أرفف المتاجر، ظهورًا متدرّجًا، تزيينات عيد الميلاد ومأكولاته. أعارت الموسيقى المزعجة

أذنًا صماء... لم تسمع موسيقى الأعياد. وفجأة، حلّ برد صقيعي، وجاء شهر كانون الأول، وبدأ الناس يمرّون في الزقاق حاملين أشجار عيد الميلاد.

تلقت إيرين دعوات كثيرة - دعوة من صديقتها جين التي انتقلت مع زوجها للعيش في إدنبرة؛ ودعوة أخرى من ابنة عمّ لها لا تكاد تعرفها تعيش في بيرمنغهام. لكنها امتنعت عن تلبية تلك الدعوات كلها من غير أن تفكّر في الأمر مرتين. قالت إنها غير قادرة على مواجهة السفر في عيد الميلاد؛ وكان هذا صحيحًا تمامًا مع أن السبب الحقيقي كان شعورها بأن عليها أن تلزم البيت، وبأنها إن لم تمض عيد الميلاد وحيدة هذه السنة، فسوف تكون السنة التالية أول سنة من غير ويليام، أو السنة التي بعدها. سوف تكون أعياد الميلاد كلها، طيلة ما بقي لها من عمرها، أعيادًا من غير ويليام. أدركت هذا، ورأت أن من الأفضل أن تنتهي من الأمر منذ السنة الأولى.

قالت أنجيلا (كانت حساسة إزاء هذا النوع من الأمور)، إن على إيرين، على الأقل، أن تعرّج عليهم ليلة عيد الميلاد. قالت لها: «سنطلب، أنا ودانييل، لحمًا بالكاري من «دلهي غريل». قطع لذيذة من لحم الخروف. ألا تنضمّين إلينا؟».

قالت إيرين إن هذا لطيف جدًا. خرجت بعد ظهر يوم الرابع والعشرين من الشهر كي تصفف شعرها وتطلي أظافرها. أرادت أيضًا شراء بضع هدايا صغيرة: نسخة من كتاب «*الأرنب ذو العينين العسليتين*» لأنجيلا، وقسيمة شراء مواد فنيّة من أجل دانييل.

وفي طريق عودتها إلى بيتها، ما كاد يسنح لها وقت كافٍ لكي تضع ما اشترته حتى سمعت صوتًا غريبًا جدًا، صوتًا يكاد يكون خوارًا. وكان يقطع ذلك الصوت الحيواني الغريب صوت آخر: صوت شيء يتحطم، زجاج أو خزف. وبعد ذلك، أتى صياح. «ما عدت قادرة على التعامل معك! صارت الساعة الرابعة بعد الظهر وأنت... انظر إلى نفسك! انظر

إلى نفسك فقط! يا إلهي!». كان صوت دانييل عاليًا، وكان مخنوقًا، كان صوت شخص بلغ أقصى ما يطيق احتماله. وأما صوت أنجيلا فكان صوت شخص بلغ به الأمر ما هو أكثر من ذلك. كانت تصرخ: «اخرج! اخرج من البيت، أنت... يا ابن الحرام. يعلم الرب أنني أتمنى لو...».

«ماذا؟ ماذا قلت إنك تتمنّين؟ تابعي! هيا! قوليها! ماذا تتمنين؟».

«أتمنى لو أنني لم ألدك قط!».

سمعت إيرين صوت نزول شخص مندفعًا على السلم، ثم صوت صفق الباب بقوة شديدة بدا معها أن الشرفة الأمامية كلها قد اهتزت. ومن نافذتها، رأت دانييل يمضي مسرعًا، ووجهه شاحب، وقبضتا يديه مشدودتان. وبعد ثوانٍ معدودة، خرجت أنجيلا إلى الشارع. كانت في حالة سكر شديد. اضطرّت إيرين إلى الخروج لكي تساعدها. أفلحت بعد عناء، وبعد قدر كبير من المناشدة والاسترضاء، بلطف أول الأمر ثم بطرق إقناع غير لطيفة تمامًا، في إدخال أنجيلا إلى بيتها وجعلها تصعد إلى الطابق العلوي وترقد في فراشها.

ظلت أنجيلا تتكلّم طيلة ذلك الوقت، تغمغم لنفسها بصوت يكاد أحيانًا يصير غير مسموع. لكن إيرين سمعتها تقول هذا: «قال لي الجميع أن أتخلص من حملي. هل تعرفين هذا؟ لكنني لم أصغ إليهم. لم أصغ. أوه، أتمنى لو أن لي مثل حظك الطيّب، يا إيرين».

كررت إيرين من خلفها: «حظي الطيّب!».

«أن أكون مثلك، عقيمًا... لا أنجب».

لم تر إيرين أنجيلا مرة ثانية إلا في يوم العلب[1]. أتتها أنجيلا حاملة

---

(1) يوم العلب (boxing day): هو اليوم التالي لعيد الميلاد. كان هذا اليوم يوم عطلة للخدم يتلقون فيه هدايا من مخدوميهم موضوعة في علب يأخذونها إلى عائلاتهم.

كتابًا (مجموعة قصص لشيرلي جاكلي) وعلبة شوكولاته، واعتذرت منها لأنها تخلفت عن دعوة العشاء. قالت لها، «آسفة جدًا، يا إيرين. أشعر بأنني في حالة فظيعة، فظيعة جدًا، لكن... المسألة هي... تشاجرت مع دانييل...».

بدا عليها أنها لا تتذكّر سقوطها، ولا تتذكّر ما قالته بعد ذلك. كانت إيرين لا تزال غاضبة. أوشكت أن تكرّر ما قالته أنجيلا في ذلك اليوم، وأن تخبرها كم كانت مجروحة. لا بد أن أنجيلا رأت في وجهها شيئًا؛ ولعلّها تذكّرت لمحة خاطفة مما حدث لأن وجهها تلوّن فجأة وبدت خجلى. قالت لها: «ليس هذا ما أردت، كما تعلمين. لكنه الشراب...». أطلقت زفرة قصيرة مؤلمة، «أعرف أن هذا ليس عذرًا». صمتت لحظة تنتظر استجابة. وعندما لم تأت الاستجابة، تقدّمت من إيرين وطبعت على خدها قبلة خفيفة. استدارت مبتعدة عنها، واتجهت صوب الباب. وضعت يدها على مقبض الباب وقالت: «عندما يولدون تحملينهم وتتخيلين مستقبلًا ذهبيًا رائعًا. لا مال، ولا نجاح، ولا شهرة، ولا شيء من هذه الأشياء كلها... بل سعادة. سعادة كبرى. تتمنين أن يكونوا سعداء حتى إن احترق العالم كله».

- 15 -

كانت كارلا واقفة في مطبخ أنجيلا مشوَّشة الذهن. كان المطبخ خاليًا لا شيء فيه إلا غلّاية ماء قديمة موضوعة على الطاولة على مقربة من الموقد. كان هاتفها يهتز. ظل يهتز، ولم يتوقف. لكنها لم تحفل بالنظر إليه - سيكون هذا ثيو، أو الشرطة. ما كانت في حالة ذهنية تسمح لها بالحديث مع ثيو، ولا مع الشرطة. قبل قليل، كان الوكيل العقاري معها على الهاتف. أراد أن يحدّد موعدًا لرؤية المكان حتى يطرحه للبيع في الوقت المناسب، أي عندما يبلغ موسم شراء البيوت ذروته أواخر الربيع. استثقلت مهمة الخوض في أحاديث -مع الوكيل العقاري، أو ومع إيرين في البيت المجاور- وجدتها جهدًا يكاد يكون أكبر من طاقتها.

فتحت خزائن المطبخ فوق المجلى، ثم أغلقتها من جديد. تفقدت الخزائن في الأسفل. كانت الخزائن خاوية كلّها. تعرف أنها خاوية. هي التي أفرغتها. بحق الرب، ما هذا الذي تفعله الآن؟ إنها تبحث عن شيء، فما هو؟ أهو هاتفها؟ لا. هو في جيبها. الحقيبة القماشية! أين وضعت تلك الحقيبة القماشية؟

خرجت من المطبخ وعادت إلى الممر، لكنها اكتشفت أنها تركت باب البيت مفتوحًا. يا ربي! لقد بدأت تفقد عقلها. بدأت تفقده حقًا. رفست الباب بقدمها رفسة قوية فأغلقته. استدارت، ثم وقفت هناك لا تعرف ما تفعل بعد ذلك. حدّقت في بقعة على الجدار إلى جوار باب المطبخ حيث لاح لها شبح لوحة معلقة. ما اللوحة التي كانت هنا؟ لا تستطيع تذكّر هذا. ما أهمية الأمر؟ لماذا هي واقفة هنا؟ ولماذا أتت إلى هذا المكان؟

كان هذا النسيان جديدًا عليها. ظنّته شيئًا ناجمًا عن قلّة النوم. إن لاستخدام الحرمان من النوم وسيلة من وسائل التعذيب سببًا واضحًا فهو قادر على تجريد الإنسان من قدراته كلها. تذكرت هذا الشعور، تذكّرته تذكرًا غامضًا عندما كان ينتابها بعد ولادة بن. إلا أن تشوّش الذهن في ذلك الوقت كان يلطّفه إحساس غامر بالسعادة... كأنه يخدّره. كان هذا أشبه بتناول دواء منوّم، أو لعله كان أشبه بأن يجد المرء نفسه تحت الماء. ثم اشتد هذا الإحساس بعد موت بن.

عادت كارلا إلى المطبخ. وقفت عند المجلى. نظرت إلى الخارج، إلى الزقاق. مالت على النافذة حتى مسّت جبهتها زجاجها. لمحت الفتاة هناك -الفتاة التي رأتها في بيت إيرين- لمحتها لحظة قبل أن تختفي. كان في مشيتها تمايل غريب. في تلك الفتاة شيء لا يعجبها. مراوغة. جميلة، لكنها ذات أسنان حادة. فتاة متاحة لمن يبحث عن الجنس. لقد ذكّرت كارلا بالفتاة ذات العربة، بالفتاة التي ملأت أخبارها الصحف منذ بضع سنين عندما قتلت صديقتها. أو... لعلها لم تقتل صديقتها! هل كان هذا في مكان ما في فرنسا؟ لا. في إيطاليا. كان ذلك في بيروّجا. يا إلهي! لماذا تفكر الآن في هذه الأمور؟ تكاد لا تعرف أي شيء عن هذه الفتاة - الحقيقة أن الشيء الوحيد الذي تعرفه هو أنها تزور، في أوقات فراغها، السيدات اللواتي تقدّمت بهن السن لكي تساعدهن في التسوق. وها هي كارلا تتخيلها الآن واحدة من أفراد أسرة مايرسون! من جديد، اهتزّ الهاتف في جيبها. اهتزّ كأنه حشرة صغيرة غاضبة وجدت نفسها محبوسة هناك. شدّت كارلا على أسنانها. تجاهلت الهاتف. قالت في نفسها، *شاي! سوف أتناول فنجان شاي. شاي مع سكر كثير.* عادت إلى المطبخ. شغّلت الغلاية الكهربائية. فتحت الخزانة التي فوق المجلى. لا تزال فارغة مثلما كانت. *أوه، بحق الرب!*

أطفأت كارلا الغلاية وصعدت إلى الطابق العلوي بخطوات بطيئة. غمرها إعياء شديد. ساقاها ثقيلتان كالرصاص. توقفت لحظة في أعلى

السلم. استدارت. جلست تنظر إلى باب البيت عند أسفل السلم. جلست تنظر إلى الأرض إلى جوار مشعّ التدفئة حيث كانت فيما مضى سجادة قشقاي فارسيّة صغيرة. إلى جوارها، عند أعلى السلم، رأت تمزّقًا في السجادة. وضعت يدها عليه وأجرت إصبعها على طول حافته، إنش أو إنشان. بليت السجادة وتمزّقت. جرت قطرة دمع وسقطت من طرف أنفها. قالت في نفسها، *بليت وتمزّقت، يا أنجيلا. يلخّص هذا حكايتنا كلها!*

مسحت وجهها. نهضت واقفة ومضت مباشرة إلى غرفة دانييل القديمة في آخر البيت... غرفة لا شيء فيها إلا سرير مفرد قديم وخزانة بابها مخلّع لم تقبل الشركة التي تولت إفراغ البيت أن تأخذها. وضعت الدفتر الذي كان في يدها فوق كومة أوراق في أسفل الخزانة، ثم أغلقت بابها بأفضل ما استطاعت. بعد ذلك، أخرجت من جيبها رسن الكلب فانزلق معطفها عن كتفها عندما فعلت ذلك. أغلقت باب الغرفة، ثم جعلت من النهاية الجلدية للرسن أنشوطة علّقتها من مشجب المعطف. جذبت الرسن بقوة. تركته معلقًا هناك. فتحت الباب من جديد، ثم سارت بخطوات بطيئة، غير متعجّلة، سارت في الممر حتى غرفة أنجيلا. وفي سيرها، مرّرت أصابعها على جصّ الجدار.

بعد أن أرسلت أنجيلا دانييل إلى المدرسة الداخلية، صارت زيارات كارلا أقل، ثم أقل، إلى أن جاء يوم توقّفت فيه زياراتها. ما كان لتوقفها عن زيارة أختها أي سبب - أو، بالأحرى، ما كان هناك سبب واحد فقط. بكل بساطة، وجدت أنها ما عادت قادرة على مواجهة ذلك. انتهت جلسات اليوغا الزائفة.

انقضت سنين. ثم في ليلة من الليالي بعد ست سنين من موت بن، أو لعلها كانت سبع سنين، استيقظت كارلا على رنين هاتفها. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل: إنه التوقيت الذي تأتي فيه مكالمات

هاتفية مفزعة! انقضت لحظة قبل أن ترد على الهاتف، قبل أن تستطيع أن تنفض عنها ضباب الدواء المنوّم.

أتاها صوت امرأة يقول: «فضلًا، هل أستطيع أن أكلم كارلا مايرسون؟».

توقف قلب كارلا -كان ثيو في إيطاليا معتكفًا في بيت مزرعة ناءٍ في أمبريا. كان يحاول الكتابة- والناس هناك يقودون السيارات بطريقة سيئة. ثيو يقود السيارة هناك بطريقة سيئة أيضًا. الظاهر أنه يحسّ حاجة إلى أن يكون مثل أولئك الناس.

«سيدة مايرسون، هل من الممكن أن تأتي إلى مركز شرطة هولبورن؟ لا، لا، كل شيء على ما يرام. لكن لدينا هنا الآنسة أنجيلا ساذرلاند عندنا. شقيقتك؛ أليست شقيقتك؟ نعم، إنها بخير. لكنها، فقط... لقد شربت قليلًا وتورطت في مشكلة. وهي الآن في حاجة إلى من يأخذها إلى بيتها. هل تظنين أنك قادرة على القدوم لأخذها؟».

استدعت كارلا سيارة تاكسي، ثم ارتدت ملابسها. خرجت تحت مطر لندن الصقيعي. ما كانت عارفة إن هي مذعورة أم في غاية الحنق.

كان مركز الشرطة هادئًا؛ وكانت إنارته شديدة. وجدت في غرفة الانتظار امرأة جالسة وحدها تبكي بكاء خافتًا وتقول لنفسها: «أردت أن أراه، لا أكثر. أردت فقط معرفة أنه بخير».

المرأة الجالسة خلف مكتب الاستقبال أومأت برأسها صوب كارلا. ممكن جدًا أن تكون المرأة نفسها التي كلّمتها في الهاتف. قالت لها مشيرة إلى المرأة الباكية: «عنف منزلي. يضربها فتتصل بنا، ثم تقرر أنها لا تريد، على الرغم من كل شيء، أن تتقدّم بشكوى في حقّه». فتحت المرأة عينيها على اتساعهما، «بم أستطيع خدمتك، يا عزيزتي؟».

«أتيت لكي آخذ أنجيلا ساذرلاند. إنها شقيقتي. قيل لي أن آتي إليكم».

نظرت المرأة على شاشة كمبيوترها، ثم أومأت برأسها، ونادت

شخصًا في غرفة خلفها. قالت له: «جون، أرجو أن تأتيني بالآنسة ساذرلاند. شقيقتها هنا». استدارت عائدة إلى كارلا. قالت لها: «لقد أفرطتْ في الشراب وتسببت في مشكلة في صف انتظار التاكسي».

«مشكلة؟».

أومأت المرأة برأسها من جديد. قالت: «أساءت إلى رجل كان يقف في صف الانتظار. رجل أظن أن سلوكه كان مستفزًا لها. لكن، على أية حال، صبّت عليه شقيقتك سيلًا من الشتائم. وعندما حاول سائق سيارة تاكسي أن يتدخّل، لقي منها نصيبه بدوره. اتصل سائق التاكسي طالبًا المساعدة. وعندما جاء اثنان من عناصر الشرطة، كالت لهما الشتائم لقاء جهدهما».

كان هذا مفزعًا لكارلا، «يا إلهي! أنا آسفة جدًّا. إنها... ما كنت أعرف أبدًا أنها تتصرّف هكذا. هي ليست من ذلك النوع من الناس. ليست كذلك أبدًا، بل متحضرة، عادة».

ابتسمت المرأة، «نعم، لا بأس. إن للشراب آثارًا غريبة، أليس هذا صحيحًا؟ إن كان في هذا شيء من المواساة لك، فأنا أظنها الآن في خجل شديد من مسلكها. لم يتقدّم أحد بشكوى ضدّها. لذا، لا ضرر، ولا تبعات». مالت صوبها وتابعت خافضة صوتها، «إن أردت الصدق، أظنها أوقعت نفسها في حالة ذعر شديد».

كان الإحساس بالعار طاغيًا على تذكر كارلا تلك الليلة. مخجل أن يتصلوا بها في منتصف الليل كي تأتي إليهم وتأخذ أختها الصغرى الثملة التي أساءت السلوك. لكن هذا الخجل يصير لا شيء عندما تقارنه بخجلها لرؤية ما صارت عليه حال أختها في غيبتها. مضمحلّة، خاوية العينين. وجنتاها الناعمتان صارتا شبكة من العروق ظاهرة عليهما. تقوّست كتفاها.

«أنجيلا!».

قالت: «آسفة، يا عزيزتي». عيناها مسدلتان، وصوتها هامس، «أنا

آسفة جدًا. لا أتذكر حتى أنني فعلت هذا. قالوا إنني كنت أصرخ على الناس، أصرخ عليهم وأشتمهم و... لا أتذكر شيئًا من هذا».

جلستا جنبًا إلى جنب في مقعد سيارة التاكسي الخلفي عائدتين إلى بيت أنجيلا. لم تنبس أيٌّ منهما بأية كلمة، لكن كارلا وضعت ذراعها من حول كتفي أختها النحيلتين وضمتها إليها. إحساس خجل شديد: كان هذا أشبه باحتضان طفل، أشبه باحتضانها شقيقتها عندما كانت بنتًا صغيرة - بنتًا ضئيلة، عنيفة، مضحكة. أغضبها هذا. كان قبل عمر كامل. بدا لها أن عمرًا قد انقضى منذ أن كانت تحبها، منذ كانت كل منهما أفضل صديقة للأخرى. بدأت كارلا تبكي.

بلغتا هايواردز بليس، وكان بكاؤها مستمرًا. ظلت دموعها تجري على خديها وهي تناول سائق التاكسي أجره. وظلت تجري عندما سارت خلف أختها إلى باب البيت، عندما رأت الفوضى في بيتها، عندما شمّت فيه تلك الرائحة الراكدة، رائحة الرطوبة والرماد.

قالت أنجيلا وهي تصعد إلى الطابق العلوي: «كفي عن هذا، أرجوك. بحق الرب، كفي عن هذا!».

سمعتها كارلا تفتح الماء في الحمام. أعدّت شايًا، شايًا أسود. لم تجد في البراد حليبًا. لم تجد في البراد شيئًا غير قطعة جبن قديمة جدًا وزجاجة نبيذ أبيض مفتوحة. حملت كأسي القهوة وصعدت إلى الطابق العلوي. جلست على مقعد المرحاض في حين كانت أختها مستلقية في ماء الحوض.

قالت أنجيلا: «ما كنت أريد أن أسكر هناك». استوت جالسة وبدأت تجفف ركبتيها الداميتين بمنشفة ناعمة. نظرت كارلا إلى لوحي كتفيها يتحرّكان كأنهما موشكان على اختراق الجلد، «شربت كأسين. ربما ثلاث كؤوس. وبعد ذلك، شربت شيئًا في المقهى. كان لقاء عمل. تدركين هذا. لا أظن أن أحدًا رآني هناك. ثم وقفت في صف انتظار التاكسي. يا إلهي! أرجو ألا يكون أحد قد رآني هناك. كان أمرًا مفاجئًا

جدًا. في لحظة، كنت في أحسن حال. ثم، بعد لحظة واحدة، فقط... صحوت فوجدت هذا الرجل واقفًا أمامي، يقول إنني ثملة...».

قالت كارلا في نفسها، *ظننتك قلت إنك لا تتذكرين وقوفك في صف انتظار التاكسي!*

لكنها قالت لها: «صرتِ نحيلة جدًا، يا أنجيلا. هل أكلت شيئًا قبل أن تخرجي؟». رفعت أنجيلا كتفيها، «منذ متى... منذ متى وأنت هكذا؟».

ألقت عليها أنجيلا نظرة من فوق كتفها. قسمات وجهها متهدّلة. «هكذا؟ ماذا تعنين؟». أدارت وجهها إلى الجدار وراحت تعبث بالعفن بين بلاطات الجدار الصفراء.

ساعدتها كارلا في الخروج من الحوض. فتحت حقيبتها وأخرجت أقراص باراسيتامول. وجدت في خزانة الحمام مادّة مطهرة من أجل جروح أنجيلا. ساعدتها في الاستلقاء في سريرها، ثم استلقت إلى جوارها ممسكة يدها الباردة. إبهامها يداعب أصابع أختها بحركة رقيقة. قالت لها: «كان ينبغي أن أعرف كم ساءت الأمور. كان عليَّ أن أعرف».

وقالت في نفسها، *كان عليّ أن أسامحك. كان عليّ أن أسامحك* منذ زمن. ثم غفت الشقيقتان معًا.

استيقظت أنجيلا بعد ساعات من ذلك. صرخةٌ انحبست في حلقها. أجفلت كارلا واستيقظت مذعورة.

همست أنجيلا: «هل هو هنا؟».

«عمّن تسألين؟ من؟ يا أنجيلا، عمن تتكلّمين؟ من الذي تسألين إن كان هنا؟».

«أوه. لا. لا. لست أدري. أظنني كنت في حلم». أدارت وجهها صوب الجدار. كانت كارلا قد استلقت من جديد وأغمضت عينيها محاولة أن تعود إلى النوم من جديد.

همست لها: «هل كنتِ عارفة أنني أرى شخصًا؟».

«أوه، هل هذا صحيح؟ لا علم لي بهذا. هل حدث شيء؟ هل انفصلتما؟».

قالت أنجيلا: «لا، لا. ليس الآن وقتها. كنت أرى أحدهم وقتها. لم أقل لك هذا أبدًا، أليس كذلك؟ كان رجلًا متزوجًا. وكان يأتي إلى البيت، أحيانًا».

أحاطت كارلا وسط أختها وجذبتها إليها. قالت لها: «أنجيلا، ما هذا الذي تقولين؟».

قالت أنجيلا: «في لونزديل سكوير...». سحبت كارلا ذراعها، وأكملت أنجيلا: «عندما كنت أعيش في لونزديل سكوير مع دانييل بعد موت بابا. كنت أرى أحدًا. في الليلة السابقة، الليلة التي سبقت الحادثة، كنا معًا في غرفة المكتب. كنا نتابع فيلمًا على الشاشة هناك. هل تتذكرين تلك الشاشة؟». إنها الشاشة التي ركّبها أبوهما هناك من أجل مشاهدة الأفلام، «كنا نشرب و، نعم... ظننت أن الطفلين نائمان، لكن دانييل ما كان نائمًا. نزل إلى الطابق السفلي. ضبطنا في غرفة المكتب». كانت أنفاسها بطيئة، متقطعة، «غضِب كثيرًا. غضب كثيرًا ولم أستطع تهدئته. قلت له -لصديقي- أن يذهب. قلت له أن يذهب، ثم أخذت دانييل إلى الطابق العلوي. انقضى زمن طويل قبل أن أستطيع تهدئته، قبل أن أستطيع جعله ينام. ثم نمت بدوري. ذهبت إلى فراشي مباشرة. لم أنزل بعد ذلك، لم أنزل إلى غرفة المكتب. لم أعد إلى تلك الغرفة لكي أقفل الباب...».

قاطعتها كارلا: «أنجيلا، لا تفعلي هذا. لا تفعلي هذا. كنا على الدوام موقنين -أنا كنت موقنة دائمًا- أنك تركت الباب مفتوحًا. كان هذا...».

قالت أنجيلا بصوت خفيض: «صحيح. صحيح. بالطبع، كنتما موقنين. بالطبع».

- 16 -

ضغطت لورا هاتفها على أذنها رافعة كتفها اليمنى حتى تسنده بها وتحرر يدها. كانت في الحمام تبحث في خزانة الأدوية عن مادة مطهّرة تضعها على جرح ذراعها. في المغسلة، كانت راقدة رسالة تلقتها ذلك الصباح. صارت رطبة. بدأ حبرها يذوب. رسالة تبلغها بأن موعد جلسة المحكمة في قضية الطعن بالشوكة قد تغير. بدأت تضحك عندما أزاحت يدها الزجاجات الصغيرة على رفوف الخزانة فسقطت في المغسلة، فوق الرسالة.

«الشوكة! الشوكة، الشوكة، الشوكة. الشوكة سمكة حمراء!»(1). ضحكت بصوت أقوى، ضحكت لتلك الصلة التي أقامها ذهنها... «لعل الشوكة كانت شوكة لتناول الأسماك!» (لم تكن كذلك. كانت شوكة كوكتيل. تعرف هذا تمام المعرفة).

خفّفت ضغط كتفها على الهاتف. أسقطته في يدها. نظرت إلى الشاشة كي تذكّر نفسها بمن كان معها على الهاتف. وجدت أنها قد وُضعت في حالة انتظار: هكذا هو الأمر. كانت تلك مكالمة مع المحكمة لأنها أرادت إخبارهم أن التاريخ الذي يقترحونه الآن من أجل جلستها لا يناسبها. إنه يوم ميلاد أمها. قد تخرجان لتناول طعام الغداء معًا. صارت ضحكاتها أشد قوّة من ذي قبل. تضحك من نفسها. متى دعتها أمها إلى الغداء آخر مرة؟

---

(1) سمكة حمراء (Red Herring): تعبير مستخدم للإشارة إلى أمر يراد منه أن يضلل السامع أو القارئ.

مع هذا، قد تكون قادرة على الشرح. قد تكون قادرة على أن تشرح قصة الشوكة كلها لمن يكلمها، كائنًا من كان. قد تستطيع أن تشرح القصة للشخص الذي معها على الهاتف. لعلها تستطيع أن تحكي لهم القصة... وقد يفهمون. قصة ليس صعبًا عليها أن تحكيها لأنها حكتها من قبل، حكتها مرات كثيرة، حكت نسخًا كثيرة منها: للشرطة، وللمحامي المكلّف، ولطبيبتها النفسية «علينا أن نضع استراتيجيات، يا لورا؛ استراتيجيات تساعدك في ضبط غضبك». حكت القصة أيضًا لمايا في محل تنظيف الملابس.

احكيها مرة أخرى!

كانت في بار غير بعيد عن مكان وجودها الآن في هذه اللحظة، كان الوقت متأخرًا جدًا؛ وكانت في حالة سكر شديد. بدأت ترقص، ترقص بطيئًا، بمفردها. لعلها تشجّعت عندما رأت أن بضعة أشخاص تجمّعوا ينظرون إليها. راحت تؤدي -بطيئًا، على نحو مرتجل- رقصة تعرٍّ بدت احترافية إلى حدّ غير قليل. في منتصف رقصتها، ومن غير مقدّمات ولا استئذان، تقدّم منها شخص ملتح ذو مظهر عدواني -كان ثملًا أيضًا، لكن أقلّ منها- اقترب منها، ثم مدّ يده وأمسك ثديها بقوة.

هلّل أصدقاؤه، وضحك الجميع عدا فتاة واحدة قالت: «ما هذا؟».

أضاعت لورا إيقاع رقصتها. خطت إلى الخلف مترنّحة وأمسكت بحافة البار حتى لا تقع. ازداد ضحك الجميع شدّة. أعماها غضبها فهجمت على البار من غير انتظار، هجمت باحثة عن سلاح. وقعت يدها على شوكة كوكتيل، شوكة ذات شعبتين يستخدمونها لتناول حبات الزيتون. أمسكت بالشوكة وانقضت بها على الرجل. تهدل كتفاه، وانحرف يمينًا. فقد توازنه فلوَّح بيده اليسرى وتشبّثت يده اليمنى بالبار، أمامها تمامًا. طعنته. سددت الطعنة إلى وسط يده. انغرست

الشوكة في اليد، انغرست فيها عميقًا وغاصت في لحمها كأنها تغوص في قطعة زبدة... ثم بقيت عالقة.

هرج ومرج كبيران، وتزاحم وتدافع، والشاب يصرخ ألمًا. أتى حراس المكان. لفّ واحد منهم لورا نصف العارية بسترته ودفعها خلف البار. سألها: «هل فعل ذلك الشاب هذا بك، يا عزيزتي؟ هل هاجمك؟ هل نزع عنك ملابسك؟».

هزت لورا رأسها وقالت: «نزعت ملابسي بنفسي. لكنه أمسكٍ بي. لقد أمسك بثديي!». استُدعيت الشرطة. وأثناء انتظار وصولهم، أُرغم الخصمان على الجلوس جنبًا إلى جنب - الرجل ذو الشوكة المغروسة في يده، والمرأة نصف العارية في سترة الحارس على كتفيها. ظلّ الرجل يدمدم: «معتوهة لعينة. إنها معتوهة لعينة. يجب وضعها في السجن».

كان يحاول إخراج سيجارة من العلبة مستخدمًا يدًا واحدة؛ لكن العلبة ظلت تسقط على الأرض. هذا ما جعل الحراس يضحكون. قال له الحارس الذي صار من غير سترة: «على أية حال، أنت لا تستطيع التدخين هنا».

ظلت لورا صامتة خلال ذلك كله -جعلها انفجار غضبها تصحو قليلًا من السكر، وأخافها - إلى أن قال الرجل: «سوف توضعين في السجن لأنك هاجمتني، أنت، أيتها العاهرة المجنونة هل تدركين هذا؟ سوف توضعين في السجن». عند ذلك، التفتت إليه وأجابت: «لا. لن أوضع في السجن. كنت أدافع عن نفسي».

«كنت ماذا؟».

سألته لورا: «هل قلت لك إنني أسمح لك بلمسي؟ لقد هاجمتني. اعتديت عليّ! وضعت يدك عليّ!».

فغر الرجل فاه عجبًا. قال لها: «أنت التي عرّيت صدرك بنفسك، أنت أيتها العاهرة المعتوهة».

«صحيح. أدرك أنني عرّيت صدري. لكن، متى سمعتني أقول إنك تستطيع أن تلمسني؟».

قال الحارس: «كلامها منطقي». نظر إليه فتى الشوكة غير مصدّق ما سمعه.

ابتسمت لورا للحارس ابتسامة عذبة. قالت له: «شكرًا».

تابع الحارس كلامه: «نعم. كلامك منطقي، يا حبّي. ولكن! مع هذا، لا يحق لك أن تطعني يد أحد بالشوكة. هذه ردة فعل غير متناسبة مع ما فعله. ألا ترين ذلك؟».

حدّقت لورا في عينيها في المرآة. لا تزال في الحمام. لا تزال ترفع الهاتف إلى أذنها. ما من صوت على النهاية الأخرى من الخط. لم يقل أحد شيئًا. لا أحد يقول شيئًا. لا أحد مصغيًا إليها. أبعدت لورا الهاتف عن أذنها. نقرت على الشاشة، وبحثت عن رقم أمها. أصغت إلى صوت الرنين المألوف، ثم إلى صوت امرأة يقول لها، *ليس لديك رصيد كافٍ لإجراء هذه المكالمة*. وضعت الهاتف على حافة المغسلة. حاولت أن تبتسم لنفسها في المرآة، لكن عضلات وجهها بدت غير قادرة على فعل ذلك. لم تستطع شيئًا إلا أن تكشّر قبالة قبحها، قبالة وحدتها.

مكتبة
t.me/t_pdf

- 17 -

دقّ ثيو باب أنجيلا. هذه المرة، دقّ الباب بقوة أكبر. صاح: «كارلا! هل أنت هنا؟». كان في صوته حدّة؛ وكان مزاجه في تقلب دائم طيلة ذلك الصباح، تقلبٌ بين حالين اثنين، بين الذعر والغضب. إنه غير قادر على العثور على كارلا، منذ يومين. لم تردّ على رسائله. وإن كانت في البيت، فهي لا تفتح له الباب. هذا ما كان يغضبه لأنها تفعله أحيانًا، لأنها تغيب تمامًا من غير أن تفكّر في العواقب ومن غير أن تبالي بحقيقة أن الآخرين -هو، أكثر الأحيان- قد يقلقون عليها. اختفت ذات مرة أسبوعًا كاملًا. اتضح بعدها أنها كانت في فرنسا. لم ترض أبدًا أن تقول له مع من كانت هناك.

وأما من ناحية أخرى، فقد كان مذعورًا. ماتت أختها. ثم مات دانييل أيضًا. وبعد أسبوع من الآن، سيأتي يوم ميلاد بن. لو ظل بن حيًا، لكان هذا عيد ميلاده... لكان هذا عيد ميلاده الثامن عشر. طفلهما الصغير يصير راشدًا. راشد حقيقي. لو ظلّ حيًا، لكان الآن يتكلم في شأن ذهابه إلى الجامعة، ويأتي بفتيات إلى البيت... أو بفتيان. التفكير في هذا مؤلم - كيف كان ممكنًا أن يصير بن، وكيف كان ممكنًا أن يصيرا، كارلا وهو، لولا تلك الحادثة.

لولا أنجيلا!

لقد ذهب ثيو إلى بيت كارلا، وذهب إلى المقبرة، واتصل بأصدقائها. قد يخبر الشرطة إن فشل في العثور عليها هنا. خطر في ذهنه أكثر من مرة أن من الممكن أن تكون عند الشرطة. قد تكون الآن، الآن تمامًا، قد تكون جالسة في غرفة في مركز الشرطة، قد تكون جالسة تجيب عن أسئلتهم. إن كانوا قد أتوا لأخذ بصمات أصابعه، ولأخذ عينات

DNA منه، فمن الطبيعي أن يأخذوها منها أيضًا. أليس كذلك؟ فما الذي يمكن أن يكونوا قد وجدوه؟

دق الباب من جديد. دقّه بقوة أكبر. ثم ناداها راجيًا: «بحق الرب، يا كارلا، افتحي الباب!».

انفتح باب البيت المجاور. انفتح قليلًا. ظهر في فتحة الباب الضيقة وجه ذاوٍ لامرأة تقدمت بها السن. قالت له بنبرة مقتضبة: «ما من أحد هنا. البيتّ خالٍ».

إنها الجارةً الفضولية. لقد حدثته كارلا عنها، لكن ثيو وجد نفسه عاجزًا عن تذكّر اسمها. ابتسم لها ابتسامة عريضة. قال: «أوه، مرحبًا! يؤسفني كثيرًا أنني أزعجتك». سار مبتعدًا عن باب بيت أنجيلا، مقتربًا من المرأة العجوز، «أبحث عن زوجتي. كارلا مايرسون. إنها شقيقة أنجيلا. كنت أتساءل... لعلك رأيتها!». نظرت إليه مضيّقة عينيها. كرّر ما قاله بصوت مرتفع محاولًا نطق اسمها نطقًا أكثر وضوحًا: «كارلا». تغضن حاجبا المرأة. راوده شعور بأنها قد لا تكون مالكة قواها العقلية. ابتسم لها من جديد وقال: «لا بأس. لا تشغلي بالك بهذا».

قالت العجوز على غير انتظار وهي تفتح الباب على اتساعه وتشير صوب صدره بإصبعها ذات المفاصل المتورّمة: «أنت! بالطبع، كان ذلك أنت! كان ينبغي أن أعرفك منذ البداية».

قال ثيو: «عفوًا، ماذا قلت؟».

قالت، «انتظر هنا. لا تذهب». ثم ابتعدت عن الباب واختفت في الممر. تركت الباب من خلفها مفتوحًا.

ظل ثيو واقفًا أمام الباب لحظة، لا يدري ماذا يفعل. نظر في الزقاق يمنة ويسرة. ثم ناداها: «سيدتي! يا سيدة... آه...». ماذا كان اسمها؟ تذكّر أن كارلا دعتها *العنزة العجوز الخرفة*. خطا داخلًا الممر المظلم. ألقى نظرة سريعة على اللوحات المعلّقة على الجدران: لوحات رخيصة، غير أصليّة، مناظر بحريّة. لعل زوجها كان يعمل على السفن! تقدّم في الممر خطوة أخرى.

ظهرت أمامه فجأة، فأجفل. نظرت إليه عبر زوج من النظارات وضعته على طرف أنفها. ضيّقت عينيها من جديد. قالت: «إنه أنت! لقد كنت هنا من قبل. كنت في الخارج، في الزقاق، مع أنجيلا».

«أوه، لا، أنا...».

«نعم، نعم. إنه أنت. سألني محقّق الشرطة عمن كان ذلك الرجل الذي رأيته هنا، فلم أستطع قول شيء. في ذلك الوقت، لم أعرفك، أو... لم أتذكّرك. لكنه أنت. لقد كنت هنا مع أنجيلا. جعلتها تبكي».

قال ثيو مؤكدًا: «لم أكن هنا. أظنك تخلطين بيني وبين شخص آخر». استدار ومضى في طريقه بخطوات سريعة.

نادته السيدة العجوز من خلفه: «كان معك كلب. كلب صغير».

مضى ثيو بخطى نشطة، فعبر الزقاق وانعطف عند الزاوية، ثم دخل حانة سيكفورد آرمز. طلب كأس ويسكي. شرب الكأس سريعًا، ثم مضى إلى الخارج حتى يدخّن. كسر القاعدة: لا مشروبات كحولية قبل السادسة مساء؛ وهذه السيجارة ممنوعة بموجب النظام الذي وضعه لنفسه. مع هذا... قال في نفسه إن لديه الآن ظروفًا تسمح بتخفيف القيود. سحق السيجارة التي لم يدخن إلّا نصفها، سحقها في طبق السجائر عند الباب. استدار لكي ينظر صوب هايواردز بليس كأن من الممكن أن تكون تلك المرأة العجوز قد تبعته.

كان يسأل نفسه: هل ستخبر كارلا؟ هل ستقول لكارلا إنها رأته اليوم، أو إنها رأته مرّة سابقة؟ *يا ربي!* عاد إلى الداخل. رفع إصبعه مشيرًا إلى الشابة الواقفة خلف البار. طلب كأسًا أخرى. رفعت عاملة البار حاجبها بحركة لا تكاد تبيّن. أراد أن يقول لها، *اهتمي بشؤونك!* وضعت الكأس الثانية أمامه مع ابتسامة. قالت له: «تفضّل». لعله تخيل أنها قد رفعت حاجبها! لعله صار يتخيل أشياء غير موجودة!

لعل رهابًا أصابه في ما يخص تلك العجوز. حتى إن قالت لكارلا شيئًا، فما أهميّة هذا؟ هل من الممكن أن تصدقها كارلا؟ إن اعتقد أنها ستصدقها، فهذا يعني أن رهابًا قد أصابه بالفعل. ألم تقل له كارلا إنها تظن بأن تلك المرأة العجوز قد فقدت عقلها؟ أليس هذا ما قالته عنها؟

مع هذا... ماذا لو صدقتها فعلًا؟ ماذا ستظن عندها؟ إن علمت أنه كان مع أنجيلا، فأية وجهة ستتخذها أفكارها؟ يستحيل التكهّن بهذا. عرف ثيو كارلا قرابة ثلاثين سنة، لكنه لم يستطع أبدًا تخمين أين يمكن أن يتّجه تفكيرها في أية حالة بعينها. إلا أنه كان يدرك أمرًا واحدًا: لقد غفر لها هفواتها كلها، وسوف يواصل الغفران دائمًا؛ لكنه غير واثق أبدًا من أنها ستفعل مثله.

أخرج هاتفه من جيبه. طلب رقم كارلا من جديد. ومن جديد، لم تجب. أغرته فكرة طلب كأس ثالثة، لكن نشوة الكأس الأولى بدأت تنداح وسط ضباب الكأس الثانية الخطير. لو ردّت عليه، فماذا يمكن أن يقول لها؟ ما الذي أراد إخبارها به؟

عندما رأى أنجيلا آخر مرة، كانا واقفين في الخارج، في هايواردز بليس، تمامًا حيث كان قبل قليل واقفًا يتحدّث مع جارتها. كان يومًا رماديًا سماؤه ثقيلة؛ وكانت لندن كلها بلون واحد. كان ثيو يبحث عن دانييل، لكنه وجد أنجيلا. لقد كانت المرأة العجوز محقّة: بكت أنجيلا، لكنه ما كان واثقًا من أنه هو من جعلها تبكي. تفجّرت دموعها لحظة رأته. دعته إلى دخول البيت، لكنه فضّل أن يكلّمها في الشارع. لا يستطيع أن يكون في غرفة واحدة معها، أن يكون معها وحده. كان غير واثق من قدرته على ضبط نفسه.

صدمته هيئتها: نحيلة نحولًا مؤلمًا، وعروق دموية عنكبوتية زرقاء، مرتسمة من تحت جلد كالورق. شعرها رمادي، طويل جدًا. بدت مثل ساحرة آتية من واحدة من قصص الجنيّات. بدت مفرغة كأنها قشرة لا

شيء فيها. حاول ثيو تجاهل مظهرها وسوء حالها. حاول أن يكلمها بطريقة موضوعيّة لكي يُفهمها، بطريقة مباشرة إلى أقصى حدّ ممكن، سبب وجوده هناك. حاول إفهامها أن دانييل أتى إلى بيته طالبًا منه مالًا. قال له إنه فقد عمله وما كان لديه شخص غيره يلجأ إليه. قال أيضًا إنه لم يشأ إزعاج كارلا بهذا الأمر. لم يشأ أن يثير قلقها. ظنّه ثيو كاذبًا -على الأرجح- وافترض أن هناك شيئًا لم يقله الشاب. لكنه كان غير راغب في تقصّي الأمر. حرّر له ثيو شيكًا بقيمة ألف جنيه. ثم انقضى أسبوعان، فعاد دانييل مرة أخرى. كان ثيو خارج البيت لكنه ترك له رسالة.

سألته أنجيلا: «هل أستطيع سماعها؟».

قال ثيو: «لم تكن رسالة صوتية. لقد دسّ رسالته من تحت الباب».

«أية رسالة هي؟ ماذا قال فيها؟». كانت عينا أنجيلا متسعتين، في بياضهما اصفرار يرَقاني. قال ثيو في نفسه، *إنها مريضة. بل لعلّها في حالة احتضار.*

أجابها ثيو: «لا أهمية لما قاله في تلك الرسالة. لا أريد شيئًا غير أن أراه حتى أكلّمه عنها».

قالت أنجيلا إنها لا علم لها بمكان دانييل. ولكن، إذا رأته، فسوف تكلّمه. ثم هزّت رأسها وقالت لثيو: «لن يكون هذا مفيدًا لأنه لا يصغي إليَّ. كارلا هي القادرة على أن تكلّمه». فاضت دموع عينيها من جديد... «عادةً، يفعل دانييل ما تطلبه كارلا».

ظل ثيو برهة واقفًا. كان ينظر إليها وهي تبكي. حاول أن يشعر بشيء من الشفقة عليها، لكنه لم يستطع. كان واضحًا أن مشاعرها الآن منصبّة على نفسها، وأن مشاعره لا محل لها. سار مبتعدًا عنها قبل أن يقول شيئًا قد يندم عليه.

بطبيعة الحال، ما كانت تلك آخر مرة يراها فيها... كانت قبل الأخيرة.

- 18 -

في زوايا الغرفة، تجمّعت الظلال فشكّلت أجسادًا لا وجوه لها، رسمت أجسادًا تتحرّك، تدنو وتبتعد ثم تتبدد فتصير عدَمًا. رقدت إيرين مستيقظة، مصغية إلى صوت أنفاسها تتردّد في صدرها قصيرة متقطعة، وإلى صوت الدم كثيفًا في أذنيها. جثم فوقها خوف ثقيل ضاغط بجسدها على فراشها.

شيء أيقظها! ثعلب في فناء الكنيسة؟ أم سكّير في الزقاق يصيح من غير سبب. أم إن هناك...! لا، ها هو من جديد، ذلك الصوت. أهو صرير واحدة من درجات السلم؟ حبست إيرين أنفاسها ولم يسمح لها ذعرها بأن تمدّ يدها لكي تنير المصباح. انقضت بضع ثوانٍ، ثم انقضت بضع ثوانٍ أخرى. لعلها تخيّلت ذلك الصوت! لعلها كانت في حلم! أطلقت زفرة بطيئة، وانقلبت على جانبها. ها هو الصوت من جديد! وقع خطوات. لا شك في هذا. خطوات ليست في بيتها -أراحها هذا- بل في البيت المجاور. كانت على معرفة جيّدة بهذا الصوت لأنها أمضت سنين طويلة تصغي إلى خطوات أنجيلا صاعدة درجات السلم، ثم هابطة، في أي وقت من أوقات الليل أو النهار. جدران هذه البيوت رقيقة جدًا كأنها من ورق!

أيكون هذا الذي سمعته صدى خطوات أنجيلا؟ أيكون هذا ردّة فعل طبيعية على أساها بعد فقدها؟ تمامًا مثلما كانت ترى ويليام يصفّر آتيًا في الزقاق عند المساء، أو واقفًا خلف النافذة عندما تستيقظ دائمًا على أهبة الالتفات... دائمًا على أهبة القول، *ما قولك في فنجان شاي، يا إيرين؟*

تحرّك شيء على هامش مجال رؤيتها. أطبقت يداها على ملاءات سريرها، أطبقت بقوة جعلت أصابعها تؤلمها.

تساءلت إيرين كيف يمكن أن تبدو لها أنجيلا- إن أتت. هل ستكون هي نفسها، عصبيّة متوترة دائمًا، ركبتها تهتز دائمًا عندما تجلس واضعة ساقًا هزيلة فوق ساق هزيلة، متحدثة عن كتاب فرغت من قراءته، ويداها منشغلتان دائمًا بشيء من الأشياء - تلفّان سيجارة، أو تجذبان خيطًا في قميصها الكتاني؟ هل ستكون هي نفسها، أم ستظهر لها شيئًا آخر؟ هل ستأتي مشوَّهة، مكسورة الرقبة، رائحة النبيذ الحلوة في أنفاسها تخالطها رائحة عفن؟

بعد ذلك -ما عاد لديها الآن أي شك في الأمر- سمعت إيرين شخصًا يسير على فسحة السلم خلف جدار غرفة نومها. خطوات خفيفة ليست مثل وقع قدمَيْ أنجيلا الثقيل عندما تكون ثملة. ليست هذه أصواتًا مكتومة، غير واضحة، ولا متخيَّلة... بل هي وقع خطوات حقيقي. خطوات متأنية لا تخطئها الأذن.

إن في البيت المجاور أحدًا؛ وهو ليس شبحًا. إنه دخيل.

فكرة وجود شخص دخيل تخيف إيرين أكثر من أي شيء آخر. تخيفها لحظة اكتشاف الدخيل أن في البيت أحدًا، أن في البيت شاهدًا لا بد له من التخلّص منه. تثير ذعرها لحظة الفهم، تلك اللحظة التي تدرك عندها المتقاعدة الضعيفة الوحيدة في فراشها، أي نوع من الدخلاء هو: لصّ يستغل فرصة سنحت له ويدخل لكي يسرق محفظة أو كمبيوترًا محمولًا... أم دخيل من نوع آخر، دخيل أتى باحثًا عمن يلهو به. تلك القصص المفزعة التي يسمعها المرء، قصص عن سيدات عجائز تعرضن للضرب، للاعتداء، اسودّت عيونهن، تمزقت قمصان نومهن.

هاهو الصوت من جديد! صوت آخر. أحدهم يتحرّك جيئة وذهابًا. لعله يسير في الممر. هل يبحث عن شيء هناك؟ تساءلت إيرين: *أهو مايرسون*؟ الرجل الذي جعل أنجيلا تبكي! الرجل الذي كذب عندما

قال إنه لم يأت إلى هذا المكان من قبل! لم تعجبها هيئته، ولم يعجبها كيف كانت عيناه تنظران إليها نظرة عابرة، تنزلقان عنها، ولا تقيمان اعتبارًا لها. يقول في نفسه، عجوز حمقاء غبية! تكاد تستطيع سماعه متمتمًا لنفسه، بقرة فضولية عجوز!

لا بأس. إذًا، من الممكن الآن أن ترضي فضولها وتنهض لكي تستطلع الأمر. أليست قادرة على هذا؟ تحسّست في الظلمة موضع مفتاح النور. أضاءت المصباح. رفرفت عيناها قبل أن تألفا الضوء. استدارت، ثم جلست. تناولت نظارتها. هاتفها المحمول ليس إلى جوار سريرها. هكذا هو الأمر دائمًا. لا يكون ذلك الهاتف اللعين حيث ينبغي أن يكون؛ لا يكون أبدًا حيث ينبغي أن يكون بصرف النظر عن مكانها أو عمّا تفعله... يكون دائمًا في غرفة أخرى.

نزلت السلم بخطوات شديدة الحذر. كانت تتحسّس موقع قدميها في الظلام لأنها لم ترد لفت الانتباه إليها بإضاءة نور السلم. تمتمت مخاطبة نفسها: «غبية! تتجولين هكذا في الظلام. المسألة أكثر خطورة من التواء كاحلك. قد تسقطين فينكسر حوضك!».

مع بلوغ إيرين الدرجة الأخيرة، ومع تحسّسها الأرض بقدمها لكي تتأكد تمامًا من بلوغها أرضية الطابق السفلي، سمعت من البيت المجاور صوتًا أكثر ارتفاعًا، صوتًا مفاجئًا لشيء يرتطم بالأرض. كأنّ أحدًا قد تعثر. صاحت: «مَنْ هناك؟ أستطيع سماعك. إنني أطلب الشرطة. الشرطة آتية». بدت في صوتها، حتى لأذنيها، نبرة سخط مضحكة، «هل تسمعني؟».

أجابها الصمت.

وقف الشرطيان أمام باب بيت أنجيلا. وضع كل منهما يديه على خصره. أحدهما شاب جسيم فتيّ الوجه؛ ومعه شرطية أكبر منه سنًا، في الثلاثينيات، ذات مظهر مرهَق.

قال الشرطي الجسيم مخاطبًا إيرين: «الباب مقفل». أدار مقبض الباب من جديد، فقط حتى يريها أن الباب مقفل... «ما من شيء يشير إلى أن أحدًا قد عبث بالباب. وما من شيء يشير إلى أن هناك نافذة مكسورة...». رفعت كتفيها بحركة اعتذار، «لا شيء يشير إلى أن أحدًا قد اقتحم هذا البيت».

كانت إيرين واقفة بباب بيتها. ظلت مصرّة: «هناك أحد في الداخل. لقد سمعته. سمعته يسير في البيت».

«أنت تقولين إن البيت خالٍ. هل أنت واثقة من أنه لم يُؤجّر؟».

«نعم. البيت خالٍ بكل تأكيد. بل إنهم لم ينتهوا بعد من إخلائه من الأثاث. المسألة هي أن رجلًا كان هنا اليوم. كذب عندما قال إنه لم يأت إلى هذا المكان من قبل. وأنا، فقط... أنا، فقط...».

شدّت الشرطية على شفتيها وقالت: «إذًا هناك من كان يحوم حول هذا البيت. وماذا أيضًا؟».

«الحقيقة... لا، ليس هذا ما أقوله. لكن امرأة ماتت هنا. ماتت امرأة قبل شهرين من الآن. وأنتم -لا أعني أنتما، بل الشرطة- قلتم إنها كانت حادثة. لكني غير واثقة من صحة ذلك لأن ابنها مات الآن. و... ألا يبدو لك هذا أمرًا غريبًا؟».

رفرفت عينا المرأة. قالت لها: «عفوًا! تقولين إن حادثتي وفاة مريبتين قد وقعتا في هذا البيت. هل هذا ما قلته؟».

قالت إيرين: «لا، لا. حادثة واحدة فقط. مات الابن في مكان آخر. لكني، فقط... أنا لا أريد أن أهدر وقتكما عبثًا. لكن هناك شخصًا في البيت المجاور لبيتي. وبصراحة... أنا خائفة».

أومأ الشرطي الشاب الجسيم برأسه. ابتسم لإيرين وقال لها: «أنت خائفة حقًا». رفع قبضة يده ودق الباب بقوة. انتظروا جميعًا. دق الباب

من جديد، عندها انبعث نور داخل البيت. كادت إيرين تسقط أرضًا عندما تراجعت عن الباب مسرعة. صاحت: «إن في البيت أحدًا». كان في نبرة صوتها مزيج من الذعر والانتصار.

انقضت بضع لحظات، ثم انفتح الباب. ظهرت كارلا. غضب شديد في وجهها.

في ما بعد، أي بعد أن أنهيا الأمور مع الشرطة، وبعد أن شرحت لهم كارلا من تكون وبيّنت أن من حقها أن تكون هنا، قبلت دعوة إيرين إلى تناول فنجان شاي في الساعة الثالثة صباحًا.

قالت لها إيرين بطريقة من يشعر أن حقه قد هُضم: «لا يجوز أن تتجوّلي في هذا البيت هكذا... ليس في منتصف الليل!».

«مع احترامي، يا إيرين...» -بعد أن قبلت كارلا فنجان الشاي، رفعت ذقنها قليلًا فصارت تنظر إليها من فوق أرنبة أنفها وهي تكلمها، «أستطيع أن أكون هنا في الوقت الذي يعجبني. إنه بيتي. أعني أنه سيصير بيتي. لذا، سأكون فيه كلما راق لي أكون فيه».

«لكن...».

تابعت كارلا كلامها من غير أن يظهر في نبرة صوتها ما يشير إلى أدنى قدر من التنازل، «يؤسفني أنني أزعجتك. لكن نومي في الآونة الأخيرة صار سيئًا جيدًا -بل إنني لا أكاد أنام- وفي بعض الأحيان، بدلًا من استلقائي في الفراش محدّقة في السقف، أنهض وأنجز بعض الأمور، سواء أكان ذلك مراسلات أو تنظيفًا أو... في هذه الحالة، القدوم إلى هذا المكان حتى أبحث عن شيء نسيته هنا في وقت سابق.

ردت إيرين بنبرة حادّة: «ماذا؟». أغضبَتها طريقة كلام كارلا؛ وأغضبتها قلّة اهتمامها الواضحة براحة بالها... «بحق الرب، ما الذي يمكن أن تكوني محتاجة إليه إلى هذا الحدّ في الساعة الثانية بعد منتصف الليل؟».

«هذا ليس من شأنك!». وضعت كارلا فنجانها على طاولة المطبخ، بل ضربت الطاولة به فاندلق الشاي على الأرض. قالت: «آسفة»، وتناولت قطعة من مناديل المطبخ، ثم جثت أرضًا حتى تمسح الشاي الذي انسكب، «يا إلهي!». ظلّت جاثمة هناك، رأسها مطرق وذراعاها متدليتان إلى جانبيها. دفنت وجهها بين ركبتيها. غمغمت قائلة: «أنا آسفة. أنا آسفة».

مدت إيرين يدها فوضعتها برفق على كتف كارلا. قالت لها: «لا بأس عليك». فوجئت قليلًا بأن يبدو هذا الضعف على كارلا، «هيا، هيا، انهضي».

نهضت كارلا واقفة. كانت تبكي. ما كان بكاؤها مرتفع الصوت، ولا كان تظاهرًا بالبكاء، بل صامتٌ، محتشمٌ -إنه أسلوب كارلا- دموع تنحدر أنيقة وتجري على وجنتيها ثم تقطر على ياقة قميصها البيضاء الصلبة. أغمضت عينيها وضغطت على وجنتيها براحتي يديها.

بنبرة رقيقة، قالت لها إيرين كأنها تحاول تهدئة طفل صغير، أو حيوان: «هيا الآن. تناولي شايَك. ها هو؟ خذيه». قالت هذا، ثم قادت كارلا من المطبخ إلى غرفة المعيشة حيث جلستا جنبًا إلى جنب، على الأريكة.

قالت كارلا بعد حين: «كانت لديّ بضعة أشياء في حقيبة. ملابس وعلبتا حليّ. كانت الحقيبة معي عندما أتيت إليك اليوم - أعني يوم أمس... مهما يكن! أنا واثقة من أن تلك الحقيبة كانت معي».

«لكنك لا تستطيعين العثور عليها الآن».

أومأت كارلا برأسها.

«هل كانت الحلي قيّمة؟».

رفعت كارلا كتفيها. قالت: «ليس كثيرًا. لست أدري... خاتم خطوبة أمي. أظنه ذا قيمة. لكن في الحقيبة أيضًا ميدالية سان كريستوفر. لقد كانت لابني».

«أوه، كارلا!».

«لا أستطيع أن أفقدها. لا أستطيع. اشتريناها يوم عمّدناه. ونقشنا عليها الحروف الأولى من اسمه». هزّت رأسها محاولة إبعاد الدموع عن عينيها، «لم يحملها أبدًا -بالطبع- لأنه كان صغيرًا جدًا. لكنه كان يحب النظر إليها؛ يحب إخراجها من علبتها. كان يحب أن يلعب بها. تعرفين كيف هم الأطفال. لكني كنت أقول له دائمًا إنه لا يستطيع إبقاءها معه لأنها ثمينة. كنت أقول له إن عليه أن يتركها في علبتها، وإنني أحفظها فيها من أجله... سوف أحافظ عليها من أجله. وعدته بالمحافظة عليها. وقد حافظت عليها طيلة هذا الوقت. لكن، الآن...» قطعت كلامها، وأشاحت بوجهها.

قالت إيرين: «آه. أنا آسفة جدًا. لكن، لماذا أتيت بها إلى البيت؟ هل كنت في طريقك إلى مكان آخر؟ هل توقفت في أي مكان؟ لعلك توقفت في متجر، ولعلك وضعت الحقيبة من يدك...».

«لا، لا. لم أذهب إلى أي مكان آخر. لقد كنت... فقط، أردت أن تكون معي، تلك الأشياء. أردتها أن تكون معي عندما...» أشاحت بوجهها من جديد.

«عندما ماذا؟». لم تفهم إيرين شيئًا.

قالت كارلا: «لقد كنت... كنت في يأس شديد». التفتت إليها من جديد فالتقت عيونهما.

وضعت إيرين يدها على فمها. لقد فهمتُ الآن. قالت لها: «أوه، يا كارلا! أوه، لا!».

هزّت كارلا رأسها من جديد. قالت: «لا أهميّة للأمر. لا أهميّة للأمر».

«بل هو مهم. مهم، بالطبع». وبرفق، وضعت يدها فوق يد كارلا «ابنك، ثم أختك، ثم دانييل بعد وقت قصير جدًا - هذا ما يصعب احتماله كثيرًا».

ابتسمت كارلا وسحبت يدها. مسحت الدموع عن وجنتيها. قالت لها: «ما كان حظّي وافرًا».

قالت إيرين: «أنت في حزن عظيم. لا تستطيعين التفكير السليم عندما تعيشين هذا الحزن كله. مررت بمثل هذا عندما فقدت زوجي. فكّرت في الأمر. فكّرت في إنهاء كل شيء. لم أر معنى في الاستمرار، في الاستمرار وحدي من غير أحد معي. لكن أختك انتشلتني من هذا... هل تعرفين؟ ظلت تأتي إليَّ وتجلب تلك المعجنات الصغيرة التي تحبها، المعجنات باللوز... هل هي سويدية؟ لعلها دانماركية! أو تجلب حساء بعض الأحيان، أو قهوة فقط. مهما يكن. تجلس وتثرثر معي. تكلّمني عما تقرأه، وأشياء من هذا القبيل. لقد أنقذت حياتي. أنقذت أنجيلا حياتي».

بدا وجه كارلا كأنه صار مظلمًا. أدارت رأسها مشيحة بوجهها.

قالت إيرين: «أعرف أن الأمور لم تكن حسنة دائمًا بينك وبينها. لكنها كانت تحبك. و... أعرف أيضًا أنك أحببت دانييل. أليس ما أقوله صحيحًا؟ كان يعني الكثير».

نهضت كارلا واقفة على قدميها. قالت بنبرة مقتضبة، «عليك أن تعودي إلى فراشك، لقد جعلتك تسهرين حتى وقت متأخر». حملت فنجانها وعادت به إلى المطبخ.

قالت إيرين: «الحقيقة، هي أنني لا أنام جيدًا. إذا أردت أن ترتاحي هنا، فلا بأس. إذا...».

قالت كارلا، «أوه، لا». قالتها كأن تلك الفكرة غير واردة أبدًا. كانت قد عادت من المطبخ وقد انمحى من وجهها كل أثر لمشاعرها. وقفت بالباب منتصبة الظهر، ذقنها مرفوعة صوب السقف، فمها خط مستقيم. قالت لها: «لا تنهضي، يا إيرين، من فضلك. أشكرك على الشاي. وأعتذر عما سببته لك من إزعاج. سأذهب الآن إلى البيت حتى لا أزعجك أكثر مما فعلت».

«كارلا، أنا...»، توقفت إيرين عن الكلام لحظة. أرادت أن تقول لها شيئًا مطمئنًا، شيئًا باعثًا على التفاؤل، شيئًا موحيًا بالمصالحة. عجزت

عن التفكير في أي شيء. بدلًا من ذلك قالت لها: «ستكونين بخير، أليس كذلك؟».

مرّت لحظة بدا على كارلا أنها لم تفهم السؤال. لكن وجهها تورّد بعد ذلك. قالت: «أوه، يا ربي! نعم، بالطبع. لا تتركي هذا الأمر يقلقك. لست واثقة من أنني كنت سأفعل ذلك حقًا. تخيُّل فعله أمر، والواقع أمر آخر، أليس كذلك؟». توقّفت لحظة ثم قالت، «لقد جلبت رسن الكلب». ارتعدت إيرين. أحسّت جلدها ينكمش من أسفل ظهرها حتى رقبتها عندما تخيّلت ذلك، عندما تخيّلت جثة أخرى في البيت المجاور، جثة تنتظر من يكتشفها، تنظر خلف تلك الجدران الرقيقة كالورق.

كانت كارلا تقول: «ليس كلبي، بطبيعة الحال، ليس لديَّ كلب. إنه كلب زوجي السابق. لكن أظن أنني -في مكان ما في اللاوعي- كنت أحاول ضمان ألا أفعل ذلك». ابتسمت ابتسامة غريبة كأنها تبتسم لنفسها، «أظنني أدركت إدراكًا خفيًا أنني سأفكر في رسن الكلب وأفكر في كلبه الصغير... أنني سأفكر في أنه أحب الكلب كثيرًا، وأنه أحبني كثيرًا... من شأن هذا أن يشد أزري». رفعت كتفيها ورقّت ملامحها، «على أية حال، هكذا أفكر الآن». على نحو مفاجئ، تذكرت إيرين ما جرى. قالت لها: «أوه. نسيت أن أقول لك إن زوجك السابق أتى باحثًا عنك. لقد كان هنا...».

«هنا؟».

«ليس هنا... في الخارج، في الزقاق. كان يدق باب أنجيلا. لم أعرفه أول الأمر، لكنني تذكرت أنه أتى في مرة سابقة. لقد رأيته واقفًا هناك يحدّث أنجيلا، لذا...».

هزت كارلا رأسها. قالت لها، «لا. لا يمكن أن يكون هو الشخص الذي رأيته. ليس ثيو».

«بل هو نفسه. كان الأمر، بالتأكيد،...».

«إيرين، أنت مخطئة. لا يمكن لزوجي أن...».

ظلت إيرين مصرة، «رأيته معها. رأيتهما واقفين هناك، في الزقاق. كانت تبكي. كانت أنجيلا تبكي. أظنهما كانا يتجادلان».

«إيرين...»، علا صوت كارلا، وظهرت على خديها بقعتان داكنتان «لم يكلم ثيو شقيقتي. لا بد أن...».

قالت إيرين: «كان كلبه الصغير معه. كلب صغير من نوع لا أستطيع تحديده... لونه أسود وبني».

رفرفت عينا كارلا عندما سمعت ذلك. سألتها: «هل رأيته مع أنجيلا؟». أومأت إيرين برأسها، فسألتها: «متى كان ذلك؟».

«لست واثقة. كان ذلك في...».

«كم مرة؟».

«تلك المرة فقط، على ما أظن. كانا واقفين في الخارج، في الزقاق. وكانت أنجيلا تبكي».

«متى، يا إيرين؟».

قالت إيرين: «أسبوع، أو أسبوعان، قبل وفاتها».

بعد صعود إيرين إلى غرفة نومها واستلقائها في سريرها، رقدت تنظر إلى الضياء الرمادي المتسلل عبر فرجة الستارة. كاد الصباح يأتي. لقد عادت إلى فراشها مستنفدة القوى، عارفة أن من المستبعد أن تقدر على النوم. كان صحيحًا ما قالته لكارلا عن أرقها، فقلة النوم ليست إلا واحدًا من الآثار الجانبية للتقدم في السن. لكنها الآن في شك من أنها ستنام... بصرف النظر عن عمرها وبصرف النظر عن مشاعرها. إن الدهشة الكبيرة التي ظهرت على وجه كارلا عندما أتت إيرين على ذكر زيارة ثيو مايرسون كفيلة بأن تبقيها مستيقظة مهما تكن مرهقة.

- 19 -

«ألن. اللعنة على هذا... ألن تسمحي لي بالدخول؟».

التاسعة والنصف صباحًا تحت المطر المتواصل. لورا واقفة على الرصيف أمام محلّ تنظيف الملابس. أنفاسها متقطعة ولا ترى، إلّا على نحو ضبابي، عبيد الرواتب مارّين بها مسرعين، تحت مظلاتهم، ملتفّين من حول المعتوهة الواقفة هناك، حريصين على إبقاء مسافة بينهم وبينها، المعتوهة التي بدأت الآن تلوّح بحقيبتها الظهرية ثم تقذف بها باب المحل بأقصى قوّتها. كانت تصيح: «الأمر لا علاقة له بالعمل. لست أبالي بهذه الوظيفة. تستطيعين دسّ الوظيفة اللعينة في مؤخرتك. لا أريد إلا أن أكلم تانيا. ماذا بك، يا مايا؟ دعيني أدخل».

كانت مايا واقفة إلى الجهة الأخرى من الباب الزجاجي طاوية ذراعيها على صدرها. باردة، غير مبالية. صاحت بها: «لورا، عليك أن تهدأي. سوف أعطيك ثلاثين ثانية، هل تفهمين؟ حتى تهدأي وتنصرفي. إذا لم تذهبي، فسوف أطلب الشرطة. هل تفهمين ما أقوله لك، يا لورا؟».

جثمت لورا على الأرض. عضّت على شفتها بقوة. أحسّت موجة غثيان تغمرها مع فيض الأدرينالين في جسدها. امتلأ فمها لعابًا. خفقان قلبها يوشك على تفجيره. التقطت زجاجة بيرة فارغة كانت عند حافة الرصيف. رفعت ذراعها.

يد أمسكت بها وجذبت ذراعها بحركة عنيفة إلى الخلف فصارت خلف ظهرها. أحسّت كتفها تلتوي التواء مؤلمًا فصاحت وأسقطت الزجاجة من قبضتها. أفلتتها اليد.

سألها صوت نسائي: «بحق الرب، ماذا تظنين نفسك فاعلة؟». استدارت لورا. يدها اليسرى تدعك كتفها اليمنى التي آلمتها. وجدت أن الـ«هوبيت» هي التي أمسكت بها.

هكذا كانوا يدعونها في محل تنظيف الملابس لأنها قصيرة القامة، غزيرة الشعر، تبدو كأنها تعيش في جحر أو وكر، أو في شيء من هذا القبيل. اتضح لهم بعد ذلك أنها تعيش في زورق فكان هذا، في حدّ ذاته، أمرًا شديد الغرابة.

«ماذا؟...». كان وجه المرأة عابسًا، حائرًا أكثر منه غاضبًا. ذكّرها هذا بوجه أبيها عندما يغضب منها، لكنه كان يحاول إنكار غضبه والقول لها، *لست غاضبًا، يا دجاجتي. أنا محبط!* قالت لورا بصوت خافت: «لا يريدون السماح لي بالدخول». انجلى عنها ذلك الضباب الأحمر؛ انجلى عنها سريعًا مثلما حلّ عليها، «لا تريد أن تسمح لي بالدخول. وأنا لا أريد أبدًا إثارة أية مشكلة. لا أريد شيئًا غير أن أكلّم تانيا في أمر من الأمور. بل إن هذا لا علاقة له بالمحل، وليس حتى...». كفّت لورا عن الكلام. لا معنى للكلام. لا معنى لأي شيء. تهاوت جالسة على حافة الرصيف. أسندت ذقنها إلى ركبتيها، «ما كنت أريد إثارة أية مشكلات».

استندت الهوبيت على كتف لورا وجلست متثاقلة إلى جوارها. قالت لها بصوت أجش: «لا بأس، لست أدري إن كان رمي الزجاجات الفارغة هنا وهناك طريقة حسنة من أجل عدم إثارة أية مشكلات».

التفتت لورا إليها. ابتسمت الهوبيت كاشفة عن أسنان صفراء معوجّة.

قالت لورا: «لا أستطيع تذكّر اسمك».

أجابت المرأة: «ميريام». ربتت على ركبة لورا. قالت لها: «أفهم الآن أنك ما عدت تعملين هنا. لاحظت أنك انقطعت عن المجيء».

قالت لورا حزينة: «طُردت من عملي. تغيّبت مرتين متتاليتين. لم

تكن تلك أول مرة أتخلّف فيها عن عملي. ثم إنني لم أتصل بمايا لكي أخبرها. هذا ما جعلها غير قادرة على حضور عيد ميلاد حفيدها. أمر سيئ فعلًا. لكن المسألة هي أنني لم أقصد فعل هذا... لم أقصد فعل أي شيء». إنه ليس ذنبي. من جديد، ربتت ميريام على ركبتها. قالت لها: «يؤسفني هذا. أمر فظيع. أمر فظيع أن يفقد المرء عمله. أعرف كيف يكون ذلك. هل تحبّين أن نذهب إلى مكان ما لكي نتناول فنجان شاي؟ أود أن أساعدك». تزحزحت لورا قليلًا كأنها تريد الابتعاد عنها، «وجدت نفسي، مرة أو مرتين، في حاجة إلى الاعتماد على لطف أشخاص غرباء. أعرف كيف يكون إحساس المرء عند ذلك. في البداية، قد يرى الأمر مقلقًا، أليس كذلك؟». أومأت لورا برأسها فتابعت ميريام كلامها مبتسمة لها ابتسامة لطيفة، «لكني أظن أنك ستجدينا، أنا وأنت، متشابهتين كثيرًا».

قالت لورا في نفسها، لا، *لسنا متشابهتين أبدًا!*، لكنها أفلحت في ألا تقول شيئًا لإدراكها أن تلك المرأة تحاول أن تكون لطيفة معها.

«وبعد ذلك، بعد أربع سنين من الحادثة، تزوجت أمي الرجل الذي صدمني بسيارته عندما كنت على دراجتي...». توقفت لورا لحظة لكي تسكب الحليب في فنجانَيّ الشاي اللذين أعدَّتهما. ناولت ميريام الفنجان الأحسن حالًا، «أشياء من هذا النوع تدمّرك تدميرًا. لا شك في ذلك. أعني... واضح أنك تتحطّمين جسديًا إذا صدمتك سيارة. يُلحق بك هذا ألمًا وندوبًا وأضرارًا كثيرة، أليس كذلك؟». أشارت بيدها إلى الأسفل، إلى ساقها العرجاء... «لكن الأمر الآخر يظل أكثر سوءًا. الدمار العاطفي هو الأسوأ... الدمار الذهني. هذا ما يدمرك دمارًا لا شفاء منه».

تناولت ميريام رشفة من كأسها. أومأت برأسها وقالت: «أتفق معكِ تمامًا».

جلست لورا على كرسيها. قالت: «لذا، أنا أفعل الآن أشياء... أشياء غبية، أحيانًا، مثلما حدث هذا الصباح، أو مثل... لا يهم! ليس الأمر أنني أقصد فعل ذلك، أو أنني أقصد فعله أحيانًا، لكن الأمور تجري كأن هناك شيئًا يتحرّك، شيئًا لا أستطيع إيقافه. لا أستطيع غير أن أقوم بردّة فعل، وأن أحاول درء الضرر عن نفسي. أحيانًا، عندما أفعل ذلك، ينتهي الأمر بأن أوقع ضررًا بأشخاص آخرين... لكنني لا أتعمّد فعل ذلك. لا يكون تصرفًا ناتجًا عن قرار اتخذته». أومأت ميريام برأسها من جديد، «هل تعرفين أن الناس يسخرون مني؟ أناس كثر من بينهم زوجة أبي، أو المعلمون، أو الشرطة، أو مايا، أو غيرها... عندما أقول إن الذنب ليس ذنبي. كأنهم يقولون لي عندها: لا بأس، ذنب مَنْ إذًا؟».

كانت جانين، والدة لورا، تقف في الممر أمام البيت تنظر إلى أوعية إطعام الطيور المعلّقة من أغصان شجرة التفاح. ينبغي ملؤها. لكنها لا تعرف إن كان باقيًا لديها شيء من طعام الطيور. لا تريد أن تذهب إلى المتاجر الآن. الثلج يتساقط منذ فترة؛ وسوف تكون الطرقات سيئة جدًا. أغمضت عينيها واستنشقت نفسًا عميقًا مستمتعة بدخول الهواء البارد إلى رئتيها. مستمتعة بالهدوء الذي يكاد يكون تامًا - هدوء قطعه على نحو مفاجئ عنيف زعيق مكابح سيارة. أعقب ذلك صمت طويل متثاقل، ثم صوت اصطدام مخيف. كان طول الممر أمام البيت نحو مئتي ياردة؛ وكانت الأشجار مصطفّة على جانبيه. وفي آخر الحديقة حافة مرتفعة لا تسمح برؤية ما يحدث في الطريق. لكن جانين عرفت. قالت للشرطة -عندما أتت الشرطة- إنها أدركت أن شيئًا فظيعًا قد حدث.

كانت السيارة قد اختفت. لورا راقدة في الطريق. ساقاها معوجّتان اعوجاجًا غريبًا. عندما جثت جانين إلى جوار طفلتها، رأت دمًا يقطر بطيئًا من مؤخرة الخوذة الواقية على رأس لورا ويسقط على الإسفلت الرطب، الزلق. مدت يدها إلى جيبها باحثة عن هاتفها فلم تجده. بدأت

تصرخ وتصرخ، لكن أحدًا لم يأت لأن أقرب بيت كان على مسافة نصف ميل.

أرادت الشرطة معرفة ما رأته جانين، وإن كانت واثقة من أنها لم تر السيارة، ولو لمحة خاطفة... لعلها تستطيع تذكر لونها! هزت جانين رأسها وقالت: «الذنب ذنبي. إنه ذنبي».

قالت لها الشرطية: «لا، ليس ذنبك، يا سيدة كيلبرايد! إنه ذنب سائق السيارة التي صدمت لورا». أحاطت الشرطية كتفي جانين بذراعها وضمّتها إليها، «سوف نعثر عليه، أو عليها. سوف نعثر على من فعل هذا. لا تقلقي، فهو لن يفلت بفعلته». خلّصت جانين نفسها منها. حدّقت فيها. كانت شاحبة الوجه، مذعورة.

ثم عثروا على السيارة. التقطت كاميرا المراقبة المنصوبة في الشارع على مسافة نصف ميل سيارتين تمران هناك خلال الدقائق القليلة عقب الحادثة: الأولى سيارة امرأة مسنّة لم يجدوا عليها أية آثار أو علامات توحي بأي اصطدام. وكانت السيارة الثانية لرجل اسمه ريتشارد بليك يتاجر بالأعمال الفنية والأنتيكات ويعيش في بيتوورث الواقعة على مسافة بضعة أميال. قال للشرطة عندما وجدته في مكان عمله إن سيارته سُرقت في الليلة السابقة. لم يبلّغ عن سرقة السيارة. وبينما كان عناصر الشرطة يهمون بالانصراف، سألهم ريتشارد بصوت مختنق: «هل ستكون الطفلة بخير؟».

سألته الشرطية: «مَنْ التي تسأل إن كانت ستكون بخير؟».

قال من غير تفكير وهو يعصر كفيه: «الفتاة الصغيرة».

«سيد بليك، قلت لك إن ضحية الحادثة كان طفلًا، لم أقل إنها أنثى. كيف عرفت أن الضحية فتاة؟».

ما كان ريتشارد بليك رجلًا صاحب عقل إجرامي يقظ!

هكذا جرى الأمر. هذا ما اعتقدته لورا. هذا ما قالوه لها. لذا، كان

هذا ما اعتقدته. (ليس لنا أن ننسى أنها لم تتجاوز العاشرة من عمرها).

بطبيعة الحال، لم تعتقد لورا أي شيء أول الأمر، ولم تظن شيئًا. لقد كانت في غيبوبة. ظلّت فاقدة الوعي اثني عشر يومًا. وعندما استيقظت آخر الأمر، وجدت أمامها عالمًا جديدًا، عالمًا أتاها بحوض مكسور وقصبة ساق مكسورة كسرًا مضاعفًا، وجمجمة محطّمة... عالمًا كان بالنسبة إليها كأن أحدًا قد أعادها فيه إلى «إعدادات المصنع»... أعادها إلى نقطة الصفر. صار عليها أن تتعلم الكلام من جديد، والقراءة، والمشي، والعدّ حتى العشرة.

لم تتذكّر شيئًا عن الحادثة نفسها، ولا أي شيء من الشهور التي سبقتها - المدرسة الجديدة، والبيت الجديد، ودراجتها الجديدة: اختفى ذلك كله. ظلّت لديها ذكريات غامضة عن بيتهم القديم في لندن، وعن القطة التي كانت لدى الجيران. وأما غير ذلك، فكان كل شيء غارقًا في ضباب كثيف.

مع هذا، ومع مرور الوقت، بدأت الذكريات تعود إليها شيئًا بعد شيء. قالت لأبيها بعد انقضاء بضعة أسابيع على خروجها من المستشفى: «البيت الذي نعيش فيه الآن... إنه واقع على سفح تلة، هل هذا صحيح؟».

ابتسم لها أبوها: «إنه صحيح. فتاة ذكية! هل تتذكرين شيئًا آخر؟».

«كوخ». قالت هذا فأومأ برأسه. تجهّم وجهها. قالت: «كانت السيارة خضراء اللون».

هزّ أبوها رأسه وظهرت على شفتيه ابتسامة حزينة. قال لها: «بل هي حمراء، يا دجاجتي. إن لديّ سيارة فولفو حمراء».

قالت: «لا، لا أعني سيارتنا. السيارة التي صدمتني. كانت خضراء اللون. لقد خرجت من ممر بيتنا. كانت خارجة من بيتنا لحظة وصولي».

اختفت الابتسامة عن وجه أبيها. «أنت لا تتذكرين الحادثة، يا دجاجتي! لا تستطيعين تذكر الحادثة».

عندما أتت أمها تزورها بعد أيام من ذلك، (بدا لها غريبًا أنهما لا يأتيان معًا لزيارتها)، سألت أمها عن السيارة التي صدمتها، «كانت خضراء اللون، أليس كذلك؟ أنا واثقة من أن لونها كان أخضر».

تشاغلت أمها عنها بترتيب البطاقات التي أتتها حاملةً لها تمنيات مرسليها بالشفاء السريع، وبصفّها على طوار النافذة. قالت لها: «تعرفين أنني لست واثقة من ذلك. الحقيقة أنني لم أر السيارة فعلًا».

كاذبة!

كانت جانين، والدة لورا، تقف في الممر أمام البيت، مرتعشة من البرد، منتعلة حذاء من صنع UGG، ملتفة بثوب حمّام حريري ذي لون أصفر ذهبي. لا يزال جلدها متوهجًا بعد ممارسة الجنس. لم ينتبها إلى الوقت. كانا لا يزالان في الفراش عندما وقعت عينها على ساعة يد زوجها على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير. قالت: «أوه، حان وقت عودة لورا إلى البيت!».

ارتدى ريتشارد ملابسه على عجل. كاد يقع عندما وضع ساقه في بنطلونه. كان الاثنان يضحكان وهما يتّفقان على موعد اللقاء التالي. رافقته حتى الباب، ثم قبّلته بعد جلوسه في السيارة. قال لها إنه يحبها. ظلت واقفة في أول الممر. رأسها مرتدٌّ إلى الخلف، عيناها تنظران إلى ندفات الثلج المتساقطة. فتحت فمها حتى تحس الثلج على لسانها. ترددت كلماته في رأسها، ثم سمعت الصوت ففهمت: وقع لريتشارد أمر مريع.

جرت خارجة إلى الطريق. كانت السيارة أول ما رأته، سيارة مرسيدس لونها أخضر داكن متوقفة وسط الطريق، منحرفة انحرافًا غير طبيعي. عندها، رأت ريتشارد نفسه خلف السيارة. كان راكعًا، ظهره في اتجاهها. كتفاه متهدلتان. وعندما اقتربت، رأت أنه يبكي، رأت دموعه تتساقط على جسد طفلتها المحطم.

«أوه، يا إلهي! أوه، يا إلهي! أوه، أرجوك، يا إلهي، لا! أرجوك،

يا إلهي، لا! كانت في الطريق، يا جانين. كانت وسط الطريق! أوه، يا ربي! لا، يا إلهي! أرجوك، يا إلهي!».

أمسكته جانين من ذراعه وبدأت تشدّه حتى وقف على قدميه. قالت له: «عليك أن تذهب». بدا صوتها باردًا، موضوعيًا، حتى في أذنيها، «عليك أن تصعد إلى سيارتك وتذهب. اذهب الآن! اذهب الآن، يا ريتشارد! سوف أهتم بها. انطلق».

«إنها تنزف، يا جانين. هذا سيئ، آه، يا ربي! آه، يا ربي!».

قالت له من جديد: «عليك أن تذهب». بدأت تصرخ عندما رأت أنه لم يتحرّك من مكانه: «الآن، يا ريتشارد! ارحل! اذهب الآن! أنت لم تكن هنا. أنت لم تأت أبدًا».

كاذبة، كاذبة!

سوف يظهر هذا كله بعد حين. كانوا يقولون للورا، كلهم (أي أبوها وأمها والطبيب والطبيب النفسي) ألا تبحث في غوغل عن أي شيء متّصل بالحادثة، لأن هذا لن يكون مفيدًا، ولن يفعل شيئًا غير إزعاجها وإثارة ذعرها. سيجعلها ترى كوابيس. لكن لورا كانت في شك من ذلك... صحيح أنها لم تكمل سنتها الحادية عشرة إلا منذ حين، لكنها لم تولد اليوم! يظنونها لا تفقه شيئًا، لكنها شكّت في الأمر. كانت محقة في شكّها!

كان أول ما عثرت عليه عندما بحثت عن اسمها في غوغل مقالة صحافية تحت عنوان «حبس رجل في جريمة صدم وهرب». رأت تحت العنوان صورة لها في زي المدرسة. بدت في تلك الصورة فتاة حمقاء تبتسم للكاميرا ابتسامة غبية. بدأت القراءة:

صدر يوم أمس حكم بالحبس على تاجر الأعمال الفنية ريتشارد بليك الذي سيظل في السجن أربعة شهور بعد إدانته بجريمة صدم وهرب أوقعت إصابات خطيرة بتلميذة في الحادية عشرة من عمرها اسمها لورا كيلبرايد.

أعادت لورا قراءة تلك الفقرة. ريتشارد!؟

لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا. تعرف ريتشارد. كان ريتشارد الرجل الذي يقدّم دروس الفن التي تذهب أمها إليها. ريتشارد رجل لطيف له وجه ودود، منفتح. يضحك دائمًا. كانت لورا تحب ريتشارد لأنه لطيف معها. ذات مرة، لعبا معًا كرة القدم في ساحة وقوف السيارات ريثما تفرغ أمها من التسوق في السوبر ماركت. لا يمكن أن يكون ريتشارد هو من فعل هذا بها. لا يمكن أن يكون قد قاد سيارته مبتعدًا وتركها من غير أن يطلب الإسعاف.

لكنها سرعان ما نسيت ما اكتشفته عن ريتشارد، أنستها إياه الصدمة التي تلت ذلك:

كان السيد بليك البالغ خمسة وأربعين عامًا، الذي أقرّ بأنه مذنب لأنه لم يتوقف ولأنه لم يبلغ عن الحادثة، على علاقة بجانين كيلبرايد، والدة الطفلة، وقت وقوع الحادثة. وصلت السيدة كيلبرايد البالغة ثلاثة وأربعين عامًا إلى مكان الحادثة بعد لحظات من وقوعها فطلبت سيارة إسعاف من أجل ابنتها، لكنها قالت للشرطة إنها لم تر السيارة التي صدمتها. فُرضت عليها غرامة بقيمة 800 جنيه لإدلائها بمعلومات كاذبة أمام الشرطة.

عندما تتذكّر لورا تلك الفترة، تعتبر لحظة قراءتها المقالة بداية النهاية. بالطبع، كان جسدها محطمًا، وكانت وظائف دماغها متضررة؛ لكن من الممكن أن يُشفى المرء من ذلك النوع من الإصابات. وأما هذا!؟ كان إدراكها أنهم كذبوا عليها -أبوها وأمها وكل من كان يعتني بها- ضربة قاضية. كانت ضربة من النوع الذي ينهي أمرك، من النوع الذي لا سبيل بعده إلى التعافي أبدًا. تلك المعرفة، وذلك الشعور بالخيانة الذي يأتي معها، هما ما غيّراها. ألحقا بها أذيّة لا تزول.

لقد جعلاها غاضبة دائمًا!

- 20 -

كانت ميريام قادرة على تمييز السلع المعطوبة عندما تراها. يتكلّم الناس دائمًا عن العيون، وعن تعابير الوجه الموحية بالاحتراس، والنظرات التي تسكنها أشباح الماضي... وذلك النوع من الأشياء. أمر ممكن، هكذا كانت ترى ميريام... لكنه يكون أكثر وضوحًا من خلال الحركات، ومن خلال وقفة الشخص. بطبيعة الحال، ما كانت قادرة على رؤية هذا في نفسها، لكنها قادرة على الإحساس به. قد تكون الآن ثقيلة الوزن، متقدّمة في السن، بطيئة أيضًا، لكنها لا تزال واقفة على قدميها. لا تزال حذرة، محترسة. لا تزال مستعدة لتلك اللحظات التي تندفع فيها الدماء إلى الرأس.

رأت ميريام ما كانت لورا تفعله أمام محل تنظيف الملابس، فاغتنمت فرصتها. كان تدخلها سريعًا: حملت حقيبة لورا الظهرية، واعتذرت من مالكة المحل الساخطة، ثم عرفت كيف تبتعد بالفتاة. عرضت عليها شرب فنجان شاي في زورقها، لكن لورا رفضت عرضها. أمر مفهوم في ظل الظروف الراهنة. عندما يفكر المرء في المشكلات التي ورّطت نفسها فيها نتيجة نزولها إلى القناة آخر مرة، يصير الأمر مفهومًا.

بدلًا من ذلك، ذهبتا إلى شقة لورا. كان الصعود إلى شقتها محنة، من غير مبالغة. تعيش لورا في شقة يملكها مجلس المدينة وتقع في برج سكني فوق «سبا فيلدز»، في الطابق السابع. وكان المصعد معطلًا. ما كانت ميريام واثقة من قدرتها على الصعود تلك المسافة كلّها؛ وكان لا بد لها من التوقف مرات كثيرة. تتقطع أنفاسها، ويتصبب عرقها. على

السلم، أشخاص ذوو مظهر زريّ، يضحكون ويمزحون... *ما هذا، يا أختي؟ هل داهمت جدّتك نوبة قلبية؟*

لكن رحلة التسلّق الصعبة تلك بدت لها أنها تستحق العناء. بدت لها كذلك بعد أن وصلت. ليس في المكان أثر لرائحة القناة النتنة. له إطلالة أيضًا، إطلالة رائعة! برج كنيسة سان جيمس على مقربة من تلك البقعة. ومن خلفه، أبراج «باربيكان» الضخمة، الوحشية، ثم روعة كاتدرائية سان بول الهادئة. وفي البعيد، واجهات المباني الزجاجية في المدينة لامعة تحت ضياء الشمس. لندن بمجدها كله، لندن التي ينسى المرء أمرها عندما يكون أنفه قريبًا من الأرض.

لكن لورا بدت غير منتبهة إلى هذا كله. لقد اعتادت المشهد! هذا ما افترضته ميريام... ثم إنها متألمة: كان عرج ساقها يزداد ظهورًا كلما صعدت طابقًا. بلغتا آخر الأمر باب شقة لورا، فسألتها ميريام عن ساقها العرجاء؛ سألتها بطريقة مهذّبة أرادت منها أن تكون تعبيرًا بسيطًا عن اهتمامها، وقد توقّعت إجابة من النوع المألوف... التوى كاحلها، أو سكرت فسقطت. لكنها استمعت، بدلًا من ذلك، إلى حكاية مرعبة يصعب تصديقها. والدان فظيعان، وحادثة مخيفة، وتركُها تواجه قدرها بنفسها. حزنت ميريام عليها كثيرًا. بداية للحياة من هذا النوع!؟ لا عجب أبدًا في أن تصير «سمكة غريبة».

ازداد تعاطفها مع الفتاة عندما رأت شقتها الصغيرة ذات المظهر المحزن. قطع أثاث قبيحة، رخيصة، وسجادة رمادية مصنوعة من الأكريليك، وجدران صفراء بلون النيكوتين. كان هذا منزل طفلة من غير أهل: لا أغطية ملوّنة على المقاعد، ولا وسائد، ولا زينات، ولا معروضات تذكارية، ولا كتب على الرفوف، ولا ملصقات على الجدران... لا شيء أبدًا إلا صورة فوتوغرافية في إطار. صورة فيها طفلة مع والديها. استراحة للعين من ذلك القحط الذي يجلل الشقة كلها... استراحة للعين إلى أن يقترب المرء منها مثلما فعلت ميريام

عندما خطت من فوق كومة ملابس مرميّة على الأرض فانكشفت لها حقيقة الصورة: عينا الطفلة ممزقتان، وفمها بلون الدم. نظرت ميريام إلى الصورة فأجفلت. وعندما استدارت، رأت لورا تنظر إليها وعلى وجهها تعبير غريب. سرت قشعريرة في جلدها. سألتها بصوت أرغمته على أن يبدو مرحًا: «وماذا الآن؟ هل نتناول فنجان الشاي الموعود؟».

(سلع معطوبة؛ سمكة غريبة - من عساه يعرف ماذا يجري من خلف تلك العينين الجميلتين؟). شربتا الشاي في المطبخ، ثم خيّم عليهما صمت غير مريح. قررت ميريام أن تغامر، أن تتكلّم. قالت: «هل تعرفين أنني أعرفك؟». وفي جيبها، كانت أصابعها تعبث بالمفتاح الذي التقطته عن أرضية الزورق... المفتاح وحمّالة المفاتيح المعلّق منها.

رشقتها لورا بنظرة حادّة ثم قالت: «طبعًا، تعرفينني من محل تنظيف الملابس. واضح».

هزت ميريام رأسها. ظهرت على شفتيها ابتسامة صغيرة. قالت لها: «ليس هذا فحسب. أعرف السبب الذي جعلك غير راغبة في النزول إلى القناة». رأت تعابير وجه الفتاة تتغير من الضجر إلى الذعر، «لا داعي للقلق! أنا في صفك. أعرف أنك أنت من كانت الشرطة تستجوبها في ما يخصّه... فيما يخص دانييل ساذرلاند».

«كيف عرفت هذا؟». توترت الفتاة. صارت مستعدة لأن تتحرك، لأن تقاتل، أو تفرّ.

قالت ميريام: «أنا من عثر عليه. إن زورقي -الزورق الأخضر الجميل الذي له حواف حمراء، اسمه لورين، لعلك رأيته- إن زورقي راس على مسافة ياردات قليلة من حيث كان...». ابتسمت للورا مانحة إياهًا وقتًا كافيًا لأن تستوعب ما قالته، «أنا من عثر عليه. أنا من عثر على جثته. أنا من اتصل واستدعى الشرطة».

اتسعت عينا لورا. قالت لها: «هل أنت جادة؟ اللعنة! لا بد أن هذا كان شيئًا بشعًا... أعني... رؤيته... أعني كل الدم... مشهد دامٍ».

قالت ميريام: «كان مشهدًا بشعًا». تذكّرت الجرح في رقبته؛ وتذكرت بياض أسنانه. تساءلَت في سرّها إن كانت لورا في تلك اللحظة ترى الصورة نفسها في ذهنها؛ وتساءلت إن كانتا في تلك اللحظة على موجة واحدة. حاولت التقاط عيني الفتاة، لكن لورا كانت تدفع بكرسيها إلى الخلف مبتعدة عن الطاولة وتنهض على قدميها، وتمدّ يدها من فوق كتف ميريام كي ترفع فنجانها الفارغ.

«هل كنت... هل رأيت الشرطة بعد ذلك الوقت؟». طرحت عليها لورا هذا السؤال بصوت مرتفع على نحو غريب، «أعني، بعد عثورك على الجثة. هل يوافونك بآخر التطورات، أو بأي شيء من هذا القبيل؟ أقول هذا لأنني أواصل متابعة الأخبار، فلا يبدو لي أن شيئًا يحدث هناك. لقد انقضى الآن أكثر من أسبوع، أليس كذلك؟... منذ أن... أعني، منذ أن تم العثور عليه. لذا...». قطعت جملتها. كانت تقف مديرة ظهرها إلى ميريام، تضع الفنجانين في المجلى.

لم تجب ميريام عن سؤالها، بل انتظرت إلى أن استدارت لورا فواجهتها من جديد. عندها تكلّمت. قالت لها: «رأيتك خارجة في الليلة التي سبقت عثوري عليه. رأيتك خارجة من زورقه».

اتسعت عينا لورا. «وماذا أيضًا؟». كان تعبير وجهها حرونًا، متمردًا، «ليس سرًّا أنني كنت هناك. قلت للشرطة أنني كنت هناك. يعرف الجميع أنني كنت هناك. لم أكذب».

قالت ميريام: «أعرف أنك لم تكذبي. فلماذا تكذبين؟ لم تفعلي شيئًا خاطئًا».

استدارت لورا من جديد. فتحت صنبور الماء وغسلت الكأسين تحت التيار المندفع. كانت حركاتها حادّة، عصبية بعض الشيء. حزن قلب ميريام عليها. كانت قادرة على رؤية مظهر الضحية في كل شيء فيها، وفي كل حركة ورعشة. سألتها بنبرة رقيقة: «ألا تريدين إخباري بما حدث؟ ألا تريدين إخباري بما فعله بك؟». حبست أنفاسها،

وجرى الدم سريعًا في عروقها. أحسّت ميريام بنفسها متأرجحة على شفير شيء مهم: ثقة. تقارب. صداقة؟ قالت لها: «أنا في صفّك».

«في صفّي؟». قالت لورا هذا وأطلقت ضحكة ازدراء قصيرة، «ليس لي صف!».

ودت ميريام أن تقول لها: *بل يمكن أن يكون لديك صف، من الممكن أن يكون لديك حليف. من الممكن أن نقف نحن الاثنتين في مواجهتهم!... أولئك الناس الذين يظنون أنفسهم مالكين السلطة، ويظنون أنه ليس لدينا شيء. نستطيع أن نبرهن على أنهم مخطئون. نستطيع جعلهم يرون أننا نستطيع أن نكون أقوياء. أنت هنا في برجك البائس هذا، وأنا في الأسفل، عند الماء. لعلنا لا نعيش في بيوت جميلة؛ ولعلنا لا نستطيع دفع تكاليف تسريحات شعر متقنة، وعطلات نمضيها في الخارج، وأعمال فنّية على الجدران، لكن هذا لا يجعلنا لا شيء.*

أرادت ميريام أن تقول أشياء كثيرة جدًا، لكن عليها أن تظل حذرة، وعليها أن تقارب هذا الأمر مقاربة بطيئة. لا تستطيع الاستعجال.

تغيير طفيف في الأسلوب حتى تختبر الأرض تحت قدميها. سألتها: «هل تعرفين –مصادفة– أي شيء عن هذه العائلة؟ أعني عائلة دانييل ساذرلاند؟».

هزّت لورا كتفيها وقالت: «أمه ميتة. ماتت منذ فترة وجيزة جدًا. قال لي إنها كانت مدمنة على الكحول. لديه خالة. التقيتها في بيت إيرين».

«من هي إيرين؟».

«صديقة لي».

سألتها ميريام: «من هي صديقتك هذه؟».

«صديقة فحسب. هذا ليس من شأنك...». ضحكت لورا، «انظري! كان الحديث معك لطيفًا، وكل شيء، لكنني أظن...».

قاطعتها ميريام: «أوه، لا بأس. أعرف أشياء كثيرة عن عائلته، وأظن أنك قد تجدين في ما أعرفه عنهم أمورًا تثير اهتمامك». كانت لورا الآن تستند

إلى طاولة المطبخ تنكش أظافرها. إنها لا تولي ما تقوله ميريام أي انتباه، «المسألة، كما ترين، أظنّها كانت هي...». قالت ميريام هذا، ثم صمتت.

رفعت لورا رأسها. سألتها: «هي!؟ من هي؟».

«أظن أن خالته قد تكون لها علاقة بالأمر».

تغضّن حاجبا لورا: «أي أمر؟».

«مقتل دانييل».

أطلقت لورا ضحكة مفاجئة، ضحكة كأنها عواء. سألتها: «خالته؟». أحسّت ميريام بوجهها يحمرّ. قالت مستاءة: «هذه ليست نكتة. رأيتها هناك. رأيتها تزوره، تمامًا مثلما زرته أنت. وأظن أن أمرًا قد وقع بينهما...». كانت لورا تنظر إليها وقد ظهر تغضّن على أنفها. تابعت ميريام كلامها: «أظن بأن -هذا هو الأمر المهم- أظن بأن زوجها، أعني زوجها السابق، ثيو مايرسون، يحاول التغطية على الأمر كله لأن...». تابعت ميريام كلامها لكنها استطاعت رؤية أن تعبير وجه الفتاة قد تغيّر من الارتياب، إلى عدم التصديق، إلى الشك فيها. صار واضحًا لها أنها بدأت تفقد ثقتها. كيف يمكن أن تكون هذه الفتاة قليلة الفهم إلى هذا الحد؟ أليست قادرة، على أقلّ تقدير، على رؤية أن من مصلحتها توجيه إصبع الاتهام إلى شخص آخر؟ أما كان واضحًا لها أن نظريّة ميريام مفيدة لها؟ قالت ميريام آخر الأمر: «قد يبدو ما أقوله بعيد الاحتمال. لكنك ستجدين أن...».

ابتسمت لورا لها. ما كانت ابتسامتها غير لطيفة. قالت لها: «أنت واحدة من أولئك الناس، أليس كذلك؟ تحبين أن تكون لك يد في ما يجري. أنت ضجرة، تعانين الوحدة، ليس لديك أي أصدقاء. تبحثين عمن يعيرك اهتمامًا. تظنين أنني مثلك. الحقيقة لست كذلك. آسفة، لكنني لست مثلك».

قالت ميريام وقد علا صوتها مُظهِرًا قنوطها: «لورا، أنت غير مصغية إليّ. أعتقد بأن...».

«لا يهمني ما تعتقدين! آسفة، لكني أظنك فاقدة العقل. فكيف أعرف حتى أنك تقولين الحقيقة؟ كيف أعرف حتى أنك رأيتني في ذلك الزورق؟ كيف أعرف حتى أنك صادقة عندما تقولين لي إنك من عثر على جثته؟ لعلك لست من عثر عليها! ولعله كان حيًّا في أحسن حال عندما دخلت زورقه! وأيضًا، لعلك أنت من غرس فيه سكينًا!».

اندفعت لورا صوب ميريام. فمها محمرٌّ، مفتوح على اتساعه. «أنت...». كانت تتقافز من حول الطاولة وتضحك، «لعل عليّ أن أطلب الشرطة الآن!...». رفعت يدها إلى أذنها متصنّعة إجراء اتصال هاتفي، «تعالوا، أسرعوا! تعالوا، أسرعوا! امرأة مجنونة في بيتي! إن في منزلي معتوهة من الهوبيت!». رمت برأسها إلى الخلف وراحت تقوقئ كأنها مجنونة، وتقفز يمينًا ويسارًا. صارت قبالة وجه ميريام اقتربت منها اقترابًا مزعجًا. تحاملت ميريام على نفسها ونهضت واقفة. ابتعدت عن لورا.

«ما مشكلتك؟».

كانت الفتاة تضحك كأن نوبة قد أصابتها. كانت غارقة في عالمها. عيناها لامعتان. أسنانها الحادّة الصغيرة ظاهرة في فمها المحمرّ.

أحسّت ميريام دموعًا تحرق عينيها. عليها أن تذهب. عليها أن تخرج من هذا المكان. ضحكات مخيفة ترنّ في أذنيها. خرجت من الشقة محاولة المحافظة على احترامها إلى أقصى حدّ استطاعته. نزلت درجات السلم الطويل بخطى متثاقلة، مرهقة، إلى أن بلغت الرصيف. نزلت درجات السلم كلّها متحركة على ساقين ثقيلتين كثقل قلبها.

بلغت ميريام منزلها باكية. كانت هذه ردّة دراماتيكية مبالغ فيها على جلافة تلك الغريبة معها؛ لكنها ما كانت ردّة فعل غير معتادة. هكذا هي... تتأثر كثيرًا بصغائر الأمور. تعرف هذا، لكن معرفتها به لا تحول دون حدوثه. لقد فقدت ميريام موهبة الصداقة منذ كانت صغيرة. موهبة تصعب استعادتها بعد اختفائها، فهي شيء مثل الإحساس بالوحدة، شيء

يبدأ فيصير قادرًا على إدامة نفسه بنفسه: كلما بذلت جهدًا أكبر في محاولة جعل الناس يحبونك، كلما تضاءل احتمال أن يفعلوا ذلك. على الفور، يدرك أكثر الناس أن فيك أمرًا غير طبيعي. هذا ما يجعلهم يبتعدون.

ما كانت النهاية أسوأ جزء في ذلك. ما كانت السخرية والهزء وتلك الإشارة المهينة إلى مظهرها أسوأ شيء. أكثر ما ساءها كان قول لورا لها: *أنت ضجرة تعانين الوحدة... وتظنين أنني مثلك!* كانت ميريام ترى هذا، ترى أن لورا مثلها. كان هذا أسوأ ما في الأمر... أن يرى الآخرون حقيقتها، وأن يعرفوا مشاعرها... أن يُقرأ المرء، ثم يُرفض.

في كابينة زورقها، في زاوية النوم، كانت لدى ميريام نسخة من كتاب «*ذلك الذي أفلت بفعلته*»، نسخة سجّلت عليها هوامش كثيرة، ووضعت علامات عند المقاطع التي رأتها مهمّة، المقاطع التي فيها ما يماثل مذكراتها. مع اقتراب صفحات الكتاب من النهاية، تصير مثقلة بكتاباتها وبحبر أزرق متفشٍّ على الورق حيث ضغطت بقلمها... ملاحظات كتبتها بخط لا يقدر على قراءته أحد غيرها، ملاحظات معبرة عن غضبها من إقدام مايرسون على تشويه قصتها، ومن كل ما أخطأ فيه... كذلك من كل ما أصاب فيه.

أشياء صغيرة تجعل حياتك تخرج عن مسارها. لكن ما وقع لميريام لم يكن أمرًا بسيطًا. لم يكن أمرًا صغيرًا. كان كبيرًا جدًا. لكنه بدأ بشيء صغير. بدأ عندما قالت لورين إنها غير قادرة على احتمال أنفاس السيد بيكتون الفائحة برائحة القهوة ساعتين كاملتين... ثم إن دروس البيولوجيا مضجرة أصلًا! لديهم تنزيلات في متجر «مس سلفريدج». كانت ميريام غير راغبة في التغيّب عن الدروس. توقّعت أن يورطهما ذلك في مشكلات لا تريدها. قالت لورين لها: «لا تكوني جبانة هكذا!».

لم تشأ ميريام مجادلتها – منذ فترة وجيزة فقط، تصالحتا بعد

خصامهما الأخير، بعد خصامهما من أجل صبي اسمه إيان غلادستون كانت ميريام معجبة به منذ زمن بعيد، لكنه أظهر ميلًا إلى لورين في حفلة من الحفلات. اكتشفت ميريام الأمر في وقت لاحق. قالت لها لورين: «آسفة، لكنه غير مهتم بك. سألتُه إن كنت تعجبينه، فقال إنه غير مهتم بك. ليس ذنبي أنه اختارني».

بعد ذلك، ظلتا متخاصمتين أسبوعًا كاملًا لم تكلّم فيه واحدتهما الأخرى. لكن أيًا منهما لم يكن لها أصدقاء آخرون، ولم يكن إيان غلادستون شخصًا يستحق أن تتخاصما من أجله. قالت لورين ضاحكة: «يقبّلُ كأنه آلة لغسل الملابس». أخرجت لسانها وراحت ترسم به دوائر في الهواء.

إذًا... بدأ الأمر بشيء صغير.

في بيت المزرعة، لفّ جيز سيجارة حشيش. كان جالسًا على أريكة لا قوائم لها في صالة البيت الكبيرة. ساقاه الطويلتان مثنيتان، وركبتاه عند أذنيه. لعق الورقة، ومرّ بلسانه الثخين على طول حافتها المصمّغة. لف السيجارة برفق بين إبهامه وسبّابته. أشعلها وأخذ منها نفسًا، ثم قدّمها إلى لورين التي كانت واقفة إلى جانب الأريكة. كانت مرتبكة. وكانت ميريام واقفة عند الباب. أخذت لورين نفسًا، ثم نفسًا آخر، ثم أشارت إلى ميريام التي هزّت رأسها. اتسعت عينا لورين كأنها تقول لها، *هيا، ماذا بك*؟ لكن ميريام هزّت رأسها من جديد. نهض جيز على قدميه. أخذ السيجارة من لورين وخرج من الغرفة بخطوات بطيئة ماضيًا في عمق البيت، مبتعدًا عن الباب. التفت وصاح من فوق كتفه: «أهناك من يريد زجاجة بيرة؟».

همست ميريام قائلة للورين: «فلنذهب الآن. أريد أن أخرج من هذا المكان». أومأت لورين برأسها موافقة على ذلك. نظرت إلى الخارج عبر النافذة القذرة، نظرت إلى السيارة، ثم إلى ميريام. قالت لها: «أليس من الأفضل أن نقول له إن علينا أن نعود إلى المدرسة؟».

«لا! ليس علينا إلا أن...».

عاد جيز بسرعة غير متوقّعة. عاد حاملًا زجاجتي بيرة. قال من غير أن ينظر إلى أي منهما، «أظن أننا، لورين وأنا، نريد قضاء بعض الوقت معًا، وحدنا».

ضحكت لورين وقالت: «لا. هذا غير صحيح. في الواقع، أظن أن علينا الآن أن نذهب».

وضع جيز الزجاجتين على الأرض. تقدّم منها بخطوات سريعة، ثم سدّد إلى عنقها لكمة قوية.

ذابت ساقا ميريام من تحتها. ما عادتا قادرتين على العمل. حاولت أن تجري، لكنها راحت تتعثر بكل شيء. أمسك بها قبل أن تبلغ باب البيت، أمسك بشعرها المربوط خلف رأسها وجرّها إليه. اقتلع خصلة من شعرها. سقطت على الأرض. جرّها عائدًا بها إلى قلب البيت عبر الأوساخ المتناثرة على الأرض، عبر علب السجائر الفارغة وفضلات الفئران. كانت لورين مستلقية على جانبها، عيناها مفتوحتان على اتساعهما، مجنونتان ذعرًا. كانت تطلق صوت حشرجة غريبًا كلما تنفّست. نادتها ميريام فقال لها جيز إنه سيقتلها إن فتحت فمها القذر مرة أخرى.

أخذها إلى غرفة ثانية، إلى غرفة خالية قابعة في آخر البيت. ألقى بها على الأرض. قال لها، «أنت ستنتظرين هنا. الآن، لن يطول الأمر». أغلق الباب، ثم أقفله.

(*ما الأمر الذي لن يطول؟*).

جرّبت إدارة مقبض الباب. دفعت الباب، ثم جذبته، ثم ابتعدت وجرت إليه ملقية عليه بجسدها كله.

(*ما الأمر الذي لن يطول؟*).

ما كانت واثقة من أذنيها. لكن، خيّل إليها أنها تسمع صوت بكاء لورين.

(*ما الأمر الذي لن يطول؟*).

كانت من خلفها نافذة ذات إطار قابل للفتح. نافذة اتساعها كافٍ لأن تمرّ عبرها. النافذة مقفلة، لكن لوح الزجاج الرقيق كان قديمًا، وكان متشقّقًا. ليست نافذة متينة ذات زجاج مزدوج. خلعت ميريام قميصها ولفّته على يدها. حاولت دفع الزجاج إلى الخارج، لكن حركتها كانت شديدة التردد. لا تريد أن تحدث جلبة كبيرة. لا تريد أن تجرح يدها.

قالت لنفسها إن ما سوف يحدث، مهما يكن ذلك الذي سوف يحدث، سيكون أكثر سوءًا من أن تجرح يدها. قالت لنفسها إنها ليست في متسع من الوقت. ليس لديها إلا ما يستغرقه جيز من وقت مع لورين.

ضربت النافذة من جديد. ضربتها هذه المرة بقوة أكبر. ثم لم تلبث أن انهالت عليها بكل قوّتها فتحطم الزجاج تحت قبضتها. جرحت ساعدها قطعة زجاج ذات حافة مدببة فصرخت مصدومة، متألمة. دفعها خوفها إلى حشر قميصها الملوث بالدم في فمها حتى تخمد صرختها. وقفت جامدة في مكانها، وأصاخت السمع. في مكان داخل البيت، استطاعت أن تسمع صوت شخص يتحرك، صوت صرير، وخطوات ثقيلة على ألواح الأرضية الخشبية.

حبست ميريام أنفاسها. كانت تصغي بكل انتباه؛ وكانت تصلي. صلّت راجية ألا يكون قد سمع الصوت، وألا ينزل إلى الطابق السفلي. صلّت، وصلّت. دموعها تجري من عينيها، ورائحة دمها في منخريها. صلّت راجية ألا يأتي وينال منها.

السماء في الخارج لا تزال مضيئة. جرت ميريام أول الأمر إلى السيارة، لكنها اكتشفت أن المفتاح ليس فيها. تابعت جريها. جرت في الطريق الترابية المتعرّجة والدم يقطر من جرح يدها ومن جروح في جذعها خلّفتها بقايا الزجاج على إطار النافذة. دم يجري على وجهها ورقبتها من الجرح الذي سببه اقتلاع شعرها.

وبعد برهة، صارت غير قادرة على الجري لفرط إرهاقها. بدلًا من ذلك، انقلب جريها مشيًا. لا يزال يبدو لها أن مسافة طويلة تفصلها عن

الطريق الرئيسية. لا تتذكّر أن الطريق إلى بيت المزرعة كانت طويلة هكذا. تساءلت إن كانت قد اتخذت اتجاهًا خاطئًا. لكنها لم تستطع تذكر أي منعطف، ولم تستطع تذكّر أي مفترق طرق. ما كان هناك غير هذه الطريق التي بدت لها طويلة من غير نهاية. لن يأتي أحد.

كان الظلام قد خيّم عندما سمعت صوت الرعد. رفعت رأسها ناظرة إلى سماء لا غيوم فيها، إلى نجوم متألّقة فوقها، فأدركت أنه ليس صوت الرعد، بل صوت سيارة. غمرها ارتياح جعل ساقيها تكفان عن الحركة. سيارة آتية! سيارة آتية! غيمة فرح أحاطت بعقلها، لكن لحظة واحدة انقضت ثم أتت بعدها عاصفة من ذعر بارد أزاحت فرحها جانبًا. كانت السيارة آتية من خلفها؛ لا من الطريق الرئيسية، بل من المزرعة. أعماها خوفها فتركت الطريق وانطلقت في عدوٍ سريع. تسلقت سياجًا من الأسلاك الشائكة فجرحت نفسها من جديد. ألقت بنفسها في خندق. سمعت صوت محرك السيارة يتغير. سمعتها تبطئ سرعتها، ورأت مصباحاها ينيران الفضاء من فوقها. ثم تابعت السيارة طريقها.

ظلت ميريام راقدة في الخندق. ظلت راقدة حينًا من الزمن. ما كانت قادرة على تقدير الوقت الذي أمضته هناك. لكنها نهضت آخر الأمر وتسلّقت سياج الأسلاك الشائكة من جديد ملحقة جروحًا جديدة بيديها وساقيها وجذعها. بنطلونها غارق ببولها، ودمها دبق في فمها. جرت، ثم سقطت، ثم نهضت. تابعت طريقها. وبعد حين، بلغت محطة وقود. أبلغ الرجل الشرطة.

وصلت الشرطة بعد فوات الأوان.

مكتبة
t.me/t_pdf

ذلك الذي أفلت بفعلته

إنها تصيح منذ وقت؛ تلك الفتاة. كانت تصيح طالبة العون. دقت الباب حتى نزف الدم من قبضتي يديها. نادت صديقتها باسمها. نادتها أول الأمر بصوت خافت، ثم بصوت أقوى، ثم بصوت أقوى. كررت النداء مرّة بعد مرّة. نادت باسم صديقتها إلى أن تردّد صداه في البيت، وأسكت الطيور وأسكت كل شيء إلا صراخها البائس.

في ذلك الصمت، انبعث صوت باب يصفق عنيفًا، صوت مصمّ، يهز الأرض، قنبلة صوتية. صوت أقوى من أي صوت سمعته الفتاة في حياتها كلّها.

كفّت عن الصياح. سمعت حركة، وقع أقدام آتية صوبها مسرعة، متعجلة. ارتدت إلى الوراء، سقطت، تلوّت، لاذت بزاوية الغرفة، ضغطت على الجدار بظهرها، استندت إليه بيديها الاثنتين. كشرت عن أسنانها.

تباطأ صوت الخطوات مع اقترابه من الباب. سمعت صوت احتكاك حذائه بالأرض الحجرية. سمعت صوت المفتاح يدخل القفل، ثم صوت دورانه فيه. دمها يهدر في عروقها، وهي مستعدة. إنها الآن مستعدة له. تسمعه يتنهد. تسمعه يقول، الآن، اهدئي أيتها الفتاة. الآن اهدئي، أيتها الفتاة القبيحة. إنه ليس دورك! تسمع حركة المفتاح من جديد، دورانه في القفل، فيهدأ دمها. تحوّلٌ داخلها. موجة تحطم سدًا. بول حار يقطر على الأرض.

ومع ابتعاده، تسمعه يدمدم لحنًا ثم يغني بصوت ناضحٍ دمعًا:

«لست آسفًا على الوقت الذي أمضيته معها

فما أخذته منها لن أعيده إليها».

- 21 -

كانت كارلا تتحرّك في بيتها من غرفة إلى غرفة، تتفقّد الخزائن، وتعيد تفقّدها، تتفقّد ما خلف الأبواب وكل مكان يمكن أن تكون قد علقت فيه الحقيبة التي تضم ميدالية سان كريستوفر. دوار في رأسها لشدة إعيائها. حركتها بطيئة، حذرة، كأنها تخوض في الوحل. ومن حين إلى آخر، يرنّ هاتفها. تنظر إلى شاشته كلما رنّ، فترى أن ثيو هو المتصل. بعض المرّات، تحوم إصبعها فوق المفتاح الأخضر كأنها تحاول إرغام نفسها على تلقي المكالمة. لكنها تعدل عن ذلك في اللحظة الأخيرة، تعدل عن ذلك كل مرة فتعيد الهاتف إلى جيبها أو تضغط على المفتاح الأحمر.

إن أجابت الآن، فماذا تقول له؟ هل تطرح عليه السؤال من غير مقدمات؟ *ما الذي كنت تفعله مع أختي؟ ماذا كنت تفعل في بيتها؟* لكن هذين السؤالين ليسا ما تريده. لم تتوصل حتى الآن إلى صوغ السؤال الحقيقي. بل، لم تُبِح لنفسها صوغ السؤال الحقيقي.

فتحت حجرة الخزانة في فسحة السلم. لماذا تكون الحقيبة القماشية هنا؟ لم تفتح هذه الخزانة أبدًا، لم تفتحها منذ شهور. كانت تغصّ بملابس لم تستخدمها أبدًا: فساتين حريرية، وبدلات حسنة التفصيل، وملابس لامرأة كفّت عن أن تكونها، كفّت منذ سنين. تحدق في تلك الملابس تحديقًا غبيًا ولا يستوعب عقلها ما تراه. تغلق باب الخزانة.

تستلقي على السرير في غرفة نومها. تجذب بطانية صوف فتغطي بها ساقيها. ما أشد توقها إلى النوم! لكنها لا تكاد تغمض عينيها حتى ترى تلك الصورة: ترى ثيو مع أنجيلا يتجادلان أمام بيتها. ثم ينقطع المشهد وتراهما داخل البيت يصيح كل منهما على الآخر. في ذهنها،

يكونان قد عادا رجوعًا في الزمن. تراهما كارلا مثلما كانا يوم موت بن: ثيو غاضب، عيناه مجنونتان. أنجيلا منكمشة على نفسها، يداها الرقيقتان مرفوعتان فوق رأسها، معصماها الشاحبان بائنان. تسمع صوت ثيو يسألها، *هل كانت بها غَيْرة؟ أتظنين هذا؟ أكانت تغار عندما ترى بن؟ قلت إن حالات كانت تصيبها! قلت إنها كانت متعطّشة إلى الدم*. ليس هذا ما قالته له. لعلها قالت، *إن لها مخيّلة متعطّشة إلى الدم*. لعل هذا ما قالته لثيو! لكن مخيلة كارلا تأخذها الآن إلى مكان آخر، إلى بيت أنجيلا في هايواردز بليس حيث يظهر ثيو في ذهنها مثلما كان اليوم. ترى جسده الكبير ضاغطًا على أختها. وتراهما متدافعين عند أعلى السلم. تراه كارلا نازلًا درجات السلم، وتراه يخطو من فوق جسد أختها المحطم. تراه خارجًا إلى الزقاق. تراه يشعل سيجارة.

فتحت عينيها. تساءلت عما قد تكون رؤية أنجيلا من جديد قد فعلته به؟ رؤيتها بعد هذا الزمن الطويل كلّه. هل استمر الأمر ذلك الزمن كله؟ أم كانت بينهما لقاءات لم تعرف عنها شيئًا؟ آلمها التفكير في هذا. التفكير في أنهما كانا يخفيان مجريات الأمور عنها، يخفيانها معًا. لكنها لم تستطع أن تجد سببًا يدفعهما لفعل ذلك. هذا كله، ومن قبله موت دانييل... هذا أكثر مما تطيق. بدأ خدر يغزوها، ولفّ ضباب البؤس عقلها.

تقلّبت في فراشها، ثم نهضت. لا بد لها من العثور على ميدالية سان كريستوفر، ميدالية ابنها التي لم يحملها أبدًا. بما أنها ليست في بيت أنجيلا، فلا بد أن تكون في هذا البيت، في مكان من الأماكن هنا. بدأت البحث من جديد، غرفة بعد غرفة. بقع سوداء تتراءى أمام عينيها، وطنين بطيء في أذنيها. أطرافها سائبة وهي تنزل إلى الطابق السفلي، ثم تصعد من جديد. تعود إلى حجرة الخزانة عند فسحة السلم، إلى فساتين الحرير والبدلات حسنة التفصيل. كان في الرفّ السفلي من تلك الخزانة صف من علب الأحذية ذات اللون الأزرق الشاحب. بدأت تفتحها علبة بعد علبة كاشفة حذاء جلديًا رمادي اللون، ثم حذاء ذا عقبين دقيقين أحمرين، ثم صندلًا أخضر اللون لامعًا ذا نعل أسود.

لا شيء في العلبة الأخيرة غير كيس من النايلون فيه رماد. جلست كارلا على مؤخرتها. تقطّعت أنفاسها. أطلقت زفرة ثقيلة.

ها أنت هنا! حتى الآن، لم تستطع تقرير ما تفعله بها! بأنجيلا.

بعد الجنازة، عادت مع دانييل إلى هذا البيت، إلى بيت كارلا. جلسا على الأريكة جنبًا إلى جنب يشربان الشاي في صمت تام. كيس النايلون أمامهما على الطاولة الصغيرة. هواء البيت ثقيل، وجَوّه مشبع إحساسًا بالعار. كان دانييل شاحبًا، نحيلًا، غارقًا في بدلة سوداء تفوح برائحة الدخان.

سألته كارلا محدّقة في الكيس أمامها: «هل كانت سعيدة؟ ينبغي أن يكون رمادها في مكان عرفت فيه طعم السعادة».

إلى جوارها، أحسّت بكتفي دانييل يعلوان ثم يهبطان. قال لها: «لا أتذكرها سعيدة».

«هذا غير صحيح».

نشق بأنفه وقال: «أنت محقة. أتذكرها سعيدة عندما كانت في لونزديل سكوير. لكننا غير قادرين على الذهاب ونثر رمادها هناك، أليس كذلك؟». رأسه مطرق، وفمه مفتوح. كتفاه متهدلتان. قال: «ظلّت أيامًا، وحدها».

«يا دانييل...». -وضعت كارلا يدها على أعلى ظهره ومالت مقتربة منه. كادت شفتاها تمسان خدّه- «ما كنت قادرًا على السهر عليها طيلة الوقت».

كانت تعني ما قالته له، لكنها عنت أيضًا: *ما كنت قادرة على السهر عليها طيلة الوقت*. قالت: «عليك أن تعيش حياتك أنت، يا دانييل. لا بد لك من هذا. لا يجوز أن نصير كلنا مدمَّرين».

استدار إليها فصار وجهه أمام وجهها. قال لها: «أنت لست مدمَّرة». دسّ وجهه عند رقبتها.

مالت كارلا إلى الأمام. وبحذر، رفعت كيس الرماد من العلبة. رازته بين يديها.

أنا الآن مدمَّرة.

مكتبة
t.me/t_pdf

- 22 -

نظر ثيو في بريده فوجد رسالة أخرى من المعجَب السيد كارتر، الذي كان واضحًا أن عدم تلقّيه ردًّا على رسالته السابقة قد أزعجه كثيرًا. كان ثيو قادرًا على رؤية هذا، ليس فقط من خلال نبرة الرسالة التي تغدو حادّة أحيانًا، بل أيضًا من خلال شدة ضغط القلم على الورق.

لقد تركت لك عنوان بريدي الإلكتروني لأنني ظننت ذلك سيجعلك ترد عليَّ سريعًا.

أدرك أنك قد تكون شديد الانشغال.

حدثتك في الرسالة الماضية عن أن الناس يقولون إن روايتك متحيّزة جنسيًا، وإنك وضعت وجهة نظر الرجل في المقام الأول. فما قولك في هذا؟ أظن أن التحيّز الجنسي يكون عندما لا تنظر إلّا إلى وجهة نظَر الأنثى. الآن، هناك روايات جريمة كثيرة بأقلام كاتبات من النساء مما يجعل المرء، أكثر الأحيان، أمام وجهة نظرهنّ وحدها. قرأت على موقع أمازون آراء كثيرة في كتابك تقول إنه «يلقي باللائمة على الضحية». لكن، أليست المشكلة كامنة في أن «هو» تلقّى بدوره معاملة سيئة من جانب أشخاص كثيرين في حياته، بمن فيهم «الصديقة» و«الفتاة». إذًا، هو ضحية أيضًا –بطريقة من الطرق– ولا سبيل إلى لومه بنسبة مئة بالمئة! أظن أيضًا أنك جعلته، في آخر الرواية، شخصًا ضعيفًا جدًا. هل تتمنى أحيانًا لو أنك كتبت الرواية بطريقة مختلفة؟

من فضلك... هل تستطيع الإجابة عن أسئلتي عن طريق الإيميل؟

مع شكري وأطيب تمنياتي،

هنري كارتر

ألقى ثيو الرسالة فوق كدس الأوراق الأخرى، كدس «ما ينبغي إنجازه». فكّر لحظة قصيرة باحثًا عن طريقة مهذّبة يمكن أن يخبر السيد كارتر من خلالها أنه -مع موافقته على أن قسمًا كبيرًا من التعليقات الواردة في موقع أمازون قد أخطأ فهم ما جعله يروي القصة مثلما رواها- من الواضح كثيرًا أن السيد كارتر بدوره لم يستطع فهم ما أراد ثيو قوله. فكّر في هذا لحظة، ثم نسيَ الأمر كله. لقد كان «منشغلًا كثيرًا»، مثلما أشار السيد كارتر في رسالته.

ليس منشغلًا بعمله. انقضت أيام لم يكتب فيها شيئًا لأنه كان شديد الانشغال بتفكيره القلق في الحياة. مرّ على مقتل دانييل أحد عشر يومًا. وانقضت خمسة أيام منذ آخر مرة تكلّم فيها مع كارلا. لم تكن عند الشرطة! لقد تكلّم هاتفيًا مع المحقق باركر الذي قال له إنهم لا يزالون «يتحرّون عددًا من الأدلة» (تلك العبارة نفسها، من جديد)، لكنه قال أيضًا إنهم لم يستدعوا أحدًا جديدًا بغية استجوابه؛ لم يستدعوا أحدًا بعد تلك الفتاة التي أوقفوها ثم أخلوا سبيلها. لم يلقوا القبض على أي شخص.

في وقت واحد، انتاب ثيو إحساس غامر بالارتياح، وخاب أمله. ودّ أن يسأل المحقّق، ماذا عن الفتاة؟ ماذا عن تلك الفتاة اللعينة؟ إلّا أنه ارتاح لعلمه أن كارلا ليست واقعة ضمن دائرة شكوك الشرطة. كان عارفًا أنها بخير. كان عارفًا ما تفعله الآن؟ تتحرك في الطابق العلوي من البيت. لمحها خلف النافذة عندما ذهب إلى البيت هذا الصباح كي يطرق بابها مرة أخرى. طرق الباب وانتظر، ثم تراجع عنه سريعًا ورفع رأسه فلمحها تختفي خلف الستارة. عندها، جُنّ غضبًا وكاد يصيح بها، كاد يضرب الباب بقبضتَيْ يديه. واضح أنه غير قادر على فعل ذلك. وقعت في السنة الماضية حادثة اشتكى فيها الجيران، وقالوا إنه يثير ضجّة في المكان. يومها، جرت بينهما مجادلة عنيفة، لكنه الآن غير قادر على تذكّر موضوعها.

ما كان مباليًا بالجيران؛ وما كان احتمال إزعاجهم ما يشغل باله...

لكنه أراد أن يكون حذرًا: إنه شخصية عامّة (شبه عامّة)، وهناك تبعات لكل شيء يفعله هذه الأيام. يُسجَّل كل شيء ويوضع على الإنترنت حيث يبقى هناك إلى الأبد. إذا خرجت عن الصف فسوف يلحق بك العار على الإنترنت، وسوف يُشهّرون بك في تويتر... سوف «تُلغى». إنه حكم الرعاع، لكنك غير قادر على قول هذا لأن قوله سيجعلك «تُلغى» أيضًا.

صار ثيو الآن واثقًا من أن المرأة المسنة -الجارة الفضوليّة- قد تكلمت مع كارلا. ومن المؤكد أنها قالت لها إنه التقى أنجيلا. من هنا، غضبت كارلا لأنه لم يخبرها. ما كان هذا مفاجئًا له، لكنه ضايقه. لقد كذبت عليه عشرات المرات على مرّ السنين. هو ليس غبياَ جدًا: كان يعرف أنها ترى أنجيلا أحيانًا. لم يعرف شيئًا عن علاقتها بدانييل - كان هذا صدمة له، صدمة أغضبته وأحزنته... على الأقل، نتيجة طبيعة ذلك الاكتشاف. لكنه لم يُقصِها، لم يستبعدها أبدًا! لم يتجاهل مكالماتها، ولم يقفل بابه في وجهها. فعل ما كان يفعله دائمًا وما سوف يفعله دائمًا: وقف إلى جانبها. حوّل غضبه إلى وجهة أخرى.

لقد رفع ثيو يده على أنجيلا عندما رآها آخر مرة، آخر مرة على الإطلاق. لم يضرب امرأة في حياته. أبدًا، لم يضرب امرأة في حياته كلّها، لكنه فكّر في هذا عندما كان معها. فكر فيه لحظة، أو لحظتين. ثم انقضت تلك اللحظة؛ وبدلًا من ضربها، قال لها رأيه فيها، فكان ذلك أشد من الضرب وقعًا.

كانت هي التي اتصلت به وتركت له رسالة تقول فيها إن هناك ما تريد قوله له. قالت إنها تفضّل قوله وجهًا لوجه. لا دموع هذه المرة، ليس في البداية، على أية حال. دعته إلى الدخول. قبل الدعوة هذه المرة. كانت لديه أشياء يقولها لها، وما كان راغبًا في قولها في الشارع.

فاجأه مظهرها كثيرًا في المرة التي سبقت ذلك. وأما الآن فقد صعقه مظهر بيتها... السجادة المبقّعة، والنوافذ القذرة، والغبار الكثيف على

السطوح، وجوّ الإهمال الطاغي الذي زاده سوءًا وجود نسخ مطبوعة من لوحات معلّقة على الجدران، نسخ مطبوعة في إطارات متقنة... كأن أنجيلا بذلت، في وقت من الأوقات، جهدًا لكي تجعل بيتها جميلًا.

«يعجبني ما فعلتِه في هذا المكان». قال ثيو هذا لأنجيلا، وأطلق ضحكة عميقة مزقت قلبه. أشاح بوجهه عنها وجرت عيناه على الكتب المصطفة على الرفّ إلى جوار الموقد. استقرت أنظاره على نسخة من «*ذلك الذي أفلت بفعلته*». قال وهو يمسك بالكتاب ويرفعه عاليًا فوق رأسه، «سمعت أن هذا كتاب جيد». ضحك مرة أخرى، لكن من غير حماسة. ألقى بالكتاب على الطاولة الصغيرة وجلس متثاقلًا على حافة المقعد الجلدي ذي الذراعين. أخرج علبة سجائره. سألها من غير أن ينظر إليها: «أظن أن هذا لا يزعجك».

«لا، لا يزعجني».

«هل تريدين سيجارة؟».

هزّت رأسها. «أحاول الإقلاع عن التدخين». ابتسمت له بعينين ناعستين في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحًا. سألته: «ألا تريد قهوة؟».

هزّ رأسه نفيًا، ثم أجابها: «أهذا ما صرتِ تتناولينه الآن؟».

جلست على كرسي قبالته. قالت: «تعرف أن هذا صعب عليّ». ضحك ثيو ضحكة كبيرة لا سرور فيها، كأنه يعوي. مرّت أنجيلا بيدها على عينيها. لقد صارت ابتسامتها جامدة، وصارت تعابير وجهها متوتّرة. كانت تحاول ألا تبكي. قالت آخر الأمر: «تحدّثت إليه، إلى دانييل. تمكّنت أخيرًا من مكالمته بالهاتف. يتجاهل اتصالاتي أكثر الوقت...». ظل ثيو صامتًا. لم يقل شيئًا. «طلبت منه أن يبتعد عنك. قلت له إنك لن تعطيه مالًا بعد الآن».

سألها ثيو: «متى كان هذا؟». مال إلى الأمام حتى يُسقط الرماد في طبق السجائر، لكنه أخطأ الطبق.

قالت أنجيلا: «منذ بضعة أيام. لم يقل الكثير، لكنه أصغى إلى ما قلته. وأظن أنه...».

نهض ثيو واقفًا بحركة بطيئة. أخرج من جيب سترته الداخلي مغلفًا، ثم ناولها إياه. فتحت أنجيلا المغلف، وأخرجت منه ورقة واحدة كانت فيه. نظرت إلى الورقة فامتقع وجهها. أغمضت عينيها، ثم طوت الورقة وأعادتها إلى مغلفها. أعادت المغلف إلى ثيو.

قال بنبرة باردة: «لا، لا بأس. تستطيعين الاحتفاظ به». ما كانت لديه أية رغبة في رؤية الرسم من جديد، زوجته مرسومة بقلم رصاص، مرسومة بدقة كبيرة استطاعت التقاط تعبير النشوة الغريب الذي يظهر في وجهها عندما تنام. لقد رسمها دانييل مستلقية على جانبها، الغطاء مزاح جانبًا، وجسدها العاري مكشوفًا. قال: «وصلني هذا بالبريد صباح اليوم». انحنت أنجيلا وأسندت رأسها إلى كفيها. كانت تمتم شيئًا بصوت خافت.

سألها بنبرة حادّة: «ماذا قلت؟ لم أسمعك».

قالت: «شيء فظيع». رفعت رأسها ناظرة إليه بعينين تفيضان دمعًا. «قلت إنه شيء فظيع». عضّت على شفتها وأشاحت بوجهها. سألته: «هل تظن...». توقفت كلماتها، علقت في حلقها، «هل تظن حقًا أنهما...».

سحق سيجارته بحركة عنيفة. سحقها بطبق السجائر. أجابها بحدّة: «لم يفعلا أي شيء! الأمر غير متعلّق بهما. إنه متعلّق به. المشكلة عنده وحده... إنها مخيّلته المنحرفة. هل تعرفين ماذا؟...». كان الآن واقفًا من فوقها، وكانت ضئيلة جدًا، ضعيفة جدًا، كأنها طفل صغير عند قدميه، «لا أستطيع حتى أن ألومه. أعني أنك لا تستطيعين لومه. انظري إلى الحياة التي عاشها! انظري إلى المكان الذي ترعرع فيه! انظري إلى أمه، وكيف هي!».

«ثيو، أرجوك!». رفعت رأسها تنظر إليه بعينين متّسعتين كثيرًا. كانت تتوسّل إليه. رفع يده لكي يضربها، لكي يمحو تعبير الإشفاق عن وجهها.

رآها تنكمش على نفسها مذعورة فتراجع خطوة. هاله ما أثارته أنجيلا فيه، ما استفزته فيه. قال: «أنا مشفق عليه. أنا مشفق عليه حقًا. انظري إلى الحياة التي صنعتِها من أجله. لا فكرة لديه عما هو الحب. ولا فكرة لديه عما هو حب الأم. كيف له أن يعرف هذا؟».

أجهشت بالبكاء وقالت: «لقد حاولت، حاولت...».

زمجر قائلًا: «حاولتِ! كسلك وإهمالك أوديا بحياة ابني. ثم أهملتِ ابنك أيضًا، أرسلته بعيدًا لأنه وقف عثرة في طريق إدمانك على الشراب. فهل نعجب بعد هذا من أنه صار مختلًا من الناحية الاجتماعية؟».

«لم يصر...».

«بل صار، يا أنجيلا. هذه هي حقيقته الآن. إنه جشِع، طمّاع، يحسب كل شيء، ويحاول التلاعب بكل شيء. هذا ما فعلتِه أنت به».

. ظلّت صامتة بضع لحظات، ثم نهضت على قدميها. وقفت مترنّحة. بيدين مرتعشتين، تناولت كتاب ثيو عن الطاولة ودسّت بين صفحاته المغلف الذي أعطاها إياه قبل أن تعيد الكتاب إلى الرف. استدارت فواجهته من جديد. استنشقت نفسًا عميقًا كأنها تستجمع طاقتها كلّها من أجل مهمة ضخمة. قالت وهي تعصر يديها أمام صدرها: «عليَّ أن... أود أن أخبرك شيئًا».

بسط ثيو كفيه، ورفع حاجبيه. قال لها: «أنا مصغ».

ابتلعت أنجيلا ريقها بصعوبة. بدت كأنها تصارعُ شيئًا.

«ماذا؟». ما كان لديه صبر على هذا، على هذه الألاعيب الدرامية غير المتقنة.

قالت بصوت خافت: «أظن من الأفضل أن أريك. هل... هل لك أن تصعد معي إلى الطابق العلوي؟».

- 23 -

وجدت لورا أفكارها مثبّتة على الأمور الخاطئة التي فعلتها، لكن ليس بالضرورة على ما هو جليّ منها! ما كانت تستيقظ سابحة في عرق بارد وتفكّر في دانييل ساذرلاند ملقى على الأرض ميتًا في زورقه؛ وما كانت أفكارها مثبتة على الرجل ذي الشوكة المغروسة في يده. لا! الأمر الذي ظل يعاودها التفكير فيه، الأمر الذي كان يجعلها تنكمش على نفسها، ويجعل الدم يندفع إلى وجهها، ويثير في أحشائها انقباضًا كريهًا، كانت تلك الحادثة في الباص عندما صرخت على المرأة ووصفتها ببقرة بدينة غبيّة. ما كانت قادرة على التوقف عن التفكير في تعبير وجه تلك المرأة، في ما ظهر عليه من جرح وحرَج. تندفع الدموع إلى عينيها كلما فكّرت في هذا.

لقد فكّرت في الذهاب والصعود إلى الباص العامل على الخط نفسه أملًا في العثور عليها، أملًا في أن تستطيع الاعتذار منها، في أن توضح لها أن لديها هذه المشكلة... أنها، عندما تكون مرهقة، أو غاضبة، أو في ضيق، تقول أشياء لا تعنيها (بطبيعة الحال، ما كان هذا صحيحًا. المشكلة هي أنها تقول أشياء تعنيها، لكن ما من ضرورة لأن تعرف المرأة هذا). لكنها لم تستطع تذكّر خط ذلك الباص.

مع هذا، جعلها تفكيرها في امرأة الباص تفكّر في ميريام أيضًا، تفكّر كيف صار وجهها، وكم بدت مجروحة، مصدومة، عندما سخرت لورا منها، عندما ضحكت هازئة بها. كانت ميريام شخصية غريبة منفّرة، وما كانت لورا مستاءة مما فعلته معها بطريقة استيائها من فعلتها مع امرأة الباص. بالتأكيد، ما كان تذكّر موقفها مع ميريام يُبكيها. لكن، مع ذلك!

كان هذا تصرفًا لا مبرّر له أبدًا. ما كانت مضطرّة إلى تلك الفظاظة، وما أرادت حقًا أن تكون فظّة معها هكذا؛ لكنها اندفعت فلم تستطع التوقف. ولما كانت غير قادرة على الاعتذار من المرأة التي أرادت الاعتذار منها، فإن من الممكن الآن أن تعتذر من ميريام. على الأقل، تعرف مكان عيشها.

وجدت الزورق «لورين» راسيًا في المكان الذي ذكرته لها ميريام، في المكان ذاته تمامًا. زورق مطلي بلون الأخضر، له حافة حمراء. أصص نباتات على سقفه يبدو عليها مظهر العناية الدائمة؛ وألواح طاقة شمسية عند مؤخرته. بدا الزورق نظيفًا، مرتبًا... بدا مكانًا صالحًا للعيش. بدا كأنه منزل إنسان.

وقفت لورا أمام الزورق على ممر المرسى. حارت عندما فكرت أين ينبغي أن يدق المرء الباب عندما يريد إثارة انتباه شخص يسكن زورقًا (على النافذة؟ أليس في هذا شيء من اقتحام خصوصية المكان؟). وعندها، ظهرت ميريام خارجة من باب كابينة الزورق إلى سطحه الخلفي. كان شعرها الجعد مسدلًا، متدليًا إلى كتفيها، محاكيًا شكل فستانها القطني الذي يشبه خيمة. كانت ساقا ميريام عاريتين، وقدماها كذلك. بدا لون ساقيها وقدميها شديد البياض كأنها لم تر نور الشمس منذ زمن بعيد جدًا. أظافر قدميها طويلة، مصفرّة قليلًا. غضنت لورا أنفها، وتراجعت إلى الخلف خطوة. أثارت حركة انتباه ميريام، فالتفتت صوبها.

صاحت بها: «ماذا تفعلين هنا؟».

قالت لورا وهي تنظر إلى الزورق أمامها: «منزلك لطيف فعلًا. إنه جميل حقًا». لم تقل ميريام شيئًا. طوت ذراعيها على صدرها وحملقت في لورا بنظرة ساخطة من تحت شعرها ذي المظهر الهزيل. عضّت لورا ظفر إصبعها، «سبب قدومي هو أنني أردت القول لك إنني آسفة على فظاظتي معك. أردت أن أشرح لك أنني...».

قالت ميريام: «لست مهتمّة بهذا»؛ لكنها لم تتحرّك ولم تشح بوجهها عنها. ظلّت واقفة على سطح الزورق الخلفي، وظلّت تنظر في عينيّ لورا.

«أقول أشياء غبيّة. أفعل هذا طيلة الوقت، ليس الذنب ذنبي... أعني أنه ذنبي، لكنه يكون أحيانًا شيئًا لا أستطيع ضبطه». مالت ميريام برأسها جانبًا. كانت تصغي إليها، «هذه مشكلة عندي. حالة صحيّة. يسمونها الانقياد للنزوات العارضة. حالة ناتجة عن تلك الحادثة. تعرفين أنني أخبرتك عن الحادثة التي وقعت لي عندما كنت صغيرة. من فضلك...». قالت لورا هذا متقدّمة صوب الزورق خطوة واحدة. طأطأت رأسها، «أردت فقط أن أعبّر لك عن أسفي. كنت فظيعة معك. وأنت كنت تحاولين مساعدتي. أفهم هذا الآن. أنا آسفة جدًا».

ظلّت ميريام لحظات بعد ذلك تنظر إليها غاضبة. ثم استدارت كأنها تريد دخول الكابينة من جديد، ثم استدارت مرة أخرى فواجهت لورا. لانت أخيرًا. قالت بنبرة حادّة: «إذًا، ادخلي. من الأفضل أن تدخلي».

سارت لورا في الكابينة جيئة وذهابًا. كانت تقول: «هذا لطيف! أليس لطيفًا! إنه... إن فيه ألفة ودفئًا! ما كنت أظن هذه الزوارق قادرة على أن تكون دافئة هكذا».

أومأت ميريام برأسها. ظلت شفتاها مشدودتين في خط مستقيم. لكن لورا أدركت من التألق الذي ظهر على خدّيها، ومن التعبير الذي بان في عينيها، أنها مسرورة بما سمعته. عرضت عليها ميريام تناول فنجان شاي. شغّلت الغلّاية، وأخرجت من خزانة المطبخ فنجانَيْن. ظلّت لورا تنظر من حولها وتجري بأصابعها على كعوب الكتب، ثم حملت صورة في إطار صورة لميريام مع أبيها وأمها.

قالت لها: «هذه أنت! واضح جدًا أنها أنت، أليس كذلك؟ لم تتغيري كثيرًا». لكنها كانت تقول في نفسها، *كنتِ قبيحة المظهر مثلما أنت الآن.* «يبدو أبوك وأمك شخصين لطيفين».

قالت ميريام: «صحيح، كانا لطيفين». جلست على المقعد قبالة الموضع الذي كانت لورا واقفة فيه تنظر إلى الصورة.

استدارت لورا ونظرت إليها: «أوه! ليسا على قيد الحياة الآن! آسفة! أبي وأمي لا فائدة منهما. أظنني قلت لك هذا. أبي يريد لي الخير، لكن أمي كابوس حقيقي. والغريب أنني... مهما كانت سيئة معي، أترين هذا؟ الغريب أنني أسامحها آخر الأمر، أسامحها دائمًا. لست أدري سببًا لهذا. لا أستطيع ألّا أسامحها!».

انبعث صفير الغلّاية. نهضت ميريام ورفعتها عن الموقد. من جديد، طوت ذراعيها على صدرها ونظرت إلى لورا. تعبير تفكير عميق على وجهها. قالت لها آخر الأمر: «أنت معطوبة. هذا هو السبب. هذا ليس انتقادًا، بل هو ملاحظة، شيء أراه. عندما كنتِ صغيرة، أصابتك أمور تركت عليك ندوبًا، داخلية وخارجية. أليس هذا صحيحًا؟».

أومأت لورا برأسها. تراجعت قليلًا إلى أن صارت مستندة إلى رفّ الكتب.

«عندما أتيت إلى بيتك فسخرت مني وهزئت بي -لا، لا، لا تقولي شيئًا! استمعي إليَّ فقط- عندما حدث ذلك، قلت لك إننا متشابهتان. رأيت العطب الذي فيك. رأيته لأن عطبًا أصابني، أنا أيضًا. حدث لي أمر عندما كنت فتاة صغيرة، أمر خلّف أثرًا دائمًا».

سارت لورا حتى آخر الكابينة، حيث كان هناك مقعد طويل ممتد من جانب إلى آخر. جلست على المقعد وطوت ساقيها تحتها. مالت إلى الأمام وقد بلغ فضولها الذروة. سألتها: «ماذا تعنين بهذا؟ ماذا أصابك؟».

مدّت ميريام يدها إلى الغلّاية. رفعتها، ثم وضعتها من جديد. استدارت، التفتت فواجهت لورا. صار وجهها جادًّا. قالت بصوت خافت: «اختُطفت عندما كنت في الخامسة عشرة».

فوجئت لورا كثيرًا حتى كادت تضحك. غطّت فمها بيدها، غطّته

في الوقت المناسب: «أنت... أنت، اختطفت؟ هل أنت جادة في ما تقولين؟».

أومأت ميريام برأسها. «كنت مع واحدة من صديقاتي. تخلّفنا عن واحد من الدروس في ذلك اليوم. ووقفنا. حاولنا استيقاف سيارة عابرة. توقّف رجل وأخذَنا بسيارته و... أخذنا إلى بيت. كان بيتًا في مزرعة. حبسني في غرفة». استدارت من جديد؛ أصابعها الغليظة القصيرة ممسكة بحافّة الطاولة... «حبسني، لكني استطعت كسر النافذة. تمكّنت من الهرب».

«يا إلهي! هذا شيء لا يصدَّق!». كانت لورا تعني هذا بالمعنى الحرفي. لم تكن واثقة من أنها تصدّق ما سمعته من ميريام، «شيء مخيف حقًا. هل أصابك أذى؟».

أومأت ميريام برأسها.

«أوه، هذا مؤسف! إنه... أظنه كان مخيفًا جدًّا. وصديقتك، هل أصابها أذى؟».

لم تقل ميريام شيئًا. لم تتحرّك. لكن لورا رأت أن مفاصل أصابعها تبيضّ لشدة ضغطها على حافة الطاولة.

«ميريام!؟».

قالت ميريام بصوت خافت: «لم أستطع مساعدتها. لقد هربتُ».

«أوه، يا إلهي! أوه، يا إلهي!». لم تستطع لورا العثور على كلمات تقولها. هزّت رأسها. يدها على فمها، ودموع منسكبة من عينيها، «لكن، هل...؟».

أومأت ميريام برأسها إيماءة سريعة.

قالت لورا من جديد: «أوه، يا إلهي! متى كان هذا؟ أعني... قلت إنك كنت في الخامسة عشرة. يعني هذا أنه حدث، تقريبًا... في السبعينيات».

قالت ميريام: «بل في الثمانينيات».

«وماذا... ماذا حدث؟ أعني، بعد ذلك. يا إلهي! لا أستطيع حتى أن أتخيّل هذا. لا أستطيع حتى أن أتخيّل كيف كان الأمر بالنسبة إليك».

مرّت لحظة طويلة ظلّت خلالها ميريام واقفة تنظر إليها. وبعد ذلك، من غير كلام، استدارت وعبرت الباب الضيق الفاصل بين الكابينة وما افترضت لورا أنه الركن المخصّص للنوم في آخر القارب. وعند عودتها، كانت بين يديها رزمة أوراق. قالت لها: «إن كنت مهتمة بالأمر حقًا، فمن الممكن أن تقرأي هذه الأوراق. لقد ألّفت كتابًا يتحدّث عن الأمر. عما جرى، وكيف كان أثره عليّ». مدّت ميريام يديها بالأوراق التي كانت موضوعة ضمن حافظة ضخمة. «في وسعك...». وجه ميريام محمرّ، وعيناها لامعتان، «أظن أن في وسعك أن تقرأيه، إن أحببت».

هزّت لورا رأسها من غير تفكير. قالت لها: «أنا لست قارئة». رأت ميريام تسحب يديها الممدودتين وتضم الكتاب إلى صدرها. اختفى كل ما كان في عينيها من دفء وتهدّلت زاويتا فمها. بانَ الانزعاج على وجهها. مدّت لورا يدها وقالت: «أعني... أعني أنني أحب أن أقرأه». ابتعدت ميريام عنها. «... لكن هذا سوف يستغرق وقتًا لأنني... أنا لست... أنا قارئة بطيئة جدًا. لا أعني أنني بطيئة التفكير مع أن من الناس من يقول إنني كذلك. لكن، عندما كنت صغيرة، كانوا يقولون لي إنني موهوبة وإنني أجيد القراءة، إنني أقرأ طيلة الوقت. ولكن، عندها، بعد الحادثة، صرت غير قادرة على التركيز ففقدت تلك العادة. هل تفهمين ما أعنيه؟». عضّت لورا على شفتها، «أحب أن أقرأه. أحب ذلك بالفعل. يبدو الأمر كأنه...». كيف يبدو الأمر؟ يبدو الأمر فظيعًا، مدمّرًا، «يبدو أنه قصة تستحق القراءة».

ناولتها ميريام الأوراق، لكن حركتها كانت حذرة. قالت لها: «خذي من الوقت ما تشائين. لكن، أرجو أن تكوني حريصة عليه».

أومأت لورا برأسها. قالت لها: «لن أتركه يغيب عن عيني». وضعت المخطوط في حقيبة الظهر.

انزلقتا كلتاهما إلى حالة من صمت مرتبك. حدّقت لورا في الغلّاية آملة أن يكون الماء قد صار جاهزًا.

سألتها ميريام: «هل اتصلت بك الشرطة في الآونة الأخيرة؟». هزّت لورا رأسها نفيًا. «جيّد. هذا جيد. أليس كذلك؟».

عضّت لورا على شفتها. «أظن هذا. لكن الحقيقة أنني لا أعرف. أواصل النظر إلى الأنباء حتى أرى إن كان هناك أي تقدّم. لكن الظاهر أنهم لم يحقّقوا تقدمًا».

«لا، لم يحقّقوا تقدمًا. هذا ما أظنّه أيضًا».

ران الصمت من جديد.

سألت لورا: «أأستطيع تناول فنجان شاي؟».

«أوه، نعم!». بدت ميريام مرتاحة لأن يكون لديها ما تفعله. تابعت مهمّة إعداد الشاي، لكنها اكتشفت أن السكر قد نفد (تريد لورا ملعقتين ونصف ملعقة من السكر)، لذا، قالت إنها ستذهب سريعًا إلى آخر ممر المرسى لكي تقترض سكرًا من المقهى.

نهضت لورا عن المقعد وبدأت تتفحص مسكن ميريام. كان ألطف كثيرًا مما توقعت. لكن، ماذا توقّعت؟ هل توقّعت شيئًا حزينًا، قذرًا، كئيبًا مثل مسكن دانييل؟ هذا مكان مختلف، بل هو ألطف كثيرًا من شقتها. في هذا المكان نباتات وصور وكتب طبخ. فيه بطانيات... قديمة، بالية، لكنها ملونة، مطوية ومرتبة في الزاويَة بكل أناقة. في المكان رائحة محببة، رائحة الليمون ومدفأة الحطب. السطوح كلها نظيفة جدًا.

على رفوف الكتب القريبة من المدفأة، رأت ساعة منبّهة ذهبية صغيرة من النوع الذي يحملونه في الأسفار. حملت لورا الساعة وأحسّت بثقلها اللذيذ في يدها. فوق رفوف الكتب، رأت رفًا آخر عليه علبة خشبيّة. جرّبت لورا فتحها ففوجئت عندما وجدتها غير مقفلة. أنزلت العلبة عن الرف ووضعتها على المقعد أمامها. وجدت داخل

العلبة زوجًا من أقراط ذهبية لم يبدُ لها أنها مما يوافق ذوق ميريام. دسّت القرطين في جيبها، ثم تابعت تقليب محتويات العلبة. وجدت صليبًا ذهبيًا عليه تمثال صغير للمسيح المصلوب، وكذلك لوحة تعريفية لكلب، وحصاة رمادية ناعمة، ورسالة موجّهة إلى ميريام، ومفتاح متصل بعلّاقة مفاتيح.

فوجئت لورا برؤية المفتاح فلم تعرفه أول الأمر. ليس مفتاحًا فحسب. إنه مفتاحها! مفتاح باب شقتها متّصلًا بحمّالة المفاتيح التي عليها طائر صغير. ارتفعت يدها بالمفتاح حاملة إياه صوب النور. سمعت صريرًا من خلفها وأحسّت بتمايل القارب الطفيف تحت قدميها. رأت بطرف عينها ظلًا يتحرّك خلفها، ثم سمعت الصوت: «ماذا تظنين نفسك فاعلة؟».

ارتدّت لورا إلى الخلف بسرعة شديدة فكادت تسقط من فوق المقعد. وقفت ميريام بالباب، وعاء سكر صغير في إحدى يديها، وجهها ناطق بالغضب: «بحق الرب، ماذا تظنين نفسك فاعلة؟ كيف تفتشين في أشيائي؟».

استعادت لورا روعها سريعًا. استعادت توازنها. صارت مستعدة للهجوم: «أشياؤك؟ هذا لي! ماذا تفعلين بمفتاح بيتي؟».

تقدّمت ميريام خطوة، ووضعت وعاء السكر على الطاولة. قالت لها: «لقد عثرت عليه». شدّت على شفتيها كأنها أحسّت بإهانة في أن تسألها لورا بهذه الطريقة، «أردت إعادته إليك، لكني نسيت. أنا...».

«نسيت إعادته؟ كنت في شقتي ذلك اليوم، ولم تفكري في القول لي إن مفتاحي لديك! أين عثرت على هذا المفتاح؟ أين... هذا دم، أليس كذلك؟». قالت لورا هذا وهي تقلّب المفتاح في يدها: «إن عليه... يا ربي! على المفتاح دم». أسقطت المفتاح من يدها كأنه لسعها، ثم مسحت أصابعها ببنطلونها الجينز. نظرت إلى ميريام بعينين

متسعتين، غير فاهمتين شيئًا، سألتها: «لماذا أخذت المفتاح؟ قلت إنك كنت هناك. كنت هناك بعد خروجي. لكن، لماذا تأخذين المفتاح... لماذا أخذته؟». بدأ استياء لورا يزداد، يزداد كثيرًا. لم تسعفها ميريام التي ظلّت واقفة أمامها سادّة باب الكابينة بجسدها. كتلة جسيمة من اللحم، ذراعاها مطويتان على صدرها، تهزّ رأسها لكنها لا تقول شيئًا، تهزّه كأنها تفكر في أمر، كأنها تحاول العثور على ما تبرّر به مسلكها. انقبضت معدة لورا. في وقت سابق، عندما كانتا معًا في شقّتها، كان مزاحًا ما قالته من أن ميريام قد تكون هي من قتل دانييل. وأما الآن، الآن، فقد راحت تفكّر في أن هذا قد يكون صحيحًا. صارت الآن تفكر في أمور غريبة جدًا. هذه المرأة معطوبة. هذه المرأة ضحيّة. هذه المرأة مجنونة.

نطقت ميريام آخر الأمر: «رأيته...». وجهها خالٍ من أي تعبير، وصوتها متزن، زالت منه آثار الغضب، «رأيت المفتاح ملقى هناك. كان إلى جواره. كان شاحب اللون، وبدا لي... أوه». أطلقت زفرة، زفرة طويلة كأنها تخرج كل ما في جسدها من هواء... «بدا يائسًا، أليس كذلك؟». أغمضت عينيها، وهزّت رأسها من جديد، «رأيت المفتاح، فالتقطته عن الأرض...». أثناء كلامها، كانت تحاكي ما فعلته وتنحني صوب الأرض كأنها تلتقط المفتاح عنها. ظلّت عيناها مطبقتين إطباقًا شديدًا إلى أن قالت: «كنت أحميك، يا لورا. كنت أحميكِ طيلة الوقت. قد تكون لي أسبابي الخاصة التي تجعلني مهتمّة بحمايتك. لكن هذا لا يغير شيئًا على الإطلاق».

المجنونة اللعينة!

«لا أريد حمايتك!». كانت لورا قادرة على سماع رنّة الخوف في صوتها، وهذا ما زادها ذعرًا، «لا أريد منك أي شيء! لا أريد إلا الخروج من هنا...». حملت حقيبتها الظهرية وحاولت شق طريقها عبر الفسحة الصغيرة الباقية بين جدار الكابينة وجسد ميريام الضخم، «دعيني أخرج،

من فضلك، دعيني... دعيني...». لكن ميريام كانت ثابتة في مكانها. لم تتزحزح. دفعت لورا فأفقدتها توازنها. «لا تلمسيني! لا تلمسيني!».

أرادت لورا أن تخرج؛ أرادت أن تغادر هذا الزورق. أحست بأنها موشكة على الاختناق كأنها باتت غير قادرة على التنفّس. أحسّت كأن أحدًا قد ألقى بها في ذلك الكابوس الذي عاشته من قبل، الكابوس الذي كانت فيه على زورق دانييل الصغير القذر، وكان يضحك عليها. صارت الآن قادرة على الإحساس من جديد بطعم لحمه في فمها. بدأت تصيح، تصرخ: «*ابتعدي عن طريقي، ابتعدي عن طريقي، ابتعدي عن طريقي*». كانت تصارع شخصًا، شخصًا آخر، وتطبق يداها على شعره المُدهن، تحسّه ضاغطًا عليها، «*ابتعدي عن طريقي*». صارت قادرة على أن تشم رائحة عرق وأنفاس نتنة. كشّرت عن أسنانها، «*من فضلك*». كانت تصرخ؛ وكانت ميريام تصرخ مثلها. «*لا تلمسيني لا تلمسيني لا تلمسيني*».

ذلك الذي أفلت بفعلته

ذراعاهما متشابكتان. كانتا في طريق عودتهما إلى البيت بعد خروجهما من المقهى الفظيع في وسط المدينة. الفتاة وصديقتها تتسكعان قليلًا على الرصيف. الفتاة منتشية بالجِنْ الذي شربته، سعيدة، مطمئنة إلى ضغط ذراع صديقتها النحيلة عند أسفل خصرها.

سيارة تقترب. تمدّ صديقتها يدها مشيرة إليها، شبه مترددة. سيارة غولف صفراء عتيقة، طلاؤها متشقّق. تتجاوزهما، ثم تبطئ سيرها. تتبادلان نظرة، ثم تضحكان. تجريان إلى السيارة. ومع انفتاح بابها، تسمع الفتاة نتفة من أغنية، شخص يغنّي، صوت رجل، صوت حزين منخفض. تلمح رقبة السائق من الخلف... رقبة محمرّة.

لا تصعدي، تقول هذا لصديقتها. لا تصعدي.

لكن صديقتها صارت في السيارة. تقول وهي تجلس إلى جواره... إذًا، أين نحن ذاهبون؟

- 24 -

أزهار أقحوان وهندباء من حول شاهدة قبره... صفراء كالشمس وبيضاء ناعمة بين العشب، بين العشب الذي طال كثيرًا لكنه لم يضْفِ على المكان طابع الإهمال والفوضى، بل الوفرة والغنى. كانت كارلا توّاقة إلى الاستلقاء على ذلك العشب، توّاقة إلى الاستلقاء هناك، إلى أن تنام فلا تستيقظ أبدًا. لقد أتت معها ببطانية كشمير حمراء اللون. بسطتها على الأرض، لكنها لم تستلق عليها، بل ركعت وثنت جذعها، كأنها تصلّي. أراحت أطراف أصابعها على رأس شاهدة القبر الغرانيتية السوداء التي لا تزال تبدو جديدة كل الجدّة بين القبور الأخرى التي صار لونها رماديًا، طُحلبيًا. قالت: «عيد ميلاد سعيد، يا حبيبي». جلست وتركت نفسها تبكي حينًا من الوقت؛ نشيج خافت، متقطّع. ثم مسحت عينيها، وتمخّطت، وجلست متصالبة الساقين، ظهرها مستقيم. جلست منتظرة. لم يطل الوقت قبل أن يظهر ثيو سائرًا في الدرب، متقدّمًا صوبها. كانت تعرف أنه سيأتي. رفع يده بالتحية. أحست بضربات قلبها الواهنة أسفل حلقها.

توقّف على مسافة خطوات منها. قال لها: «قلقت عليك». لكنها أدركت من نبرة صوته ومن هيئة وجهه أنه ليس غاضبًا منها. كان عليه ملمح المذنب، الملمح نفسه الذي رأته عندما اكتشفت علاقته مع تلك الصحافية. إذًا، لقد علِم. علِم أنها تعلم بأمر أنجيلا، بأن هناك ما لا تعلمه عن أنجيلا.

قالت كارلا: «أضعت ميدالية سان كريستوفر التي كانت لابننا».

تزحزحت قليلًا حتى تفسح له متسعًا على البطانية. جلس متثاقلًا ومال إليها كي يقبّلها، لكنها ابتعدت عنه قائلة: «لا».

عبس وجهه: «أين أضعتها؟ ماذا كنت تفعلين بها؟».

«أنا... لست أدري. لو كنت أدري أين أضعتها، لما ضاعت مني. أخرجتها لأنني... فقط لأنني أردت النظر إليها. بحثت عنها في كل مكان».

أومأ برأسه. نظر إليها، نظر إليها كلّها. قال لها: «تبدين في حالة سيئة جدًا، يا كارلا».

قالت: «نعم، شكرًا. مرّ عليّ أسبوعان سيئان». ثم بدأت تضحك، ضحكة صغيرة أول الأمر، ثم قهقهة من أعماق صدرها. ظلّت تضحك إلى أن سالت دموعها على وجهها. إلى أن مدّ ثيو يده لكي يمسحها. انكمشت، وابتعدت عنه من جديد. قالت: «لا تمسّني!... ليس قبل أن تقول لي الحقيقة. لا أريد أن تمسّني قبل أن تقول لي ما فعلت». كان جزء منها راغبًا في الهرب بعيدًا عنه. وكان جزء منها شديد التَّوْق إلى سماعه ينكر الأمر كله.

حكَّ ثيو أعلى رأسه بإصبعه. أطرق إلى أن مسّت ذقنه صدره. «رأيت أنجيلا. ذهبت لرؤيتها لأن دانييل كان قد أتى إليّ طالبًا مني مالًا. أعطيته مالًا، لكنه أراد المزيد بعد ذلك. هذا هو الأمر. هذه هي القصة كلها».

انقبضت أصابع كارلا المغروسة في العشب. اقتلعت يداها كتلتين منه، ثم دفعتا بهما إلى الأرض من جديد: «لماذا لم تقل لي، يا ثيو؟ لماذا أخفيت عني أن دانييل أتى إليك، أتى إليك أنت دونًا عن بقية الناس جميعًا».

رفع ثيو كفّيه في الهواء. قال لها: «لست أدري. لست أدري. لم أدرِ شيئًا عما كان يحدث؛ وبصراحة...» نظر في عينيها مباشرة، «ما كنت واثقًا من أنني أريد معرفة شيء».

أحست كارلا بجلدها يشتعل من أسفل رقبتها حتى وجنتيها. «إذًا، رأيتها... هل رأيتها مرة واحدة؟ هل كانت تلك المرة فقط؟ ماذا، يا ثيو؟».

استنشق نفسًا عميقًا وقال بنبرة هادئة: «رأيتها مرتين. هي التي طلبت رؤيتي في المرة الثانية، فذهبت إليها. ما كنت قادرًا على إخبارك، يا عزيزتي. كان ذلك... كان ذلك قبل موتها بوقت قصير جدًا. ذهبت لرؤيتها؛ وبعد أسبوع تقريبًا، وجدوها في أسفل السلم. بدا الأمر لي سيئًا».

كررت كارلا من خلفه: «بدا الأمر سيئًا! وهل كان سيئًا؟». وسألت بصوت خافت: «هل كان سيئًا؟».

مدّ يده إلى يدها فتركته يمسك بها، «انظري... لا أريد أن يجري هذا الحديث هنا. هل تريدينه أنت؟ إنه يوم بن. عيد ميلاده الثامن عشر. لا أريد اليوم حتى أن أفكر فيها».

سألته كارلا: «لماذا أرادت أن تراك؟».

لم يجبها ثيو. مال إليها وطبع على فمها قبلة. تركته يفعل ذلك.

قال لها: «اشتقت إليك. لا أحب أن تختفي هكذا».

ظلّا حينًا من الوقت جالسَيْن في صمت تام، يدًا بيد. لقد جلب ثيو معه زجاجة كونياك صغيرة. راحا يتناوبان على تناول رشفات منها. راحا يتناقلانها بينهما، جيئة وذهابًا.

عندما أدفأ الكحول صدرها، سألته كارلا: «ما الذي كان ممكنًا أن تفعله بطريقة مختلفة؟... إن استطعت. لو كنت تعرف ما سيحدث، فهل كنت ستتزوجني؟».

«بالطبع... أتزوجك. أنا...».

قالت: «لا أظنني كنت سأتزوجك». أجفل ثيو. شدّت على يده، ثم تركتها، «لا أريد أن أكون فظّة، لكني... لو علمت... فلا أظنني كنت أستطيع أن أتزوجك. لكن، أظن أن لا أهمية حقيقية لمن أتزوجه، أليس

كذلك؟ ما كان لهذا أن يغير شيئًا. لو تزوجت أي شخص، لحدث ما حدث نفسه».

«ماذا تعنين بهذا؟». أمسك رسغ يدها. أحاط العظم الدقيق بإبهامه وسبّابته. مدّ يده الأخرى ومسَّ وجهها. حاول إدارة وجهها حتى يصير مقابل وجهه، لكنها ابتعدت عنه.

قالت: «السّم! لقد أتى مني، من عائلتي».

أجابها ثيو: «أنت لست أختك».

عندها، قابلت عينيه أخيرًا: «عليك أن تصفح عنها، يا ثيو».

حاول ثيو إعادة كارلا معه إلى البيت، لكنها أصرّت على أنها راغبة في البقاء حينًا من الوقت. عرض عليها أول الأمر أن يظلّ معها، لكنها تمكّنت من إقناعه بأن يذهب. لكنه لم يقبل الذهاب قبل أن يعطيها سوّاقة USB عليها مسودة روايته الأخيرة حتى تقرأها.

«هل تعني هذا حقًا، يا ثيو؟ تواجهني أمور كثيرة في هذه اللحظة. أنت تعرف هذا. بل إنني حتى لم...». تعثّر صوتها، «لم أفعل حتى الآن شيئًا من أجل الجنازة. جنازة دانييل. عليّ انتظار انتهاء تحقيق الطب الشرعي، وبعد ذلك سوف...».

قال ثيو وهو لا يزال يدفع بالسواقة في يدها: «أستطيع الاهتمام بهذا الأمر. أستطيع إنجاز تلك الترتيبات. سوف أكلّم الشرطة حتى أعرف متى ينتهون من التحقيقات. لكن، يا عزيزتي... أنت أول قرّائي، دائمًا. لا يجوز أن تكفّي عن كونك أوّل قرائي لأن الأمر لا يمكن أن يسير إلّا على هذا النحو».

ظلّت كارلا تنظر إليه ماضيًا يشق طريقه بين القبور. ظلّت تنظر إليه سائرًا بين بقع ضياء الشمس إلى أن بلغ الطريق الرئيسية. انتظرت برهة إلى أن صارت واثقة من أنه ذهب، من أنه لم يعد أدراجه ولم يكمن في

مكان قريب ناظرًا إليها... انتظرت برهة قبل أن تخرج من جيبها حفنة رماد وتنثرها على العشب الذي غطى قبر بن.

حاولت استحضار طريقة أختها البطيئة في الكلام، وضحكتها الجشّاء.

سألتها أنجيلا منذ سنين: «هل تتذكرين ذلك البيت في فوجينز؟». كانتا جالستين على الأريكة في غرفة المعيشة في بيتها الذي كان في هايواردز بليس. أشعة شمس واهنة آتية عبر الستائر نصف المغلقة تضيء الغرفة بألق أصفر متّسخ. كانت أنجيلا تجلس طاوية ساقيها تحتها. كانت تدخن، وتنكش أظافرها. كانت يداها ثابتتين مما يعني أنها تناولت شرابًا قبل قليل. «هل تتذكرين ذلك المكان عند كرم الزيتون، وتلك المنحوتات الغريبة كلها على الجدران، المنحوتات التي تشبه رؤوس حيوانات؟ هل تتذكرين كيف أمضيت الوقت كله في المسبح مع دانييل؟ كان بن لا يزال رضيعًا، لا يزال صغيرًا جدًا...». رفعت يديها مباعدة بينهما قليلًا حتى تشير إلى أنه كان صغيرًا جدًا «كان دافئًا، جميلًا مثل رغيف خبز». قالت كارلا: «بالطبع، أذكر هذا. كانت تلك أول عطلة نأخذه معنا فيها. أنا وثيو أمضينا الوقت كله مستلقين على تلك الأسرّة تحت الأشجار. كنا نغفو وهو مستلق بيننا». أغمضت عينيها، «ما نوع تلك الأشجار؟ هل تظنين أنها كانت أشجار بلوط؟ أو لعلها كانت أشجار دلب...».

قالت أنجيلا: «ساعات الغروب الرائعة... هل تتذكرينها؟ ساعات غروب ورديّة كلها...».

«وما كان ممكنًا جعل دانييل يخرج من بركة السباحة، لا بالمحبة، ولا بالمال. هل تتذكرين كم غضب منا لأنه أراد تعليم بن السباحة، فقلنا له إن بن لا يزال صغيرًا جدًا على ذلك؟».

هزّت أنجيلا رأسها. سألتها: «هل أزعجه ذلك؟ هل أزعجه ذلك

حقًا؟». انحنت كي تطفئ سيجارتها في طبق السجائر الموضوع على السجادة... «يبدو ذلك مستحيلًا، أليس كذلك؟ يبدو مستحيلًا عندما نفكّر فيه الآن، من هنا». أشارت إلى الغرفة القبيحة من حولهما، «يبدو مستحيلًا التفكير في أننا كنا سعداء كثيرًا، كلنا. يبدو الآن شيئًا لا سبيل إلى تخيله. تلك السعادة كلها... انهارت».

ارتعشت يدا كارلا. ارتعشت ذراعاها وساقاها. ارتعش جسدها كله عندما نهضت واقفة، عندما نظرت إلى أختها الجالسة متحسّرة على تلك السعادة المفقودة. قالت بصوت جافّ: «شيء لا يمكن تخيّله. أليس هذا صحيحًا؟ بضع دقائق من قلّة الانتباه كانت كافية... ساعة أو ساعتان من إهمال طائش، وباب تُرك مفتوحًا! وها نحن الآن هنا».

تذكّرت كيف نظرت أختها إليها عند ذلك، كيف نظرت إليها بعينين زجاجيتين وتحرّك فمها، فلم يصدر عنه أي صوت.

أخذت كارلا حفنة أخرى من رماد رفعتها إلى شفتيها قبل أن تضغطها على الأرض وتدفنها في التراب.

ذلك الذي أفلت بفعلته

تغيبتا عن المدرسة. انسلّتا عبر البوابة من غير أن يراهما أحد. هناك باص يذهب إلى المدينة ويأتي منها؛ باص عند تمام الساعة، وباص عند منتصفها. أسرعي! ترفع صديقتها تنورتها حتى تجري سريعًا. تلوّح بيدها حتى تلفت نظر السائق. تأتي الفتاة من خلفها بسرعة أشبه بالجري؛ حقيبة الكتب معلّقة من كتفها، وثدياها الكبيران يتقافزان. تصعدان إلى الباص، وتمرّان بالسائق ذي الابتسامة المتكلّفة، وبالركاب الذين خلت وجوههم من أية مودّة.

لحظة نزولهما من الباص، تندم الفتاة على مجيئها. حرّ شديد، وأرصفة مزدحمة بالمتسوّقين. لا شيء تفعلانه هنا، ولا مكان تذهبان إليه. تجرجران أقدامهما بخطوات كسلى، وتنتقلان من متجر إلى متجر، تنظران إلى ملابس لا تستطيعان شراءها. تشتريان سجائر من متجر عند الزاوية... سجائر مذاقها خشن يحرق الحلق. تدخنان، تشعلان سيجارة من سيجارة، إلى أن يصيبهما الغثيان.

تذهبان إلى المقهى، لكن عامل البار يرفض تقديم الشراب لهما. تجلسان إلى طاولة في الخارج. تنورتاهما منشمرتان. تتشمّسان. يرميهما كهول جالسون إلى طاولة قريبة بنظرات قذرة. يقترب رجل أصغر سنًا. ينظر إليهما. ينظر إلى الصديقة، لا إلى الفتاة، ثم يبتسم. إنه قبيح... عيناه متقاربتان كثيرًا، وبثرات حب الشباب على رقبته، على رقبته الحمراء. تفتح صديقتها عينيها. تقول، وكأن!

تضحك الاثنتان.

ينبعث صوت موسيقى آتيًا من مكان ما، من راديو، من المقهى.

سمعت الفتاة هذه الأغنية من قبل، أغنية بطيئة، صوت رجل خافت، أجش، وغيتار كهربائي. في شمس بعد الظهيرة الحارّة، جلد الفتاة بارد. تحسّ كأن أحدًا قد سكب عليها بنزينًا؛ لكن بقعة صغيرة في مؤخر رأسها، تمامًا عند ربطة شعرها، تنبض فيها حرارة لاسعة. سوف يحدث أمر سيئ.

- 25 -

الحوض ممتلئ تقريبًا، ويداها تغوصان عميقًا في ماء دافئ عليه رغوة صابون. تداهم ميريام ذكرى خاطفة، ذكرى واضحة جدًا، تجعلها تنكمش على نفسها. ما كانت ذكرى بصرية، بل إحساسٌ: حرارة الدم المفاجئة، الدم المندفع عبر أصابعها، والصدمة التي تلت ذلك، والخيبة... والأسى. لا عودة عن *هذا!* وقفت في الحوض، في حمّامها الصغير. ذراعاها في الماء. ظلّت دقيقة غير قادرة على الحركة، بل ربما ظلت دقيقتين. يدها اليمنى ممسكة بفرشاة الأظافر، ويدها اليسرى قابضة على مقص، كأن تشنجًا أصابها.

ثم تنقضي تلك اللحظة وتسترخي يداها. تعود إلى نفسها. ترفع سدّادة الحوض، وتنظر إلى ماء الصابون يجري خارجًا منه. تعيد فرشاة الأظافر والمقصّ إلى الرف الصغير تحت المرآة. تجفف يديها بعناية قبل أن تسكب قليلًا من سائل مطهّر على كرة من قطن تضغط بها ضغطًا رقيقًا على خدوش رقبتها وذراعيها. تتناول شرائح اللاصق الطبي التي كانت قد قصّتها من اللفافة، وتضعها على الخدوش العميقة الممتدة على طول ذراعها اليسرى. بعد فراغ ميريام من ذلك كله، تعود إلى الكابينة وتبدأ ترتيبها. تعيد إلى الرفّ الكتب التي سقطت عنه، وتضع صندوقها الخشبي في مكانه. تستخدم فرشاة ومجرفة صغيرة لترفع التراب وشظايا الخزف التي تناثرت من واحد من أصص الأعشاب الذي سقط من على حافة النافذة. النبتة نفسها -نبتة طرخون صغيرة- انتهى أمرها. ظهرها يؤلمها؛ ووجع في ركبتيها المضغوطتين على الأرض. تظل منكبّة على عملها، وتحاول ما وسعتها المحاولة

أن تزيل آثار مواجهتها مع تلك الفتاة الشرسة. كانت حانقة، لكنها ظلّت مسيطرة على غضبها الذي كان كأنه ينضج على نار هادئة حتى اللحظة التي اكتشفت فيها واحدًا من قرطَيْ لورين الذهبيين راقدًا تحت الطاولة، مشوّه الشكل قليلًا. بدأت تبكي.

لماذا يأخذ الناس ما هو ليس لهم؟ لماذا يأخذون ما هو لها، ثم يتلفونه؟

لم يكن المستشفى ما تذكّرته ميريام على نحو شديد الوضوح خلال الفترة التي أعقبت اختطافها مباشرة. لا أمها التي كان بكاؤها شديدًا إلى حدّ جعل والد ميريام ينهرها عندما أتى لزيارتها أول مرة. لا ساعات المقابلات الطويلة مع الشرطة. ولا حشود الناس أمام بيتهم... الصحافيون وكاميرات التلفزيون.

الأمر الذي كان أكثر وضوحًا في ذاكرتها هو اللطف الشديد الذي أظهره لها والدا لورين... لطفهما الذي لا يُحتمل. والد لورين بكى عندما أتى لزيارتها في غرفة المستشفى وشدّ على يدها متمتمًا: «الشكر للرب، الشكر للرب لأنك بخير».

من المؤكد تمامًا -هكذا فكرت ميريام- أن ذلك لا يمكن أن يكون ما يحسه. من المؤكد أنه كان يقول في نفسه، *لماذا لم تموتي أنت؟ لماذا لم تكن القتيلة أنت؟*

بعد جنازة لورين، أقيمت سهرة تأبينية في بيت أبويها. سألتهما ميريام إن كانت تستطيع الصعود إلى الطابق العلوي، إن كانت تستطيع قضاء بعض الوقت في غرفة لورين. أفلحت والدة لورين، تلك المرأة القصيرة، المحطّمة، في الابتسام لها. قالت: «بالطبع تستطيعين. أنت مرحّب بك دائمًا عندنا. تستطيعين زيارتنا في أي وقت».

صعدت ميريام إلى الطابق العلوي. جلست إلى طاولة الزينة في غرفة لورين. نظرت إلى ربطات شعر صديقتها الملوّنة اللامعة،

وإلى أحمر الشفاه بألوانه المتعدّدة، درجات من الورديّ الداكن ومن الأحمر. نظرت إلى لوحة الكحل: بنفسجي وأزرق وأبيض. كانت أمام المرآة علبة حليّ، علبة تنبعث منها أغنية «غرينسْليڤزْ» عند فتحها. ميريام معجبة بهذه العلبة منذ كانتا صغيرتين. وجدت في العلبة عقودًا وأساور وخاتمًا صغيرًا جدًا على أصابع ميريام. وجدت أقراطًا للأذنين، قرطين ذهبيين مدوَّرين دسّتهما في جيب سترتها.

تركت السهرة من غير توديعهم.

بعد ثلاثة أيام، عثروا على سيارة جيريمي في موقف سيارات عند جرف في منطقة يشيرون إليها مجازًا باسم «بقعة الجَمال». مكان من تلك الأماكن التي يذهب إليها الناس عندما لا يبقى أمامهم مكان يفرّون إليه. وبعد ثلاثة أيام أخرى، في طقس بالغ السوء، أوقف حرس السواحل بحثهم. ثم انقضت ثلاثة أسابيع فعثر طفلان صغيران يلعبان عند الشاطئ على مقربة من هاستينغز على قدم بشرية مقطوعة طابق مقاسها ولونها والدم الذي فيها ما كان لدى جيريمي. اختفى جيريمي إلى الأبد ولم يعرف أحد إن كانت قدمه قد قطعت نتيجة اصطدام جسده بالصخور في ذلك الجو العاصف أو بترتها مروحة زورق في البحر. لم يبق منه غير ورقة تركها في جيب سيارته المهجورة - ورقة فيها اعتذار. فيها اعتذار من كلمة واحدة، *آسف*.

آسف!

في المدرسة، كان الجميع في أسف لما أصاب ميريام. أسف الجميع لما أصابها، لكن أحدًا ما كان يريد الاقتراب منها. ينظر الجميع إليها، وما من أحد ينظر في عينيها. اسمها على كل لسان، ولا أحد يكلمها في الاستراحات، ولا أثناء وقت الغداء. تمر بهم فيبتسمون ابتسامات لطيفة -المعلّمون أيضًا- وينظرون إلى نقطة واقعة في منتصف المسافة بينهم وبينها. لا ينظرون إليها. صارت كأنها موصومة. كان الناس

يقولون لها -أبوها وأمها والمعالج النفسي والشرطة- إنها ليست مذنبة في ما أصاب لورين. «يا ميريام، ليس لأحد أن يتوقّع منك فعل شيء مختلف». لكن حقيقة أنهم أحسّوا بحاجة إلى قول هذا كانت مُنبئة بشيء آخر. حقيقة أنهم أحسّوا حاجة إلى قول هذا تعني أنهم فكّروا فيه، تعني أنهم قالوا في أنفسهم، *كان ممكنًا أن تفعلي شيئًا آخر! ليس لأحد أن ينتظر منك فعل شيء آخر؛ لكنه كان أمرًا ممكنًا!*

أبدًا، لم تسمع أحدًا يقول هذا بصوت مرتفع. لم تسمع أحدًا يقول هذا إلى أن ظهر ثيو مايرسون.

ذلك الذي أفلت بفعلته

عندما يمسك بها تدرك ما سيصيبها على يديه. لقد دارت الدورة كلها، تلك الفتاة. مستلقية على التراب، ترى نفسها مثلما كانت ذلك الصباح، ترى نفسها جالسة إلى طاولة الزينة في غرفتها تسرّح شعرها وتجمعه خلف رأسها ثم تربطه بشريط شعر تشده شدًا محكمًا عند أعلى رقبتها.

حينها، كانت لا تزال بريئة. كانت قادرة على منع حدوث هذا، أليس كذلك؟ عندما اقترحت صديقتها أن تهربا من المدرسة، كانت قادرة على أن تهزّ رأسها وتسير إلى غرفة الصف حيث لديهم درسا رياضيات متتاليان. وعندما كانتا في المدينة، كان في وسعها أن ترفض دخول المقهى وأن تقترح الذهاب إلى الحديقة بدلًا من ذلك. كان في وسعها أن تقول لصديقتها، لن أصعد إلى تلك السيارة! كان في وسعها أن تقول لها بصوت مرتفع، لا تفعلي هذا!

بل حتى بعد أن بدأ الأمر، بعد أن تورطتا، كان في وسعها أن تفعل شيئًا مختلفًا.

ما كانت مضطرة إلى الفرار.

بدلًا من فرارها، كان في وسعها أن تختار واحدة من شظايا الزجاج الكبيرة التي تناثرت على العشب المصفرّ في الخارج تحت النافذة التي كسرتها. كان في وسعها أن تدس تلك الشظية في جيب بنطلون الجينز الخلفي. كان في وسعها أن تتسلل عائدة إلى البيت متتبعة صوت بكاء صديقتها. كان في وسعها أن تتسلل إلى الغرفة التي كان فيها ممسكًا بصديقتها مثبتًا إياها على الأرض القذرة. بقدمين حافيتين، كان ممكنًا أن تتحرك سريعًا، أن تتحرك حابسة أنفاسها. كان في وسعها أن تمسكه من شعره وتجذب رأسه خلفًا، ثم تغرس شظية الزجاج في حنجرته.

- 26 -

كانت إيرين شبه غافية في كرسيها المجاور للنافذة، وفي حجرها نسخة مفتوحة من كتاب بات باركر *«اهدم بيتك»*. أيقظها صوت المطر إذ انهمر انهمارًا مفاجئًا عنيفًا جعل صوت قطراته على بلاطات الزقاق في الخارج أشبه بصوت حبّات البَرَد. كان صوتًا شديد الارتفاع إلى حدّ كاد يمنع إيرين من سماع صوت شخص يبكي عند بابها.

أول الأمر، ظنّت أنها تخيلت سماع الصوت؛ لكنها لم تلبث أن نهضت واقفة على قدميها عندما فكّرت، بقلب واجف، أن ذلك قد يكون بكاء كارلا -كارلا الحزينة ذات الطبع المأساوي- فكّرت في أن بكاء كارلا قد عاد من جديد وسكن البيت المجاور. لكنها سمعت صوت نقرات على بابها، نقرات خفيفة جدًا، متردّدة جدًا، كأنها من فعل طفل صغير. ثم سمعت صوتًا واهيًا ينادي: «إيرين؟ هل أنت هنا؟».

لورا واقفة عند بابها، غارقة بماء المطر حتى عظامها... لورا في حالة مفزعة، سترتها ممزقة، وكدمة كبيرة بحجم كرة التنس ممتدّة على الناحية اليسرى من وجهها. كانت ترتعش كلها، تنتحب كأنها طفلة صغيرة.

«لورا... يا إلهي! ادخلي». مدت إيرين يدها إليها، لكن لورا تراجعت مبتعدة عنها.

قالت منتحبة: «لا. لا تكوني هكذا. لا تكوني لطيفة معي».

«بحق الرب، ماذا تقولين! لورا... كرمى للرب!». أمسكت بطرف سترة الفتاة المشبعة ماء، «ادخلي. لا تظلّي واقفة تحت المطر».

صارتا في الممر الذي بدأ الظلام يلفّه بعد إغلاق الباب من خلفهما.

هزت كارلا جسدها مثلما يفعل كلب ينفض الماء عنه. قالت بصوت ينضح بؤسًا: «كان عليك أن تطرديني. عليك أن تقولي لي أن أنقلع. لكني أعرف أنك لن تقولي هذا لأنك شديدة اللطف، لأنك شديدة التهذيب».

قالت إيرين عابسة: «لا بأس. أنا كذلك. كفّي عن هذا السخف! اخلعي ذلك المعطف وضعيه على مشع التدفئة هناك. أليس باردًا؟ سوف أُشغل التدفئة. هيا، هيا الآن، لا تتباطئي، ولا تتركي الماء يقطر هنا. تعالي إلى غرفة المعيشة. سوف أشغل جهاز التدفئة ثم أُعدّ لنا فنجانين من الشاي. عندها، تستطيعين إخباري بالأمر كله؛ تستطيعين بدء القصة من أولها».

عندما عادت تحمل فنجاني الشاي، وجدت لورا جالسة على الأرض وسط غرفة المعيشة. كانت تتربّع على الأرض دافنة رأسها بين كفيها. ناولتها إيرين فنجانها. قالت لها: «هيا الآن. فلنسمع القصة. ما الأمر، يا لورا؟».

جلست إيرين في كنبتها، وبدأت لورا كلامها. قالت إنها أخذت مالًا من محفظة إيرين... أمر تعلمه إيرين -بالطبع تعلمه- فهي ليست حمقاء على الرغم من أنها كثيرة النسيان. قالت لها لورا إنها سرقت أيضًا أشياء من البيت المجاور عندما رأت الباب مفتوحًا فأخذت حقيبة كانت في الممر. أمر لا تعلم إيرين عنه شيئًا.

سألتها بصوت صارم: «ألا يزال معك ذلك الشيء الذي أخذته من هناك؟». أومأت الفتاة برأسها، «إذًا، عليك أن تعيديه. أخذ المال شيء مختلف، يا لورا، فأنا مدركة أنك تمرّين بوقت صعب. لكنك لا تستطيعين أخذ أشياء تعني الكثير بالنسبة إلى أحد من الناس». سألتها سؤالًا حارقًا: «هل تستطيعين تخيّل كيف يكون شعوري إذا أخذ مني أحدهم الساعة التي كانت لويليام؟ هل تستطيعين تخيّل كيف ستكون نظرتي إلى ذلك الشخص؟».

انكمشت لورا على نفسها خجلة. ملامح وجهها بائسة. أفرغت

محتويات حقيبتها الظهريّة على أرض غرفة معيشة إيرين، ثم انتقت من بينها علبتَيْ حلي صغيرتين. ناولت إيرين العلبتين.

بعد ذلك، قالت لها بصوت هامس لا يكاد يُسمع: «ليس هذا أسوأ ما في الأمر».

ارتعد قلب إيرين. أخافها ما قد تسمعه من لورا. فأي شيء يمكن أن يكون أسوأ مما سمعته؟ أي شيء يمكن أن يكون أسوأ من سرقة امرأة في حزنها على من ماتوا؟

«ماذا فعلتِ، يا لورا؟». ضاقت أنفاسها وصارت شبه عاجزة عن نطق الكلمات، «أنت لم... لا تقولي لي إنك آذيت أحدًا! هل فعلت هذا؟».

رفعت لورا رأسها ونظرت إليها بعينين لامعتين. قالت لها: «لا أظن ذلك! إلا إذا كنت تعنين الرجل الذي طعنته بالشوكة. لكني لا أظنك تعنين هذا». هزت إيرين رأسها نفيًا. كانت حائرة، «دانييل». نطقت لورا الاسم فوضعت إيرين يدها على فمها.

أحست إيرين بأن ضربات قلبها توشك على التوقف: «أوه، لا، يا لورا!».

صاحت لورا: «أنا لم أقتله». كانت راكعة على ركبتيها عند قدمي إيرين، «لم أقتله، أقسم لك على هذا. لكني كنت هناك. تمامًا قبل مقتله. كنت هناك. كنت معه. لكني لم أخبرك بهذا لأنك قلت لي إنه كان مشكلة. أنت...».

«لورا، لم أقل إنه كان مشكلة. قلت إنه كان مضطربًا، واقعًا في مشكلة. أظنني حذرتك وقلت لك إن عليك أن تكوني محترسة لأنه فتى مضطرب. أليس هذا ما قلته لك؟ حياته العائلية صعبة. قلت لك هذا، وقلت لك أيضًا إن...».

«لكني لم أصغ إلى ما قلته لي. ذهبت معه. أمضيت الليلة معه...»، قطعت لورا كلامها.

في الخارج، كان المطر قد هدأ قليلًا. لكن السماء تظلم كأنها تستجمع قواها من أجل هجمة جديدة.

كرّرت إيرين ما سمعته منها: «أمضيت الليلة معه!...». أطرقت لورا برأسها ناظرة إلى السجادة، «أوه، بحق الرب!». ثم لم تلبث إيرين أن انتهرتها، «لا حاجة إلى أن تكوني متحفظة هكذا. أنا امرأة عجوز. لست طفلة». أومأت لورا برأسها لكنها لم ترفع عينيها.، «إذًا، فقد أمضيت الليلة معه. وبعد ذلك، أظنك خرجت من غير تناول إفطارك هناك. لكنه كان بخير عندما تركته، أليس كذلك؟». أومأت لورا برأسها مرّة أخرى. «ولا فكرة عندك أبدًا عما جرى له بعد ذلك». هزّت لورا رأسها. «لورا! هل فكرت، صدقًا، في ضوء ذلك كله، في أنها قد تكون فكرة حسنة أن تذهبي وتسرقي عائلته؟ بحق الرب، يا لورا! تخيّلي كيف سيبدو هذا إن علم به أحد، إن...».

قالت لورا بصوت خافت: «لقد علم به أحد! إنه أنت!».

اتسعت عينا إيرين. أزعجها سماع هذا، أزعجها كثيرًا. قالت لها: «أوه، لا تكوني سخيفة! أتظنين أنني قد أخبر الشرطة؟ ثم إن ما من شيء قلتِه الآن يفسر هذا كله...». مدّت يدها مشيرة في اتجاه لورا، «لا يفسّر حالتك الآن».

عادت لورا إلى جلستها السابقة، تربعت على الأرض من جديد. قالت: «أوه، نعم. هناك تلك المرأة، المرأة التي تعيش في واحد من الزوارق في القناة. أعرفها قليلًا لأنها تأتي أحيانًا إلى محل تنظيف الملابس. اسمها ميريام. وهي امرأة غريبة بعض الشيء... يبدو شكلها غريبًا، هل تفهمين هذا؟ تبدو دائمًا كأنها قد ارتدت ملابس زائدة، إن كنت تدركين ما أعنيه. على أية حال، هي التي عثرت على دانييل -أعني أنها هي التي عثرت على جثته- وهي التي طلبت الشرطة. ومنذ أيام، كانت أمام محل تنظيف الملابس، وكنت هناك في حالة مضطربة بعض الشيء. لا شيء خطيرًا، بل فقط... كما تعلمين». ما كانت إيرين تعلم

شيئًا؛ وما كانت لديها أية فكرة عما تقوله لورا، «على أية حال، ذهبتُ بعد ذلك إلى منزلها، إلى زورقها، لأنني كنت مدينة لها باعتذار - هذه قصة طويلة، وأظنك لست في حاجة إلى معرفة كل شيء عن هذا الأمر، لكن المسألة هي، المسألة هي، هي أنني عندما ذهبت إلى الزورق، وجدت أن مفتاح شقتي موجود لديها».

«مفتاح شقتك لديها!».

«تمامًا! هل تذكرين عندما قلت لك إنني أضعت مفتاح شقتي؟ نعم، كان المفتاح معها».

«وهل أعادت إليك ذلك المفتاح؟»، ما كانت إيرين قادرة على إدراك الغاية من هذه القصة.

«لا، لا. لم تعِد إلي المفتاح. لقد أخفته عني. وجدته في زورقها. كنت أبحث في أشيائها، كما ترين...».

قالت إيرين: «كنت تبحثين عن شيء لسرقته».

«هذا صحيح؛ لا بأس. كنت أبحث عن شيء لسرقته، لكن الفكرة ليست هنا، ألا تدركين هذا؟ الفكرة هي أن مفتاحي كان عندها. لذا، بعد أن وجدت المفتاح، جرى بيننا نوع من... ماذا أقول...».

«مشادّة؟».

«تمامًا».

«وهل ضربتْك؟ هل ضربتْك هذه المرأة؟ هل سببت لك هذه الكدمة على وجهك».

هزت لورا رأسها. قالت: «جرى بيننا قليل من التدافع والعراك. كنت أحاول الخروج من ذلك المكان، فتعثرت وسقطت. لقد سقطت».

«هل تظنين، يا لورا، أن علينا أن نخبر الشرطة بهذا الأمر؟ أعني، إن كان مفتاح شقتك عند هذه المرأة، فبالتالي...».

«أوه، لا - إن المفتاح معي الآن». غاصت يدها في جيب بنطلونها، ثم خرجت حاملة المفتاح ومعه قرط ذهبي. ما إن رأته لورا حتى دسته

في جيبها من جديد، «المفتاح معي، ومعي هذا أيضًا». من كومة الأشياء التي أفرغتها من حقيبتها الظهريّة، تناولت رزمة أوراق في غلاف، ثم مدّت يدها بها إلى إيرين، «لقد أعطتني هذه. أعطتني إياها قبل... ماذا دعوتها؟ -مشادّة- أعطتني هذه. إنها *مذكراتها*». قالت لورا هذه الكلمة مشيرة بإصبعيها كأنها تضعها بين قوسين، «اقترحت عليّ أن أقرأها. لكني لن أقرأها أبدًا. قد تحبين قراءتها. إن فيها قصة جريمة. تزعم أن رجلًا اختطفها عندما كانت صغيرة. أو... شيء من هذا القبيل. على أية حال، هذا ما قالته لي».

قالت إيرين: «عجبًا! أمر غريب حقًا!». تناولت المخطوط بكلتا يدَيْها.

ومضة برق مفاجئة رافقها هزيم رعد عنيف جدًا جعل الاثنتين تخفضان رأسيهما.

قالت لورا: «هذا مخيف!».

أجابت إيرين: «صحيح. هل تعرفين؟ أظن أن عليك أن تصعدي إلى الطابق العلوي، وأن تخلعي هذه الملابس الرطبة. علّقيها في خزانة تهوية الملابس، ثم خذي حمامًا حارًا. أظن أن عليك أن تظلّي معي هنا بعد الظهر، فما رأيك؟».

ابتسمت لورا فتدحرجت الدمعات الباقية في عينيها. قالت: «أحب هذا».

***

على الرغم من عنف المطر عندما بدأ يهطل من جديد، ظلّت إيرين قادرة على سماع لورا تغني بصوت أكثر حلاوة وصدقًا مما تخيلته. ظلت في الحمام زمنًا طويلًا. انقضت ساعة قبل أن تعود إلى الطابق السفلي ملتفّة بثوب حمام ورديّ اللون، كان مطويًا في خزانة تهوية الملابس، ثوب لم تستخدمه إيرين منذ نحو عشر سنين. شيء في مشهد هذه الشابة الضئيلة مرتدية ثوب الحمام الخاص بها كان له وقع

خاص في نفس إيرين. أحسّت بموجة من عاطفة تغمرها، إحساس حسبته يكاد يكون عاطفة أمومة.

لكنها لم تقل لها شيئًا من هذا كله لتوقّعها أن يصيبها إظهار هذه العاطفة بقدر من الحرج. قالت لها بدلًا من ذلك: «هل تعرفين؟... هذا الكتاب غريب جدًا». لوّحت بصفحات المخطوطة التي أتت بها لورا، «هذه المذكرات. كنت أقرأ فيها و...».

قالت لورا وهي تلقي بنفسها على الأريكة وتعدّل الوسائد تحت رأسها: «لا يمكن أن تكوني قد قرأتها خلال هذا الوقت القصير».

«الحقيقة أنني كنت أتصفّحها. أرى أن كتابتها ليست سيئة أبدًا -لعلّ فيها قدر من المبالغات الأسلوبية- لكن الأمر الغريب هو أن قسمًا منها يبدو لي مألوفًا إلى حدّ كبير. أقول هذا مع إدراكي أن فكرة نجاح شخص في الفرار من بين يديّ قاتل ليست فكرة جديدة. ولكن...». قطعت جملتها، وعبس وجهها. نظرت إلى رفوف الكتب من فوق حافة نظّارتها، «هناك أمر يلحّ على ذهني، لكني لا أستطيع تحديده على وجه الدقة».

أغمضت لورا عينيها وانزلقت قليلًا على الأريكة. جذبت الثوب حتى غطى ركبتيها. تمتمت قائلة: «أوه، هذا مثل... كأنني في الجنة. أنا مرهقة كثيرًا. هل تدركين هذا؟ لا أريد شيئًا غير أن أظل إلى الأبد مستلقية هكذا».

«لا بأس. إن أردت البقاء هكذا، فأهلًا وسهلًا. تستطيعين أيضًا أن تمضي الليلة هنا، إن أردت ذلك. وأستطيع أن أجهّز لك السرير الاحتياطي».

لم تجبها لورا، لكن ابتسامة ظهرت على شفتيها. قالت لها: «دائمًا، أشعر بالأمان هنا. هل تعرفين هذا؟ أشعر بأن ما من أحد يستطيع أن يطالني، أو ينال مني».

قالت إيرين: «لن ينال منك أحد، يا لورا. لماذا تفكرين في هذا أصلًا؟».

قالت لورا وهي تجذب الثوب إلى أن غطّى ذقنها: «أوه، سوف يطالونني. سوف يحدث هذا. تعرفين أنهم يطالوني دائمًا».

نامت لورا، وظلت إيرين جالسة تقرأ تلك الصفحات. عدد من المشاهد في المخطوطة كان مألوفًا إلى حدّ غريب - فتاتان تستوقفان سيارة في يوم صيفيّ حار. شخص تقابلانه مصادفة. انحدار مفاجئ إلى عنف يحدث في بيت مزرعة ناءٍ. أطراف فتيّة غضة يمزقها زجاج نوافذ متكسّر - ظنّت أن هذا كله مما يتكرر كثيرًا في أفلام الرعب. لكن أمرًا ظلّ عالقًا بذهنها، ظلّ ملحًا على ذاكرتها: إنه الغناء. مقطع غنائي في الراديو تغنّي معه واحدة من الشخصيات (هل يجوز تسميتها شخصية إن كانت هذه الصفحات مذكرات؟)... أين رأت هذا؟ إنه يذكرها بأمر ما، يجعل جرسًا يرنّ في مكان ما!

تحرّكت لورا على الأريكة. انقلبت فما عاد وجهها في اتجاه إيرين، ثم بدأت تشخّر شخيرًا خفيضًا. أحسّت إيرين تلك العاطفة من جديد، تقلّص في معدتها حسبته مشاعر أمومة. ولكن، ما أدراها؟ هي غير قادرة على تحديد هذه المشاعر، لكنها أحسّت في نفسها دافعًا يدعوها إلى حماية الفتاة، دافعًا يشبه إحساسها إزاء أنجيلا المسكينة.

نظرت مرة أخرى إلى كتب أنجيلا، إلى الكتب التي لم تفرغ من تصنيفها. عليها أن تنجز هذا الأمر لأن تلك الكتب موضوعة هنا منذ أسابيع. لعلها تستطيع أن تطلب من لورا أخذ الكومة الأولى إلى متجر أوكسفام الخيري في أبّر ستريت.

ثم رأته. رأته في أعلى كومة الكتب التي ستأخذها إلى المتجر الخيري: رواية اسمها «ذلك الذي أفلت بفعلته» بقلم كارولين ماكفرلين. إنها رواية الجريمة التي كتبها ثيو مايرسون! كان الكتاب كأنه ينظر إليها محدّقًا في وجهها. نهضت من كنبتها وتناولت الكتاب. كتاب ذو غلاف مقوّى؛ كتاب ثقيل الوزن، حسن التجليد. قلبت الكتاب على

ظهره وقرأت الكلمات التي على غلافه الخلفي. كلمات لونها أحمر دامٍ:

في طريقهما إلى البيت عائدتين من المدرسة، اختطفت فتاة وصديقتها
أفلحت الفتاة في الوصول إلى البيت. الصديقة لم تصل
الفتاة ضحية
الفتاة حزينة
الفتاة معطوبة
الفتاة تريد الانتقام
هل الفتاة مذنبة؟
هذه الفتاة هي «ذلك الذي أفلت بفعلته».

دهشة كبيرة أصابتها - عندما قرأت هذه الكلمات أول مرة، وقت نُشر الكتاب، حسبتها هراء، لا أكثر. لم يتغير رأيها منذ ذلك الوقت. عادت إلى مقعدها. فتحت الكتاب وراحت تقلّب صفحاته محاولة العثور على المقطع الذي كانت واثقة من أنها تتذكره... شيء عن أغنية، أو مقطع من كلمات أغنية. إنه هناك، في مكان ما. لكن العثور عليه في هذه الرواية ليس سهلًا لأن القصة تواصل القفز من مكان إلى آخر، وتتقلّب وجهة النظر بين الضحية والمجرم، ويتحرّك زمن السرد أمامًا وخلفًا. رواية محيّرة، مربكة كثيرًا - بل هي رواية مزعجة إن سألنا إيرين. تذكرت أنها سمعت مايرسون، بعد انكشاف حقيقة أنه كاتب الرواية - يدافع عن كتابه في برنامج إذاعي ويقول شيئًا عن تلاعبه بفكرتَيّ الذنب والمسؤولية، عن تحديه توقعات القارئ، وتلك الأشياء التافهة كلها. كلام فارغ! تجريب من أجل التجريب. فمن عساه يستفيد من هذا؟ ما العيب في رواية الجريمة التقليدية التي ينتصر فيها الخير وينهزم الشر؟ ما العيب فيها حتى إن كان هذا لا يحدث في الحياة الحقيقيّة إلا نادرًا؟

قاطع قراءة إيرين صوت ارتجاج غريب. رفعت رأسها ونظرت فرأت شاشة هاتف لورا وامضة. صمت الهاتف، ثم عاد إلى اهتزازه بعد قليل. تحرّكت لورا على الأريكة. قالت بنبرة متذمرة، «أوه، إنه هاتفي». انقلبت في اتجاه إيرين، ثم سقطت عن الأريكة. أطلقت شتيمة وهي تزحف على السجادة إلى أن بلغت هاتفها. «كنت في نوم عميق». نظرَتْ إلى شاشة الهاتف. أجابت: «نعم؟ من؟ أوه، نعم، آسفة. ماذا قلت؟ أوه، لا، لست هناك في هذه اللحظة. أنا مع واحدة من صديقاتي. أستطيع... لكني... لكن... ماذا؟ الآن؟». أغمضَت عينيها لحظة... «هل أنا مضطرة إلى هذا؟».

أنهت المكالمة وأطلقت زفرة عميقة. نظرت إلى إيرين بعينين ناعستين. قالت لها مُحاولة أن تبتسم على الرغم من تكسّر صوتها: «قلت لك هذا. قلت لك إنهم ينالون مني دائمًا، أليس كذلك؟». نهضت واقفة على قدميها، نهضت متثاقلة. قالت: «لا بدّ لي من الذهاب. كان هذا اتصالًا من الشرطة».

خرجت لورا مسرعة، مقلّلة من شأن مخاوف إيرين. قالت لها: «ما من داع إلى القلق، يا صديقتي». جرت صاعدة السلّم إلى الطابق العلوي لكَي ترتدي ملابسها. وعندما عادت إلى الأسفل، قالت لها من جديد: «ليس في الأمر ما يقلق».

سألتها إيرين: «هل الأمر متعلق بدانييل؟».

كشّرت لورا، وقالت: «نعم، بالطبع. إنه متعلّق به! بالطبع، إنه متعلّق بدانييل. لم أضاجع غيره ممن ماتوا في الآونة الأخيرة. أنا شاهدة، وهذا كل شيء. تعرفين أنني كنت آخر شخص رآه... آخر شخص رآه حيًّا. لا موجب للقلق».

رافقتها إيرين حتى باب البيت. ساعدتها في ارتداء معطفها الذي لا يزال رطبًا. سألت لورا إن كان لديها محام. ضحكت لورا لحظة خروجها إلى الزقاق. كانت تعرج في مشيتها أكثر من المعتاد. التفتت

إلى الخلف، ابتسامة على ثغرها، وآثار الإرهاق قد اختفت كلها. قالت: «هل يتغوّط بابا روما في الغابة؟».

كانت إيرين تفكر وهي تضع شريحتي خبز في المحمصة، كم كانت لورا ستعجب ويليام لو كان حيًّا. كانت ستجعله يضحك. ما كان شديد الإعجاب بأنجيلا - لم يبد لها أي قدر من الجفاء، ولا أي شيء من هذا القبيل. كان قلقًا فحسب. كان يقول: «إنها واقفة على حافة شيء، تلك المرأة. وعندما تسقط، ليس من المستحسن أن تكوني على مقربة منها لأنها سوف تتمسّك بك و... تسقطان معًا». لم يعرف ويليام أنجيلا عن قرب، لم يعرفها معرفة قريبة أبدًا؛ ولم تسنح له فرصة رؤية كم كانت لطيفة.

بسطت إيرين الزبدة على شرائح الخبز، ثم جلست إلى طاولة المطبخ. مخطوطة المذكرات مفتوحة أمامها، وكتاب ثيو إلى جانبها من أجل المقارنة. كانت تقول في نفسها وهي تقلّب الصفحات: «ثمة شيء عن الغناء... شيء عن... أوه...».

في آخر كتاب ثيو، وجدت مغلّفًا مدسوسًا داخل طيّة الغلاف الخارجي. مغلف رسالة. كان المغلف موجّهًا إلى ثيو مايرسون. أمر غريب لأن هذه نسخة أنجيلا! وجدت داخل المغلف ورقة من قياس A4. كان واضحًا أنها منتزعة من دفتر رسم. على الورقة رسم بقلم الرصاص لامرأة نائمة. الأغطية مزاحة جانبًا كاشفة عن جذعها العاري. وفي أسفل الورقة كان مكتوبًا بخط دقيق متشابك... *مرحبًا، أيها العجوز! كنت أرسم هذا، وظننت أنك قد تحب رؤيته!*

لم تجد تحت الرسم توقيعًا. لكنه بدا شديد الشبه بما يرسمه دانييل. كانت كارلا مايرسون هي المرأة المرسومة على الورقة. لا شك في هذا أبدًا.

- 27 -

حقيبة كارلا مفتوحة فوق سريرها، نصف ممتلئة. باب خزانة الملابس مفتوح أيضًا؛ وقطع الملابس متناثرة هنا وهناك على امتداد مفرش السرير كله. كانت تجد صعوبة في تقرير ما تضعه في الحقيبة: لا فكرة لديها أبدًا عن مدة سفرها، ولا عما قد تكون في حاجة إليه. ازداد الطقس برودة هنا، لكنه سيكون دافئًا في الجنوب. ينبغي أن يكون دافئًا! كانت تتناول قطع الملابس بذهن شارد، تتناول من الرفوف أشياء مختلفة - كنزات، وقمصان قصيرة الأكمام، وفستان لم تستخدمه منذ سنين. كان هاتفها يرن في مكان من الأماكن في البيت... لكن، ما أهمية هذا؟ هاتفها يرن دائمًا. أبدًا لا يتوقف عن الرنين.

سيكون عليها أن تكلم ثيو في لحظة من اللحظات -كانت تدرك هذا- حتى تطلب منه إحالة رسائلها إلى حيث قرّرت الذهاب، وكذلك أن يتعامل مع المحامين والمزرعة ومع مسألة بيع بيت أنجيلا.

سوف يتجادلان. لا مفر من المجادلة. هذا ما كان يدفعها إلى التفكير في سلوك مسلك الجبناء والاتصال به بعد أن تصير خارج البلاد. لكنها كانت غير واثقة من قدرتها على أن تفعل به هذا، أن ترحل من غير أن تراه مرة أخرى. وأيضًا ما كانت واثقة من أنها قادرة على فعل هذا بنفسها.

لا بد لها من إخباره بأنها نظرت إلى آخر ما كتبه، وبأنه لم يعجبها. لم تعجبها تلك الحركة الدائمة جيئة وذهابًا، وتلك القفزات في التسلسل الزمني، قفزات هنا وهناك. النص مكتوب على غرار روايته الأخيرة، رواية الجريمة الفظيعة. بحق الرب، ابدأ من البداية! لماذا

صار الناس غير قادرين على أن يحكوا القصة بطريقة عادية، من البداية إلى الخاتمة؟

في السنة التي سبقت موت أنجيلا، أتى دانييل إلى بيت كارلا نحو الساعة الثامنة من مساء يوم أحد. كان حزينًا، مضطربًا. خدوش على وجنته، وجرح على شفته. كانت لديه قصة طويلة عن مجادلة مع صديقته، مجادلة أعقبتها سرقة - لم تستطع كارلا أن تفهم حديثه فهمًا واضحًا، لكنه قال إن لا مكان لديه يذهب إليه. لا يريد إخبار الشرطة؛ وبالتأكيد لا يريد الذهاب إلى بيت أمه. قال لكارلا: «هي لا تريدني هناك. لم تردني يومًا في بيتها». قالت كارلا إنه يستطيع قضاء الليل عندها. فتحت زجاجة نبيذ، ثم بدا لها أنهما أجهزا عليها بسرعة كبيرة، ففتحت زجاجة أخرى. قاربت الزجاجة الثانية منتصفها فأدركت كارلا أن عليها أن تتوقّف. صعدت إلى الطابق العلوي، واستحمت، ثم مضت متمايلة على قدمين غير ثابتتين وهي لا تزال ملتفة بمنشفة الحمام الكبيرة، مضت من الحمام إلى سريرها. استيقظت مذعورة مثلما يحدث أكثر الأحيان عندما تشرب. ظلت مستلقية في سريرها، ساكنة تمامًا، ضربات قلبها صاخبة في صدرها. مرت لحظات قبل أن تدرك أنها أزاحت عنها الغطاء في نومها، أزاحت منشفة الحمام عن جسدها العاري. لم تألف عيناها ظلمة الغرفة إلا بعد وهلة. اكتشفت أنها ليست وحدها. وجدته جالسًا على الأرض، عند الباب، ناظرًا إليها، ودفتر الرسم في حجره.

جذبت الغطاء بحركة عنيفة فسترت به نفسها، همست له: «دانييل. لقد أخفتني!».

لم تكن قادرة على رؤية تعبير وجهه في تلك الظلمة. وحده بياض أسنانه كان واضحًا.

أجابها: «لم أستطع منع نفسي».

وفي الصباح، وجدته جالسًا إلى طاولة مطبخها يشرب القهوة.

حيّاها من غير أن يبين عليه أي حرج: «صباح الخير». قال لها عندما تشاغلت عنه بملء غلاية الماء وبوضع كأسي النبيذ الباقيتين من الليلة الماضية في آلة غسل الأطباق: «أتساءل إن كنت تستطيعين إيوائي في بيتك بضعة أيام».

استدارت كارلا فواجهته. كان مبتسمًا لها ابتسامة بريئة، جميلة. قالت: «آسفة، يا دانييل». خبت ابتسامته لحظة واحدة فقط. تابعت قائلة: «لا مشكلة عندي، لكن الأمر، فقط... ثيو. لن يقبل، فهو ليس...». أشاحت عنه بوجهها.

قال دانييل: «لا بأس. فهمت الأمر. لا مشكلة».

بدا دانييل مرهقًا، تعيسًا، عندما أتى إلى بيت أنجيلا بعد شهر من وفاتها لكي يأخذ أشياءه. لم يشأ دخول البيت. كاد هذا الأمر يثير مجادلة بينه وبين كارلا.

قالت له كارلا: «عليك أن ترى ما هو موجود، يا دانييل. لا أستطيع ترتيب كل شيء من أجلك... لا أستطيع الاختيار بدلًا منك».

أجابها: «لا أريد غير أشيائي - دفاتر الرسم، وما يخصني. لا أريد من أشيائها شيئًا».

عندما دخل البيت آخر الأمر، صعد مباشرة إلى الطابق العلوي ودخل غرفته. حمل الصندوق الذي وضعت كارلا فيه دفاتر الرسم كلها. قال: «آمل ألا تكوني قد نظرت في هذه الدفاتر لأن...»، كشر قليلًا، «لأنها ليست عظيمة».

هزت كارلا رأسها: «لا. كنت تقول دائمًا إنك حريص على خصوصيتها».

ابتسم لها وقال: «أشكرك، يا خالتي كارلا».

يستهويها دائمًا أن يدعوها *خالتي كارلا*. يذكّرها هذا به عندما

كان ولدًا صغيرًا، يذكّرها بتلك العينين الكبيرتين في وجهه الشاحب المتوتر... يذكّرها بمظهره القلق، الهش. هذا المتوحش الصغير المسكين. تقدّمت منه لكي تقبّله على خده، لكنه أزاح رأسه في اللحظة الأخيرة فمست شفتاه شفتيها.

قال لها عندما استدار لكي يمضي: «لقد استأجرت زورقًا في القناة. تمامًا عند جسر وايتمور. إن صاحبه صديق صديقي؛ وقد أعطاني الزورق بثمن منخفض. الزورق في حالة مزرية؛ لكنه أقصى ما أستطيعه الآن. سوف تأتين لزيارتي فيه، أليس كذلك؟»

وقفت كارلا تنظر إليه خارجًا من الغرفة، حاملًا صندوقه بين يديه. رأته يطأ بحذائه الرياضي السجادة التي في أعلى السلم.

التفت إليها وقال مبتسمًا: «كوني بخير».

بعدها بيوم أو يومين، أو لعلها ثلاثة أيام، كانت كارلا في بيت أنجيلا تقوم بتفقد أخير للغرف حتى تتأكد من عدم بقاء شيء فيها قبل وصول من سينظفون البيت. اكتشفت حزمة رسائل في أسفل خزانة ملابس دانييل. كانت ثلاث رسائل منها مرسلة من شقيقتها إلى ماركوس - والد دانييل. وكان على مغلف كل رسالة منها خاتم «تعاد إلى المُرسِل». كان واضحًا أن هناك من قرأ تلك الرسائل مرات كثيرة جدًا. لعل أنجيلا هي التي قرأتها مرات كثيرة، لكنها الشخص الذي كتبها، فلماذا تقرأها وتعيد قراءتها! بدا لها أكثر احتمالًا أن يكون دانييل هو من كان يقرأها.

عندما فكرت في قراءته الرسائل، كانت تتخيل دانييل الصغير، وتتخيل نفسها ناظرة إلى رأسه الجميلة، إلى الكدمات التي على رقبته. كان دانييل الصغير هو من تخيلته كارلا جالسًا يقرأ رسائل أمه، لا ذلك الرجل الغريب الذي صاره. جرحت الصورة قلبها.

جرح قلبها تفكيرها في أنه قرأ كلمات أمه القاسية التي كتبتها مخاطبة ذلك الأب الذي هجره. جرحت قلبها رؤية كيف كانت أنجيلا تتوسّل

طالبة عونه في ما يخص ابنها «المستحيل»، الصبي الذي صار مشكلة حقيقية. كانت تقول له كلامًا من قبيل أنه لا بد من فعل شيء في هذا الخصوص. كتبت: *أكاد أفقد عقلي. لا أطيق أن أكون قريبة منه. عليك أن تساعدني، يا ماركوس. لا أستطيع طلب هذا من شخص غيرك.*

في طريقها إلى القناة، اشترت كارلا زجاجة نبيذ. حاولت ألا تفكر في السبب الذي يجعلها غير راغبة في الكلام معه من غير كأس في يدها. حاولت ألا تفكر في ليلة الجنازة. حاولت ألا تفكر في دوسه على السجادة. على أية حال، هذا أمر لا معنى له! سارت في طريقها إلى أن بلغت القناة، تمامًا بعد جسر وايتمور. رأت هناك زورقين، واحدًا جميلًا، حديث الطلاء بلون أخضر زاهٍ وحافة حمراء داكنة. كان الزورق الآخر زريّ المظهر، صدئًا، ذا طلاء أزرق وأبيض. نقرت على نوافذه، ثم صعدت إلى سطحه الخلفي ونقرت مجددًا على باب الكابينة الذي انفتح تحت يدها.

نادته: «دانييل! هل أنت هنا، يا دانييل؟»

لم تجد دانييل في الزورق. لكن، كان واضحًا لها أنها في المكان الصحيح لأن صندوق الدفاتر الذي أخذه من بيت أنجيلا كان على الطاولة في الداخل، وقد تناثر جزء من محتوياته على المقعد الطويل، الذي يشغل الناحية الأخرى من الكابينة. كان الزورق نفسه في حالة مخيفة: المغسلة والموقد قذران، والكابينة الرئيسة تفوح برائحة العفن في حين كانت منطقة النوم الصغيرة في مؤخرة الزورق عابقة بروائح العرق والمني. من الواضح أن دانييل يستقبل نساء في زورقه. جعلت هذه الفكرة معدة كارلا تنقبض، ثم أعقبت ذلك موجة خجل. خجلت من نفسها. لقد صار دانييل كبيرًا. صار رجلًا. صار في الثالثة والعشرين. ما من سبب يجعل فكرة معاشرته إحداهن تسبب لها إزعاجًا. لا يجوز أن تثير هذه الفكرة أية مشاعر في نفسها!

عادت إلى الكابينة والتقطت واحدًا من دفاتر الرسم الملقاة على المقعد. قلّبت الصفحات سريعًا مع قدر من الإحساس بالذنب. رسوم بقلم الرصاص ملأت صفحات الدفتر كلها: وجوه لا تعرفها، وأطراف بشرية مقطوعة. أعادت الدفتر إلى المقعد، ثم التقطت دفترًا آخرًا. كانت رسوم هذا الدفتر بقلم الحبر، وكانت رسومًا أكثر تفصيلًا وإتقانًا - بدا لها أن في الدفتر قصة مصورة كاملة بطلها دانييل نفسه. لاحظت أنه وضع على الصفحة عنوانًا لتلك القصة -بدايات آرِس[1]- سرعان ما غامت عيناها بدموعهما. الإله المحارب آرس، الإله المكروه من بين الآلهة كلها، ذلك الذي لم يستطع أبوه وأمه أن يطيقاه.

أوه، يا دانييل!

راحت تقلّب الصفحات، فداهم الغثيان معدتها من جديد عندما عرفت صورتها مرسومة صغيرة السن، فاتنة، أكثر جمالًا وأكثر إثارة أيضًا مما كانت عليه في أية مرحلة من مراحل حياتها كلها. حرج شديد جعل الحرارة تسري في جلدها. أغلقت الدفتر وأعادته إلى المقعد حيث كان. ومن غير تفكير، تقريبًا، التقطت دفترًا آخر. كان الدفتر لا يزال في يدها عندما خرجت إلى سطح المركب، عندما لاقت عيناها لحظة واحدة عيني امرأة تمعن النظر إليها من سطح الزورق الجميل، الزورق ذي اللون الأخضر والأحمر الذي كان راسيًا على مسافة ياردات معدودة.

في غرفة نومها، أغلقت كارلا حقيبتها وحملتها إلى الطابق السفلي. تركتها في الممر. وفي غرفة المعيشة، استمعت إلى رسائلها الصوتية: واحدة من المحقق باركر يطلب فيها أن تتصل به في أقرب وقت ممكن، ورسالة أخرى من ثيو يدعوها فيها إلى العشاء. «إنه طبقك المفضل؛ لحم الخروف. لا أدري إن كنت سمعت هذا، لكن هناك أخبارًا طيبة، يا عزيزتي. أخيرًا... أتت أخبار طيبة».

(1) آرس: إله الحرب عند الإغريق القدامى.

مكتبة
t.me/t_pdf

- 28 -

كان ثيو واقفًا أمام المجلى في مطبخه. يده اليسرى تحت تيار الماء الحار وهو يرقب لون الماء في الوعاء يتحوّل من الأحمر إلى الوردي. لقد قطع ميليمترًا، أو ميليمترين، من نهاية سبابته اليسرى. وكانت كمية الدم النازفة من ذلك الجرح الصغير مفاجئة له. كان ما فعل ذلك به -سكينه التي شحذها مؤخرًا- راقدًا على الطاولة، مدمى، إلى جوار رأس ثوم مخضّب بلون وردي. ما كانت تلك السكين أداة مناسبة لتقطيع الثوم إلى شرائح رقيقة. لكنه لم يعثر على سكين المطبخ الصغيرة معلقة من القضيب المغناطيسي على الجدار. لا شك في أنها ضاعت في مكان ما في فوضى درج أدوات المطبخ المتنوعة... لن يعثر عليها أبدًا.

مع هذا، ما من داعٍ إلى القلق. هناك أخبار طيبة. أخبار طيبة، آخر الأمر!

كان ثيو قد خرج في الصباح كي يمشي قليلًا على الرغم من البرد القارس الذي حلّ على المدينة من دون سابق إنذار. وبالمصادفة، رأى ذلك الشرطي الشاب، الشرطيَ صاحب الطفح الناجم عن الحلاقة. رآه واقفًا في صف المنتظرين من أجل شراء القهوة من مقهى ممر المرسى. حاول ثيو أن يمر به سريعًا من غير أن يلاحظ الشاب وجوده، لكن محاولته باءت بالفشل: اعترض الشاب طريقه. كان وجهه كله يقظةً وانتباهًا.

قال له وهو يخطو أمامه: «سيد مايرسون! كنت أرجو أن أراك. هناك أخبار طيبة».

«أوه!؟»

أومأ الشرطي الشاب برأسه: «قال، هذا ليس رسميًا حتى الآن لأنهم

لم يصدروا إعلانًا أو أي شيء من هذا القبيل. لكني أتوقّع أن تسمع النبأ منهم في وقت قريب جدًا». استنشق نفسًا عميقًا. كان مستمتعًا بهذه اللحظة أيما استمتاع... «لقد اعتقلوا شخصًا».

أطلق ثيو زفرة مبالغًا فيها. قال وقد انقلب فتوره حماسةً شديدةً: «أوه! من... عفوًا... هل تستطيع أن تقول لي اسم الشخص الذي اعتقلوه؟».

قال الشرطي: «لورا كيلبرايد. الشابة التي قلت لي إنك رأيتها... الشابة التي ذكرتها لك من قبل. الفتاة التي قلت لك إن لها سوابق عنيفة». نطق الكلمات الأخيرة من زاوية فمه.

استطاع ثيو جعل نفسه يسأله: «وهل وجّهوا إليها اتهامًا؟»

قال الشرطي: «سوف يفعلون هذا. إنها مسألة وقت فحسب. لقد وجدوا السكين».

«وجدوا... ماذا؟ هل تعني سلاح الجريمة؟». كان قلب ثيو ينبض عنيفًا في صدره، عنيفًا إلى حد جعله يظن أنه مشرف على فقدان وعيه.

ابتسم الشاب ابتسامة عريضة من الأذن إلى الأذن: «لقد أوقعوا بها، يا سيد مايرسون. دليل إدانة دامغ».

عبر مسار عودته القصير إلى بيته، شعر ثيو كأنه ارتقى قمة جبل. كانت ساقاه الخائرتان شبه عاجزتين عن حمله. كاد يقع مرتين عندما حاول الابتعاد عن طريق من يمارسون رياضة الجري هناك. لكنه، في الوقت نفسه، أحس بأنه يرقص! لقد انتهى الأمر! لقد أمسكوا بها! لقد انتهى الأمر! لم يكن ما جعل قلبه يحلق عاليًا مقتصرًا على حقيقة أن هذه الفوضى كلها قد انتهت، لم يكن مقتصرًا على أن قضية دانييل الوحشية البشعة قد انتهت، بل كان قلبه محلقًا فرحًا بما انتهى إليه الأمر كله. رحل دانييل، ومن قبله أنجيلا. سوف تعاني كارلا، وسوف تحزن عليهما، وسوف تشعر بما يلزمها أن تشعر به؛ وأما بعد ذلك،

فمن الممكن أن يبدأ تحسّن حالها من غير وجود أي شخص قادر على جرها إلى الأسفل من جديد. مشكلات آل ساذرلاند، وذلك السم كله الذي بثّوه في حياته العائلية، في زواجه... صار من الممكن الآن أن يزول، أن يختفي.

كان ثيو مدركًا أنهما لن يعودا أبدًا مثلما كانا من قبل -هو ليس غبيًا- لكنه صار الآن قادرًا على رؤية طريق تمضي إلى الأمام. صار قادرًا على رؤيتهما يبنيان معًا حياة من أجلهما، يبنيان نوعًا من السلم. صارا الآن قادرين على فعل ذلك معًا... الآن، ما عاد أي شيءٌ يفصل بينهما، وما عاد أي شخص يفصل بينهما.

في آخر المطاف، توقف جريان الدم من إصبع ثيو فضمَّدها، ثم غسل السكين، ورمى رأس الثوم المدمى، وعاد إلى متابعة إعداد الطعام. ترك قطع اللحم منقوعة في الثوم والزيت والنعناع، وارتدى معطفًا، وخرج من البيت، فوقف على الشرفة الخلفية حتى يدخن سيجارة. رفع السيجارة إلى شفتيه فلاحظ بقايا دم عند جذور أظافره. تذكر فجأة صبيحة اليوم الذي رأى فيه الفتاة في الزقاق - لورا التي اعتقلوها. بعد رؤيتها، عاد إلى فراشه الخالي وغرق في النوم من جديد. وعندما استيقظ، كانت كارلا في الحمام. خرجت بعد ذلك فناداها إليه. مد يده صوبها محاولًا أن يجذبها إلى السرير، لكنها تمنعت. قبّل أطراف أصابعها. رأى لونًا ورديًا عند جذور أظافرها.

عاد فدخل البيت. كان يسكب لنفسه كأس نبيذ أحمر عندما رُن جرس الباب. لا بد أن كارلا نسيت مفتاحها. التقط كومة الرسائل عن الحصيرة الصغيرة خلف الباب وألقى بها على طاولة الممر المثبتة إلى الجدار، ثم فتح الباب مع ابتسامة على وجهه وفراشات تتطاير في معدته... مثلما كان يحدث في الأيام الخوالي.

قال خائبًا: «أوه، إنه أنتِ!».

- 29 -

بعض الأمور باقٍ على حاله؛ وبعض الأمور قد تغير. لورا جالسة، محنية الظهر. رأسها فوق ذراعيها المطويتين أمامها على الطاولة. في المرة الماضية، كان ذلك في ساعة متأخرة من الليل؛ وأما الآن، فهي ساعات الصباح الأولى. لكن، من عساه يستطيع أن يكون واثقًا من التوقيت؟ ما من نور طبيعي في الغرفة. من الممكن أن تكون هذه أية ساعة من ساعات الليل أو النهار. كانت غرفة مختلفة لكن من الممكن -من النواحي المهمة كلها- أن تكون هي الغرفة نفسها. في المرة الماضية، كانت التدفئة مبالغًا فيها. وهذه المرة البرد شديد في الغرفة. لكن النور الساطع لا يزال كما هو، وكذلك الأثاث الرخيص. سجادة رمادية قبيحة مثل التي على أرض الممر في منزلها. («لا تفكري في *المنزل. لا تفكري في المنزل، وإلا فسوف تبكين*»). وعلى غرار المرة الماضية، كان البيضة هناك، وذات الحاجب أيضًا. كانا جالسين قبالتها. تعابير وجهيهما جادة. قالت في نفسها إن تعابير وجهيهما جادة أكثر مما كانت في المرة الماضية. يشيح البيضة بوجهه عنها كلما صادفت عيناها عينيه. أثار هذا ذعرها.

كانت مستنفدة القوى. بدا لها أن أيامًا قد انقضت، بل حتى أسابيع، منذ أن تلقت ذلك الاتصال الهاتفي عندما كانت في بيت إيرين بعد ظهر يوم أمس. ذهبت لرؤية الشرطة في بيتها، مثلما طلبوا منها. تلقّت بلاغ اعتقالها وهي واقفة في الخارج، في ساحة وقوف السيارات، والجيران يراقبون المشهد. ثم ساروا بها إلى الطابق السابع، إلى شقتها. كان هناك

أشخاص ينتظرون في الممر، خارج الشقة. وكانوا يرتدون ملابس واقية بيضاء كالتي يراها المرء في التلفزيون.

سألت لورا: «ما الأمر؟ لقد فعلتم هذا من قبل، أليس كذلك؟ فتشتم شقتي من قبل، فلماذا تفعلون هذا من جديد؟»

قال لها أحدهم إن أدلة جديدة قد ظهرت، ولا بد لهم الآن من تفتيش الشقة تفتيشًا أكثر دقة. انتظرت هناك حينًا من الوقت، ثم أتوا بها إلى هذا المكان، إلى مركز الشرطة. كان الوقت عند ذلك قد تأخر. وضعوها في زنزانة، وقالوا لها إن عليها أن تنال قسطًا من الراحة. لم تنم لحظة واحدة.

وضعت ذات الحاجب كأس ماء أمامها. قالت لها: «لورا. سوف يأتي المحامي المكلف الآن. هل فهمت هذا؟ سنبدأ الاستجواب بعد لحظات».

أجابتها لورا: «نعم، لا بأس. في صحتك!». إنه الأمر نفسه: التهذيب، واللطف المصطنع، مثلما فعلوا من قبل. إنهم يفعلون هذا دائمًا. فعلوا هذا في كل «مقابلة» لها مع الشرطة. لكنها تخيلت، مع ذلك، أن هذه المرة قد تكون مختلفة لأن الأمر هذه المرة مختلف جدًا. هذه ليست مسألة اعتداء، أو سلوك غير مقبول، أو سكر في مكان عام، أو سرقة صغيرة... هذه جريمة قتل!

جريمة قتل!

أحست لورا بضحكة تعلوا في صدرها. نصبت قامتها، وعضّت على شفتها لكنها لم تستطع كبت ضحكتها على الرغم من كل ما استطاعت فعله من أجل كبتها: خرجت من فمها ضحكة مكبوتة. فوجئ البيضة، فرفع رأسه عن الأوراق التي كانت أمامه. تواصل ضحك لورا. الأمر ليس مضحكًا... ليس مضحكًا أبدًا. ضحكت بصوت أعلى، طال ضحكها، وذرفت عيناها دمعًا.

سألها البيضة: «هل أنت على ما يرام، يا لورا؟».

انحنت إلى الأمام ووضعت جبهتها على الطاولة. عضت على باطن خدها. *كفّي عن الضحك، كفّي عن الضحك، كفّي عن الضحك، كفّي عن هذا الضحك اللعين.*

انفتح الباب فتوقفت لورا عن الضحك. رفعت رأسها ونظرت. رجل قصير، نحيل، شعره بلون الزنجبيل، وجلده شديد الشحوب. مد الرجل إليها يدًا رخوة صافحت يدها. إنه المحامي المكلّف... محام آخر غير الذي أتى في المرة الأولى. قال لها اسمه، لكنها نسيته على الفور. ابتسم لها ابتسامة سريعة متوترة. ما سبب توتره؟ هذه ليست علامة حسنة، أليس كذلك؟

لم يقل البيضة شيئًا. كان يسرد أسماء الجميع من أجل السجلات. أصغت لورا إلى أسمائهم جميعًا، ثم نسيتها من جديد: البيضة، وذات الحاجب، والرجل المتوتر. لورا كيلبرايد. راحوا يطرحون أسئلة. أسئلة مثل أسئلة المرة السابقة. أين التقت دانييل، ومتى، وفي أي وقت وصلا إلى زورقه، وماذا فعلا بعد وصولهما إلى الزورق؟ الأسئلة كلها التي طرحوها عليها من قبل... في شقتها أول الأمر، ثم في مركز الشرطة.

أخيرًا، قالت لهم لورا: «ماذا بكم؟ ألا تغيّرون هذا الشريط؟ لقد فعلنا هذا من قبل، ألم نفعله؟ غنينا هذه الأغنية الثنائية... أم هي الآن أغنية رباعية؟». نظرت إلى الرجل المتوتر. قالت له: «هل ستكون أغنية رباعية؟ لكني أرى أن مساهمتك ليست كبيرة! ألا تغنّي معنا؟».

ضغط البيضة على شفتيه. تعابير وجهه توحي بالألم.

سألتها ذات الحاجب: «لورا، أتظنين هذا أمرًا مضحكًا؟ أتظنين الأمر نكتة؟».

«إنها نكتة لعينة. نعم. أقول هذا لأنني أخبرتكم كل شيء عن دانييل ساذرلاند. لقد أخبرتكم بأننا تجادلنا وتعاركنا قليلًا. لكن هذا كل شيء. لم أطعنه. جرى بيننا هذا الحديث، ولم تصلوا إلى شيء – لم تصلوا إلى شيء أبدًا، أليس هذا صحيحًا؟ كل ما في الأمر هو أنكم

لم تعثروا على أي شخص آخر، فأتيتم بي إلى هذا المكان من جديد وعدتم إلى مضايقتي وتهديدي».

التفتت إلى الرجل المتوتر. قالت له: «عليهم أن يفعلوا شيئًا أو أن يطبقوا أفواههم. ألست معي في هذا؟». نظر الرجل إلى دفتر الملاحظات أمامه على الطاولة. لا تزال صفحاته خالية. شيء عجيب! لا فائدة من هذا الرجل أبدًا، أليس كذلك؟ قالت للمحققين: «إما أن توجهوا إليَّ اتهامًا، أو أن تخلوا سبيلي».

استند البيضة إلى ظهر مقعده ونظر في عينيها مباشرة. راح يوضح لها أنهم، فضلًا عن الشاهد الذي رآها مضطربة، ملطخة بالدماء، تغادر مسرح الجريمة قرابة الوقت الذي فارق فيه دانييل ساذرلاند الحياة، قد وجدوا الـ«دي إن أيه» الخاص بها على جسده. وأيضًا، وجدوا الـ«دي إن أيه» الخاص به على جسدها. وفوق هذا كله، هناك حقيقة أنها سرقت ساعته. قال البيضة إن التحليلات التي أجريت على قميصها بينت أن أكثر الدم عليه هو دمها، لكن نسبة واضحة -وإن تكن بسيطة- من الدم الذي وجدوه على قميصها كانت من دم دانييل ساذرلاند.

سألها: «هل تستطيعين تفسير هذا، يا لورا؟ إن كان دانييل سليمًا معافى عندما تركته، مثلما قلت لنا، فكيف تفسرين وجود دمه على ملابسك؟».

لقد قال لها دانييل في لحظة من اللحظات في ساعات الصباح الأولى بعد أن فرغ من مضاجعتها مرة ثانية: «*يتضح لي الآن أن مضاجعة فتاة عرجاء ليست شيئًا يعجبني*». كان هذا مفاجئًا جدًا. أتى من غير مقدمات. ما كانت مستعدة لهذه الفظاظة القاسية. كانت تدرك أن دانييل ليس رجلًا *لطيفًا*. وما كانت لتذهب معه لو كان كذلك، فهي لا تحب الرجال اللطيفين... عادة ما يتبين آخر الأمر أنهم من أسوأ الناس. لكنها لم تتوقّع سماع هذا منه. لم تتوقّع أن يدفعها بعيدًا عنه وأن يضحك عندما تعثرت وسقطت. ما كانت ضحكته مصطنعة، بل حقيقية

جدًا كأنه رأى الأمر مضحكًا بالفعل. عندما نهضت واقفة، كان الغضب قد أعمى بصرها. هاجمته هجومًا سريعًا فاجأه. رأت ذلك التعبير على وجهه. خلال لحظة قصيرة، خلال جزء من ثانية، كان دانييل خائفًا.

«ماذا، يا لورا؟». إنها ذات الحاجب هذه المرة. إنها منحنية صوبها، فوق الطاولة، «هل لديك تفسير؟ هل تستطيعين تفسير وجود دم دانييل ساذرلاند على قميصك؟».

قالت لورا: «لقد عضضته».

كررت ذات الحاجب عبارتها: «هل عضضته؟» كانت جادة تمامًا. حاولت لورا قراءة وجهها الجامد، لكنها لم تستطع. بدأت تضحك من جديد لأن... كيف لها ألا تضحك؟ هذا أمر خطير، أمر خطير جدًا. نظرت إلى المحقّقين الجالسين إلى الناحية الأخرى من الطاولة، وضحكت، ثم ضحكت. وأما المحققان، فقد كان أحدهما حزينًا (البيضة)، وكانت الأخرى راضية عن نفسها (ذات الحاجب).

انتفض الرجل المتوتر الجالس إلى جانبها. رفع كفيه، وبسط أصابعه، ونظر إليها كأنه يقول: *ماذا بك؟*

«عضضته عضة قوية هنا...». أشارت لورا إلى موضع على رقبتها فوق عظم الترقوة، «عضضته فسال دمه. كان دمه في فمي، على شفتي. مسحت الدم. لا بد أن شيئًا منه قد سقط على قميصي».

ابتسمت ذات الحاجب ابتسامة متكلّفة وهي تهز رأسها. سألتها: «أهذا ما حدث؟ أهذا هو تفسيرك؟».

قالت لورا: «هذا هو تفسيري. نعم. اسألي جماعة الطب الشرعي عندكم. اسأليهم إن كان على رقبته أثر تلك العضَّة».

قال البيضة بصوت هادئ: «بالنظر إلى مواضع جروح الطعنات التي تلقاها، من المحتمل ألا يكونوا قادرين على تبيّن ذلك».

«أها!». أطلقت لورا صيحة ظفر واسترخت مستندة إلى ظهر مقعدها. ابتسمت.

سألها البيضة: «لكني لا أرى احتمالًا كبيرًا لأن تفسّر عضتك كمية الدم التي وجدناها... إلا إذا كانت عضة عميقة جدًا. فهل كانت كذلك؟».

ابتلعت لورا ريقها. قالت: «في الحقيقة، لا. أنا لست مصاصة دماء، أم أنك تراني كذلك؟ لقد جرى بيننا قدر من العراك. انكسر شيء - طبق، أو كأس، لست أدري. إنها كأس. ألم تكن على الأرض كأس؟ أظنّها كانت كأسًا. كان على يده دم. أظنه كان على يده... ثم دفعني. نعم، دفعني بيده، دفع وجهي بيده، لأنني أتذكّر أنني عدت إلى البيت فوجدت دمًا على وجهي. لقد دفعني في وجهي، ثم دفعني من جديد في صدري عندما تحرك فتجاوزني».

إلى جوارها، كان الرجل المتوتر مندفعًا في الكتابة في دفتره.

سألها البيضة: «لماذا لم تذكري هذا من قبل، يا لورا؟ لماذا لم تقولي لنا شيئًا من هذا كله؟».

قالت لورا: «ما كانت له أهمية».

قال البيضة بصوت متوتّر: «بل كانت له أهمية، بالطبع. عندما تكذبين على الشرطة، يكون هذا أمرًا مهمًا. لماذا لم تقولي لنا هذه المعلومات؟ لماذا تكذبين في أمر خطير كهذا الأمر؟».

قالت لورا بنبرة حادة: «ولماذا لا أكذب؟ من قبل ذلك، كنت واقعة في مشكلات كثيرة. أنا واقعة دائمًا في مشكلات لعينة، ولا أريد أن أزيدها سوءًا. صحيح أنني كذبت!». صارت كلماتها صراخًا، «كذبت يومها، لكني أقول الحقيقة الآن».

من مكان ما، من مكان ما، كانت لورا قادرة على تحديده، أخرجت ذات الحاجب كيسًا من النايلون الشفاف -لعلها أخرجته من «كيس حِيَل» وضعته تحت الطاولة- ووضعته على الطاولة، بينهما. حدّقت لورا في الكيس.

سألتها ذات الحاجب: «ماذا تستطيعين أن تقولي عن هذا، يا لورا؟».

فتحت لورا فمها، ثم أطبقته من جديد. «ماذا أستطيع أن...». كانت توشك على الضحك مرة أخرى. عضت على شفتها السفلى عضًا شديدًا، «ماذا أستطيع أن أقول عن هذا؟ هذه سكين. تبدو لي سكينًا. إنها سكين صغيرة... صغيرة بعض الشيء. مقبضها أسود اللون. أظنه من الخشب. وهناك شيء على نصل السكين. لا فكرة لدي عما قد يكون هذا الشيء، لكنني أستطيع التخمين...».

تدخّل الرجل المتوتر. قال بنبرة حادة: «لا تخمّني شيئًا».

«صحيح. لا بأس. أنت محق. ماذا أستطيع القول عنها؟ أستطيع القول إنها تبدو لي سكينًا لم أرها قبل الآن أبدًا».

أومأ البيضة برأسه: «لا بأس. هل يفاجئك سماع أننا وجدنا هذه السكين في شقتك؟».

هزت لورا رأسها، وقالت: «لا. أعني نعم. نعم، بالطبع يفاجئني كثيرًا. قلت لك قبل لحظة إنني لم أرها من قبل أبدًا. هذه ليست سكيني. ليست لي». نهضت واقفة، «ليست لي!».

قال البيضة بنبرة لطيفة: «اجلسي من فضلك، يا لورا».

جلست لورا. بدأت تقول من جديد: «لماذا يمكن أن...؟ لا، لا بأس، فلنقل جدلًا إن...».

«يا آنسة كيلبرايد، أنا...». أخيرًا، استيقظ الرجل المتوتر!

«لا، لا بأس في هذا، لا مشكلة في هذا. فلنقل جدلًا إن هذه السكين كانت في شقتي. لماذا أتركها هناك؟ هل ترونني مجنونة؟ هل أنا مختلة العقل؟ لماذا أتركها هناك إلى أن تأتوا وتعثروا عليها؟».

قالت ذات الحاجب: «لقد تركت ساعة دانييل في شقتك».

«أوه، بحق الرب... أنت لا تقتلين الناس بساعة يد!».

«لكنك تقتلين الناس بالسكاكين، أليس كذلك؟».

اتسعت عينا لورا دهشة. التفتت إلى المحامي وقالت: «أرأيت هذا؟ أرأيت هذا؟ إنها تحاول وضع كلمات على لساني. إنها تحاول

خداعي. ألاعيب الشرطة المعروفة. هذه السكين ليست لي. لا أعلم من أين أتت. هي ليست لي».

قالت ذات الحاجب مستحثّة إياها على الكلام: «إذًا... ماذا؟ ماذا تقولين؟ لا أريد أن أضع كلمات على لسانك. لذا، أخبريني عما تظنين أنه قد حدث».

فتحت لورا فمها، ثم أغلقته من جديد مثلما تفعل سمكة. رفعت كفيها في الهواء. قالت: «لا علم لي. ماذا تظنين؟ لعل شخصًا قد وضعها هناك. قد يكون واحدًا من جماعتكم. تحاولون أن توقعوا بي. أنتم يائسون، أليس كذلك؟ أنتم يائسون لأن أسبوعين انقضيا منذ موته ولم تنجحوا في التوصل إلى شيء».

كررت ذات الحاجب قولها، كررته ببطء شديد: «ترين أن هناك من وضع السكين في شقتك! هل يملك أحد غيرك مفتاح شقتك، يا لورا؟ هل يستطيع أحد غيرك دخولها؟»

أجابت لورا: «ماذا؟ فضلًا عن الخادم؛ وفضلًا عن السيدة التي تأتي لتنظيف الشقة؛ وفضلًا عن مدربي الشخصي، وفضلًا... أوه انتظري لحظة، نعم، إنها ميريام!». تذكّرت الأمر في تلك اللحظة، «ميريام لديها مفتاح شقتي». تبادل المحقّقان نظرة سريعة، «لا بد أنها... يا للهول! انظروا!... كان مزاحًا عندما قلت إن الخادم يدخل شقتي. لكن هناك تلك المرأة، اسمها ميريام، وهي تعيش في الـ... آه، أنتما تعرفان ميريام. لقد تحدّثتما إليها. قالت إنها هي من عثر عليه؟ أليس كذلك؟ نعم، إن لديها مفتاح شقتي».

تبادل المحقّقان نظرة سريعة أخرى قبل أن تميل ذات الحاجب صوبها وتستحثّها بالمتابعة، «تقولين إن ميريام لديها مفتاح شقتك، هل هذا صحيح؟».

«لا أعلم اسم عائلتها - إنها تلك التي تعيش في زورق. المرأة التي قالت لكم إنها عثرت عليه. كم ميريام يمكن أن يكون هناك؟».

أجابها البيضة: «واحدة فقط. وبكل تأكيد، اسمها ميريام لويس».
بدت عليه حيرة حقيقية جعلت أعصاب لورا تسترخي قليلًا، «لماذا تظنين أن ميريام لويس قد وضعت السكين في شقتك؟».

كانت أنفاس لورا سريعة، ضحلة. صارت الآن ترى أشياء ما كانت تراها من قبل، صارت ترى بصيص ضوء، صار لديها إحساس -ما اسم هذا الإحساس الغريب؟- إحساس بالأمل. قالت، «مفتاحي. ألا تتذكر أنني أضعته؟ قلت لك هذا. جرحت ذراعي...». أومأ البيضة برأسه، «نعم، اتضح لي أن المفتاح عندها. قالت إنها وجدته في زورقه. لكنها لم تقل لي السبب الذي جعلها تأخذه. النقطة المهمة هنا هي أنها كانت قادرة على دخول شقتي في أي وقت بعد موته. المسألة هي، كما ترى...».

الآن، صار كل شيء واضحًا أمام عينيها، «المسألة هي أن ميريام حاقدة على آل مايرسون. هل تعرفون هذا؟ تكرههم، وتراهم أشرارًا. لست واثقة من السبب الذي يجعلها ترى هذا، لكنها قالته لي. قالت لي إنها تظن كارلا -كارلا هي خالة دانييل، هل رأيتم؟- قالت لي إنها تظن أن كارلا من قتله. في ذلك الوقت، رأيت ذلك غريبًا جدًا. لكني أرى الآن أنها كانت تحاول تحويل انتباهي إلى وجهة أخرى، أعني... تقول إنها وجدته، لكن هل تعرفون إن كان هذا صحيحًا؟ لعلها عثرت عليه لأنها كانت تعلم أن هناك ما يمكن العثور عليه! ألا يقولون كثيرًا إن من يعثر على جثة القتيل هو القاتل؟ أعرف أن هذا قد يبدو بعيد الاحتمال لأنها امرأة مسنة...».

قالت البيضة: «هي في الثالثة والخمسين».

«نعم، تمامًا. لكن مجرد كونها كبيرة السن لا يعني أنها لا يمكن أن تكون قد قتلته. هل تعرفون أن بها عطبًا خطيرًا؟ أعرف... أعرف ما تفكرون فيه الآن. أنتم تنظرون إليّ وتقولون في أنفسكم، *انظروا من يتكلم!* لكن، أحيانًا، لا بد من معرفةٍ شخصية بالآخر. هل تعلمون ما

تقوله ميريام عن أن قاتلًا قد اختطفها ذات مرة؟ وأنها كتبت كتابًا عن ذلك؟ إنها... ». راحت إصبع لورا ترسم دوائر صغيرة في الهواء مشيرة إلى صدغها. «هي مجنونة تمامًا».

كان المحققان مسترخيين في مقعديهما؛ وكان كل منهما عاقدًا ذراعيه على صدره. بدا وكأن لورا قد ألقت عليهما سحرًا جعلهما صامتين. كانت ذات الحاجب أول من أفاق من السحر، «هذا المفتاح الذي تقولين إنه لديها... هي...».

«كان لديها. هو ليس لديها الآن. لقد استعدته منها».

قالت ذات الحاجب: «هل استعدته منها؟ استعدته يوم أمس، أليس هذا صحيحًا؟ استعدته عندما ذهبت إلى زورقها، عندما اعتديت عليها».

«عندما ماذا؟ لا. لم أهاجمها، ولم أعتد عليها. لم أفعل إلا...».

سارعت ذات الحاجب إلى القول: «يا لورا، لقد تقدّمت الآنسة لويس بشكوى في حقك، إنها...».

«أوه! الآن، هذا كلام فارغ. هذا كلام فارغ تمامًا. أنا لم أهاجمها. هي دفعتني. انظروا!». أشارت لورا إلى الكدمة في وجهها، «دفعتني فسقطت. لكن... المسألة ليست هنا، ألا تريان هذا؟». التفتت إلى الرجل المتوتر، «أنت، ألا ينبغي أن تفعل شيئًا؟ قل شيئًا!». وضعت إصبعها على كيس النايلون الذي فيه السكين، «هل بصمات أصابعي موجودة على السكين؟ ليست موجودة. ماذا تقولون؟».

«لا نزال نجري اختباراتنا».

«اختبارات! اختبارات من أجل بصمات الأصابع...». قالت هذا وأطلقت ضحكة ساخرة، «ليس لديكم شيء، أليس كذلك؟ انظروا الآن، هل ستتهمونني أم لا؟ لأنني، إذا لم تتهموني...».

«سوف نتهمك، يا لورا».

تحطّمت آمالها. قالت: «لكن... لكن، المفتاح. ألا تستنتجان من هذا شيئًا؟».

قالت ذات الحاجب بصوت حازم: «توفر لديك الدافع والوسيلة والفرصة...». كانت تحصيها على أصابعها، «كذبتِ علينا عندما وصفت لنا عراكك مع دانييل. وجدنا دمه على ملابسك. وجدنا سلاح الجريمة في حوزتك».

«لم يكن في حوزتي...». بدأت لورا تبكي. «المفتاح. لا بد أنه... من فضلكم...». نظرت إلى البيضة الذي بدا لها كأنه موشك على البكاء بدوره. لم يقابل نظرتها، بل إلى الطاولة أمامه، ثم إلى الرجل المتوتر. قال له: «سوف نأخذها الآن إلى الأسفل حتى تسمع توجيه الاتهام رسميًا».

قالت لورا من جديد: «لا، من فضلكم».

مدت يديها صوب البيضة. أرادت أن ترجوه. أرادت أن تلقي بنفسها عند قدميه، أن تعرض نفسها عليه، لكن في الغرفة الآن أشخاصًا آخرين، أشخاصًا في ملابس الشرطة. حاول أحدهم مساعدتها على النهوض من مقعدها. كانوا لطيفين معها إلى حد كبير. لكن لطفهم جعل الأمر أكثر سوءًا. بدأت تدفعهم عنها. بدأت تقاوم.

سمعت صوت البيضة يكلمها قلقًا، لائمًا، قائلًا لها: «لورا! هيا الآن! لا تفعلي هذا...». لكنها أرادت فعل هذا، أرادت أن تقاتل، أرادت أن يمسكوا بها وأن يرموها على الأرض، أرادت أن يُسقطوها. أرادت النسيان.

- 30 -

كانت كارلا قد بدّلت ملابسها مرتين. بدأت كتابة رسالة إلى ثيو، ثم تركتها. فعلت ذلك ثلاث مرات. أخيرًا، في المحاولة الرابعة، رأت أنها اهتدت إلى الطريقة الصحيحة. بدلًا من الرحيل سرًّا، قررت في آخر المطاف أن تلبي دعوته إلى العشاء. سوف تبات عنده مثلما تفعل عادة. وفي الصباح، تنسلّ خارجة وترحل تاركة الرسالة على مكتبه.

لقد حجزت سيارة لكي تأخذها إلى محطة كينغز كروس في الساعة الحادية عشرة وثلاثين دقيقة من صباح اليوم التالي. هذا ما يتيح لها وقتًا كافيًا لأن تعرّج على هايواردز بليس حتى تأخذ الأشياء التي وضعتها هناك، ثم تركتها، بكل غباء –رسن الكلب، والرسائل، ودفتر الرسم– الأشياء التي لا تطيق فكرة أن يعثر عليها ثيو. لا تريده أن يواجه الواقع مثلما واجهتْه، فتكوينه غير تكوينها. انظروا، بعد كل حساب، انظروا إلى ما فعله تكوينها بها!

كم كان مؤسفًا أن دانييل لم يستطع الاستفادة من موهبته! هذا ما كانت كارلا تفكر فيه يوم أخذت دفتر الرسم من الزورق، ساعة بدأت تصفّح ذلك الدفتر جالسة على الأريكة في بيتها. كان يرسم بطريقة جميلة جدًا، ويلتقط تعابير الوجوه التقاطًا نابضًا بالحياة، يلتقط الحركات، ويسجّل التلاوين كلها. كان يسكب على صفحات دفتر الرسم جهدًا لم ينجح في الإتيان بمثله في شؤون حياته.

انتابها إحساس بالذنب لأنها تفكر هكذا، إحساس بالذنب لأنها نظرت في دفاتره – كان دانييل دائمًا شديد الوضوح في تأكيده على أنها

ليست من أجل أعين الآخرين، وفي أنه يرسم لنفسه فقط. افترضت كارلا أن لديه مشكلة لجهة الثقة بالنفس؛ لكنها لم تعد الآن واثقة من هذا. أزعجتها إزعاجًا خاصًا رؤية الصفحات التي تظهر فيها صورتها لأنها صارت الآن واثقة من أنها كانت مصيبة عندما اشتبهت في وجود شيء غير سوي في حب دانييل لها. بل أسوأ من هذا... خشيت أيضًا أن يكون في حبها له شيء غير سوي أيضًا. اختلطت هذه المشاعر كلها -الذنب والانزعاج والخوف- فصارت كارلا غير قادرة على منع نفسها من مواصلة تقليب الصفحات لأن... لأن ما رسمه كان جميلًا.

لقد رسم كل شيء في صورة مثالية: البيت في لونسديل سكوير حيث ترعرعتا، هي وأنجيلا، وحيث أمضى دانييل سنوات طفولته الأولى - صار الآن أشبه بقلعة منه بفيلا على الطراز الفيكتوري، وصارت الأرض من حوله منتزهًا كبيرًا أكثر منها حديقة بيت في لندن. دانييل في أول شبابه كان هنا مُصوَّرًا شخصًا عريض المنكبين، بارز العضلات. وعندما رأت بن، توقفت أنفاسها في صدرها. ملاك ذو غمازتين وعينين كبيرتين داكنتين تقاربان الكمال: نجح دانييل نجاحًا كبيرًا في التقاط سخاء ابتسامته الكبيرة والتواءات شعره الناعمة عند رقبته. كاد قلبها يتوقف عن الخفقان.

وضعت الدفتر من يدها.

عندما حملت الدفتر مرة أخرى، عندما راحت تقلّب صفحاته أمامًا وخلفًا محاولة فهم الاتجاه الذي تتخذه تلك القصة المصورة، أدركت أن ليس كل ما فيها قد صُوّر تصويرًا مثاليًا. على سبيل المثال، كانت أنجيلا مصورة تصويرًا بشعًا: امرأة هزيلة عجفاء، تكاد تكون من غير ملابس... امرأة تكثر الشرب، سكيرة وضيعة. لكن تصوير دانييل كانت فيه مشكلة أيضًا. صحيح أن «آرِس» جميل من الناحية الجسدية، لكن شخصيته فاسدة: شخص خبيث الطباع، يضطهد من هم أصغر منه سنًا في المدرسة، ويضربهم ضربًا مبرحًا، بعض الأحيان. شخص يغوي

الفتيات الصغيرات، ثم يرميهن. فتيات تظهرن في مراتب متفاوتة بين السذاجة والغباء. كان شخصًا يضايق أمه ويهينها. رأت كارلا أن من الغريب جدًا، ومن المزعج - مع أنه يظل أمرًا مؤثّرًا في النفس- أن ترى دانييل مصورًا على هيئة وحش، وأن تعرف أنه هو من رسم نفسه هكذا. ما معنى امتناعه عن جعل نفسه بطل قصته؟ ما معنى جعله نفسه الشخصية الشريرة في القصة؟ عذّبها هذا كثيرًا. لكنها واصلت تقليب الصفحات فبدأت تنزاح تلك الكتلة الدامية، كتلة الألم التي كانت جاثمة عليه، بدأت تختفي ويحل محلها شعور بالذعر، ويقين متنام من أن عليها أن تضع الدفتر من يدها، أن عليها أن تغلقه وألا تنظر فيهً بعد الآن. لكنها بلغت عند ذلك منتصف الدفتر تقريبًا، فرأت رسمًا جديدًا لها عند وصولها إلى لونسديل سكوير بعد ظهر يوم صيفي حاملة بن بين ذراعيها. على الفور، عرفت ذلك اليوم فما عادت قادرة على مواصلة النظر.

في النسخة التي رسمها دانييل لمجريات الأمور، كانت كارلا ترتدي فستانًا. شعرها طويل، متموّج، منحدر على كتفين عاريتين؛ وبن -بن الذهبي، فائق الجمال- مبتسم، ضاحك، جاثم على وركها. دانييل على الشرفة، وجهه الشاحب نصف مختفٍ في الظلمة، ينظر إلى كارلا وهي تناول أنجيلا ابنها. دانييل منحنٍ على حافة الشرفة، في النور، يلوّح بيده لخالته. لكنها كانت قد استدارتً ومضت مبتعدة من غير أن تراه. تتهدّل ملامح وجهه الصغير.

في الصفحة التالية، حل ظلام الليل. دانييل يجلس وحيدًا، يتابع التلفزيون في غرفة الألعاب. ينهض ويصعد إلى الأعلى، إلى غرفة أمه، باحثًا عنها حتى يتمنّى لها ليلة طيبة. لكنها ليست هناك. يعود أدراجه نازلًا إلى غرفته حيث يجد أن ابن خالته الصغير قد استيقظ ونزل عن السرير الذي كان نائمًا عليه. إنه الآن مستلقٍ وسط الغرفة، على

الأرض. إنه يرسم، يرسم خطوطًا عشوائية في واحد من الدفاتر، ومن حوله دفاتر أخرى متناثرة، صفحاتها ممتلئة خربشات بشعة. العذاب الظاهر على وجه دانييل مرسوم بدقة كبيرة: لقد أتلف بن دفاتره كلها، أتلف قصصه المصورة التي اعتنى برسمها. طار صوابه، وصاح مناديًا أمه، لكن أحدًا لم يأت. يبحث عنها، ويفتش الغرف كلها، غرفة تلو غرفة، إلى أن يبلغ غرفة المكتب. الباب مغلق، لكنه يستطيع سماع أن في الداخل من يصدر أصواتًا. يدفع الباب برفق فيفتحه ويراها - يراها ممتطية رجلًا، شخصًا غريبًا، شخصًا لم يره من قبل، لم يره أبدًا. رأسها ملقى إلى الخلف، وفمها ذو الشفتين الحمراوين مفتوح على اتساعه. تلتفت وترى ابنها المذعور. تبدأ الضحك.

يفر دانييل من الغرفة.

في المشهد التالي، يظهر دانييل راقدًا على سريره. خيالاته مرسومة في غيمة فوق رأسه... غيمة تتتالى فيها مشاهد متعدّدة: في المشهد الأول يتخيل أنه يضرب عشيقًا على رأسه بزجاجة شمبانيا. وفي مشهد آخر، يصفع وجه أمه الثملة. ثم تتبدّد غيمة مخيلته. يرفع دانييل رأسه مستندًا إلى مرفقه ويحدق في الطفل الصغير في الناحية الأخرى من الغرفة، في الطفل النائم الآن مستلقيًا على جانبه، يحدّق في أهدابه الطويلة التي تمس وجنتيه... ذؤابات شعره هالة من حول رأسه.

وفي الصباح، يصعد دانييل إلى غرفة أمه. إنها نائمة... وحدها. يخرج من غرفة نومها ويقفل الباب من خلفه. يعود إلى الطابق الأول، إلى غرفته، حيث يهز الطفل الصغير النائم هزًّا رفيقًا إلى أن يوقظه. يبتسم الطفل ابتسامة كبيرة بلهاء إذ سرّته رؤية ابن خالته الكبير. يساعده دانييل في النهوض من فراشه، ثم يمسك بيده ويأخذه إلى غرفة المكتب. يفتح باب الغرفة. يدخلان غرفة المكتب معًا ويسيران فيها يدًا بيد، يمضيان بين شواهد ما جرى الليلة الماضية من فجور - قطع ملابس ملقاة هنا وهناك، وطبق سجائر مترع، وزجاجة شمبانيا فارغة مستلقية على

جانبها. يأخذ دانييل الطفل إلى الشرفة. يفتح بابها، ثم يُبرز لعبة أخفاها خلف ظهره - سيارة حمراء براقة. يقدمها إلى الطفل الذي يضحك فرحًا ويمد يديه لكي يأخذها. وبينما يفعل ذلك، يدفع دانييل السيارة دفعة صغيرة فيجعلها تسير على أرض الشرفة متجهة صوب الدرابزين التالف. ينظر إلى الطفل مندفعًا خلف السيارة.

وفي الصفحة الأخيرة، ترى دانييل وحيدًا من جديد، جالسًا على حافة الشرفة، مدليًا قدميه في الهواء. ابتسامة على شفتيه.

مكتبة
t.me/t_pdf

- 31 -

جلست إيرين على حافة كرسي قاسية غير مريحة في غرفة المعيشة في بيت ثيو مايرسون. كان واضحًا لها قبل جلوسها أن ذلك الكرسي لن يريحها، لكنها جلست عليه، جلست على أية حال لأنها وجدت الكرسي عاليًا بعض الشيء فقدّرت أنها ستكون قادرة على القيام عنها من غير عون. كان هذا أمرًا مهمًا في نظرها. ليست راغبة أبدًا في أن تكون تحت رحمة مايرسون. أمسكت الكرسي بإحدى يديها، وظلت يدها الأخرى قابضة على حقيبة يدها قبضًا محكمًا، ظلت تضمّها إلى حجرها. أفلحت في زحزحة الكرسي بضعة إنشات لتقرّبها من مدفأة الحطب في الموقد الكبير. كان الطقس شديد البرودة. لقد عاد الشتاء قويًا كأنه يروم انتقامًا. ذكروا في الراديو هذا الصباح أن من المحتمل أن يهطل ثلج.

كان مايرسون في المطبخ يسكب لها كأسًا من الشيري. لم تكن راغبة في تلك الكأس. ما كانت في حياتها كلّها ممن يحبّون الشراب، لكنه عرضها عليها بعد قبوله -على مضض- دخولها بيته، فرأت أن من الأفضل أن تقبلها. كان يشرب النبيذ. كان يشرب النبيذ وحيدًا وقت العصر.

أثناء غيابه في المطبخ، كانت إيرين تتأمل رفوف الكتب التي أعجبتها كثيرًا. قولوا عن ثيو مايرسون ما تشاؤون... لكن لديه مكتبة جميلة. رفوف قدّرت إيرين أنها من خشب البلوط كانت مفصّلة تفصيلًا دقيقًا، ممتدة من الأرض إلى السقف إلى جانبي الموقد. وكان في الغرفة واحد من تلك السلالم الأنيقة ذات العجلات التي تتيح وصولًا سهلًا إلى الرفوف العليا.

من حيث مكان جلوسها، ما كانت قادرة على قراءة أسماء الكتب على كعوبها. أزعجها هذا كثيرًا. قليلة هي الأمور التي تحب إيرين فعلها في هذه الدنيا أكثر من محبتها الاطلاع على مكتبات الآخرين. لكن من الواضح أن الوقت غير مناسب لهذا.

قال ثيو عندما عاد إلى الغرفة: «من المتوقّع أن تصل كارلا في أية لحظة». ناولها كأسًا صغيرة من الكريستال، «إنها آتية لتناول العشاء هنا».

تناولت إيرين الكأس وأومأت برأسها إيماءة شكر صغيرة. قالت له: «ما كنت أعرف أين تعيش». إدراك غامض لحقيقة أنها قالت له هذا من قبل، لكني عثرت على عنوانك، مثلما قلت لك. عثرت عليه مكتوبًا على مغلف وجدته في كتاب...».

أومأ ثيو برأسه. غطس في مقعده الوثير الذي كان بعيدًا عنها قليلًا، في الناحية الأخرى من الغرفة. تناول جرعة نبيذ كبيرة، ثم نظر إليها نظرة فاحصة. قال: «لديك حاجة ملحة إلى الحديث مع كارلا! ألا تستطيعين إخباري بما تريدين قوله لها؟».

قالت إيرين: «أظن من الأفضل أن أنتظر وصول كارلا». رشفت قليلًا من كأس الشيري. رفع ثيو عينيه صوب السماء، رفعهما لحظة خاطفة قبل أن ينظر إليها من جديد تلك النظرة الغاضبة نفسها. ما كان رجلًا حلو الطبع! جلسا بضع لحظات صامتين، لكن إيرين لم تلبث أن ضعفت تحت وطأة ذلك الصمت. قالت له: «أريد أن أكلمها في شأن شيء وجدته في بيت أنجيلا». رشفة أخرى من كأس الشيري، «وجدت هناك دفتر رسم، وواحدًا من دفاتر دانييل». أخرجت الدفتر من حقيبة يدها ورفعته أمامها لحظة قبل أن تغيّر رأيها وتدسّه في الحقيبة من جديد.

قال مايرسون بصوت خالٍ من أي تعبير: «هذا هو الأمر الملحّ، أليس كذلك؟».

«الحقيقة، أنا... أنت لم تر هذا الدفتر قبل الآن. هل رأيته، يا سيد مايرسون؟». هز ثيو رأسه من غير إبداء أي اهتمام. تململ في جلسته موحيًا لها بأن وجودها يزعجه. بدا كأنه موشك على إخبارها بأن عليها أن تنصرف. مع هذا، أخذت رشفة أخرى من كأسها. قالت: «أظن أن فيه ما يمكن أن تسميه قصة مصورة. منذ زمن غير بعيد، كانت في قائمة الكتب المرشّحة لجائزة بوكر واحدة من هذه القصص المصوّرة! أرى أن هذا أمر في غاية الغرابة. أعني كيف يمكن لأي شخص أن يقارن بين قصة مصوّرة وكتاب حقيقي؟». رفع ثيو حاجبيه. تناول جرعة نبيذ جديدة من كأسه مصدرًا صوتًا مرتفعًا. لقد بدأ يجعلها تحس بعدم راحة حقيقيًا. قالت: «لا بأس، أظن أن لا أحد يحاسب الناس على أذواقهم». صمتت لحظة، ثم تابعت: «وجدت هذا في واحد من كتبك». رفعت المغلف المكتوب عليه عنوان ثيو. «أعني، رواية الجريمة».

في الصمت الطويل المتوتّر الذي أعقب ذلك، فكّرت إيرين في أن ليس من الحكمة ذكر المخطوطة التي قرأتها، المخطوطة التي أعطتها إياها لورا. ليس هذا بالوقت المناسب لاتهام مايرسون بالسرقة الأدبية. وهي لا تريد أن يتحوّل التركيز عن المسألة التي أتت من أجلها. من جديد، رفعت كأس الشيري إلى شفتيها، ففاجأتها رؤية أن ما بقي في الكأس ليس أكثر من نقاط قليلة.

أخيرًا، قال ثيو وهو ينظر إليها عابس الوجه: «دفتر الرسم هذا! قلت لي إنك عثرت عليه في بيت أنجيلا. ماذا كنت تفعلين في بيت أنجيلا؟».

«الحقيقة، كما ترى... الأمر هو أنني...».

توقفت إيرين عن الكلام. ما كانت لديها إجابة منطقية عن هذا السؤال. الإجابة القصيرة هي أن إلقاءها نظرة فضولية في البيت المجاور لبيتها كان تطفلًا من جانبها. وأما الإجابة الطويلة فهي أنها سمعت في الراديو خبر توجيه الاتهام إلى لورا في قضية مقتل دانييل،

فعرفت على الفور أن عليها أن تتكلّم مع كارلا لأنها كانت واثقة من أن الشرطة مخطئة. لا تعرف عنوان كارلا، ولا رقم هاتفها. لكنها أحست إحساسًا أكيدًا بأن من الممكن أن تجد في بيت أنجيلا شيئًا عليه رقم هاتف، أو عنوان. لكن أملها خاب بعد دخولها البيت لأنه كان خاويًا تمامًا. تجوّلت في غرفه البائسة، غرفة بعد غرفة، فأدركت أنها لم تنتبه من قبل إلى سوء حال ذلك البيت: ورق الجدران منتفخ، متقشّر، وبقع رطوبة من حول نافذة المطبخ، وإطارات نوافذ غرف النوم بدأ العفن يغزوها. وفي أسفل خزانة الملابس في غرفة النوم الخلفية -كانت الخزانة قطعة الأثاث الوحيدة الباقية في البيت- اكتشفت إيرين كومة من الصحف. وجدت أيضًا ثلاث أو أربع رسائل موجهة كلها إلى أنجيلا. وجدت أيضًا هذا الدفتر. أخذت إيرين ما وجدته إلى بيتها. لم تجد عنوان كارلا. لكن دفتر الرسم أعطاها شيئًا آخر. من غير أن تفهم تمامًا (ما كانت إيرين واثقة من أن هذا أمر ممكن)، بانت أمامها لمحة من شيء آخر، لمحة عن المكان الذي يمكن أن يكون هذا كله قد شهد بدايته... المكان الذي نمت فيه بذرة الخراب.

مال ثيو إلى الأمام. «لا بأس! ماذا كنت تفعلين في بيت أنجيلا؟». الآن، صار صوته جافًا، وصار تعبير وجهه منذرًا بالخطر. «على حد علمي، لا مبرر لوجودك هناك. البيت ملك كارلا».

سألته إيرين: «أهو ملكها؟ هل كارلا هي مالكة ذلك البيت؟».

نهض مايرسون واقفًا على قدميه. فاجأها نهوضه. «أوه، بحق الرب! ليس من شأنك من يكون مالك ذلك البيت. كارلا تعيش الآن وقتًا عصيبًا؛ وآخر ما تحتاجه أن تأتي امرأة فضولية لكي تزعجها وتتدخل في شؤونها الخاصة». عبَر الغرفة متقدّمًا صوبها، مادًّا يده. قال لها: «أعطني هذا الدفتر، وسوف أعطيه لها. سوف أعطيها الدفتر. إذا وجدت نفسها راغبة في مناقشة الأمر معك، فسوف تتصل بك. لكني لا أتوقّع هذا».

ضمت إيرين حقيبة يدها إلى جسدها بقوة أكبر من ذي قبل. قالت له: «أود أن أعطيه لها بنفسي، إن كنت لا تمانع في هذا». كانت نبرة صوتها المبالغ في رسميتها قناعًا حاولت أن تخفي به ذعرها من هذا الرجل الضخم الواقف أمامها، ذعرها مما يمكن أن يفعله إن رأى ما رسمه دانييل في ذلك الدفتر.

قال بنبرة حادة: «بل أمانع. أعطني الدفتر». بسط يده أمام وجهها، «وسوف أطلب لك سيارة تاكسي».

شدّت إيرين على شفتيها، وهزّت رأسها رافضة. «أطلب منك ألا تنظر فيه. أنا لا...».

سألها: «هل تقولين إن في وسع كارلا أن تنظر في الدفتر لكني لا أستطيع هذا؟ لماذا؟».

قالت إيرين: «أنا واثقة من أن كارلا رأته من قبل. لن يكون ما فيه صادمًا لها».

سقطت يدا مايرسون إلى جانبيه، «صادمًا!؟ لماذا يكون صادمًا لي؟». ومن جديد رفع عينيه ناظرًا إلى السقف. قال: «أوه، بحق الرب! إنه عن كارلا، أليس كذلك؟ هل فيه صور لكارلا؟ لعلك تعرفين أنه كان لديه تركيز عليها في أفكاره... تركيز غير سوي. يؤسفني القول إنه كان شابًّا مضطربًا». لم تقل إيرين شيئًا. اكتفت بالنظر إلى حقيبتها في حجرها. سألها مايرسون، «أليس الأمر هكذا؟ أم هو أمر متعلّق بي؟ إنه يستهدفني في رسوماته... هل يفعل هذا؟».

بدأت إيرين تقول: «المسألة هي أن...». لكن حركة عنيفة مفاجئة أسكتتها. امتدت يد ثيو مسرعة وقبضت على حقيبتها وانتزعتها من حجرها. صاحت: «لا! من فضلك، انتظر!».

قال بنبرة حادة وهو يخرج الدفتر من الحقيبة، «لقد سئمت هذا». ألقى بالحقيبة صوبها فسقطت على الأرض وتناثرت محتوياتها –

نظارتها الاحتياطية، وعلبة البودرة، والمحفظة القماشية الصغيرة التي تضع فيها قطع النقود المعدنية... تناثرت كلها على السجادة.

بحذر شديد، ركعت إيرين على الأرض لكيٍ تجمع أشياءها في حين ظل مايرسون واقفًا فوقها. فتح الدفتر متجاهلًا إيرين. قرأ العنوان، «بدايات آرِس». أطلق ضحكة قصيرة ساخرة، «يا إلهي! كان يرى نفسه شيئًا كبيرًا، أليس كذلك؟ آرِس! إله الحرب! ذلك الخراء الصغير...». طالعت عيناه الصفحات مطالعة سريعة وهو يقلّبها واحدة تلو أخرى إلى أن توقّف فجأة وشهق شهقة مسموعة. اختفت تكشيرته وبدا لعيني إيرين أن جلده قد شحب لونه. انقبضت أصابع يديه فتجعّدت صفحات الدفتر تحت ضغطها.

غاض قلب إيرين في صدرها. قالت له: «يا سيد مايرسون. لا ينبغي أن تنظر فيه...». نهضت واقفة بحركة بطيئة، «أنت لا تريد أن ترى ما رسمه». قالت هذا رغم رؤيتها تعبير الذعر على وجه ثيو وإدراكها أن الوقت قد فات. «إن فيه أشياء مزعجة كثيرًا. أعرف... أنا...».

على نحو مفاجئ، أحست إيرين بأن رأسها صارت سابحة في الهواء، وأن السجادة من تحتها بدأت تميل وتتأرجح كأنها قارب. مدفأة الحطب، ورفوف البلوط الجميلة، صارت كلّها مشوشة، «أوه، لا أظنني بخير». قالت هذا ومدت يدها إلى حيث توقعت أن تكون الكرسي، لكنها لم تجدها. تعثرت، ثم تداركت نفسها فلم تسقط. أغمضت عينيها بشدة، ثم فتحتهما من جديد. إنها كأس الشيري - الشيري وحرارة المدفأة. كان إحساسها غريبًا جدًا، وكان أمامها مايرسون يحدّق فيها، فمه أحمر مفتوح، ووجهه مظلم، وقبضتا يديه مشدودتان. أوه، يا إلهي! خطت إلى الخلف خطوة، ومدت يدها باحثة عن شيء تستند إليه فلم تجد شيئًا. ما كان أشد غباءها عندما جلبت دفتر الرسم معها! ظنت أنها أتت بفعل من أفعال الشجاعة عندما جاءت إلى هذا المكان. لكنها كانت غبية. هي عجوز غبية، تمامًا مثلما يراها الناس.

- 32 -

لقد أقدم ثيو مرات كثيرة على القتل بجرّة قلم. فعلى امتداد بضعة آلاف من الصفحات في رواياته، طعن أشخاصًا، وأطلق النار عليهم، وقطّع أوصالهم، وعلّقهم من مشانقٍ مقامة على عجلٍ، وضربهم حتى الموت بحجر مدبب مستقر في كفٍّ صغيرة. بل إنه فكّر في ما هو أسوأ من هذا كله (أوه... ما أكثر الأشياء التي فكر فيها)، عندما تأمل في ما قد نكون قادرين على فعله في أقصى لحظات تطرفنا (هو، أو أي شخص غيره).

كان دفتر الرسم قد اختفى، التهمته النار. وكانت المرأة العجوز قد وقفت على قدميها من جديد، لكنها صارت مضطربة، مذعورة. لم تتوقّع منه ردة فعل حادة هكذا، ردة فعلٍ شديدة إلى هذا الحد. وقف ينظر إليها فتبادر إلى ذهنه أن الأمر لا يكلّف شيئًا: يصيرون ضعفاء جدًا في هذه السن؛ ثم إنها كانت غير مستقرّة على قدميها. لقد شربت كأس الشيري بسرعة كبيرة. ها هي الآن واقفة أمامه، مترنّحة قليلًا، عيناها ممتلئتان دمعًا. كانت تقف على طرف سجادة انثنت زاويتها عندما كانت جاثمة على الأرض في منتصف المسافة (تقريبًا)، بين الموقد الحجري ذي الزوايا الحادة وطاولة القهوة ذات الخطوط المستقيمة، الطاولة المصنوعة من زجاج وبرونز.

لو كان يكتب هذا المشهد، لحار في الخيارات الكثيرة المفتوحة أمامه.

ذلك الذي أفلت بفعلته

هو غير قادر على رؤية أي شيء غير اللون الأحمر.

عندما استيقظ ذلك الصباح، لم يفكر في أنه سيكون بطل القصة. لو فكر في هذا الأمر، لكان من المحتمل أن يدعو نفسه «الصياد».

عندما استيقظ ذلك الصباح، لم يكن قادرًا على تخيل كيف سيكون الأمر، وكيف ستكون هي - مختلفة عما تمناه، ليست أبدًا الشخص الذي أراده. ولم يكن قادرًا على تخيل كيف ستكذب عليه، كيف ستخدعه.

عندما استيقظ ذلك الصباح، لم يفكر أبدًا في أنه سيكون «الطريدة».

ظلم شديد! ظلمُ ما جرى مرٌّ مذاقه في فمه؛ ظلم راح يقطر مرارة في عمق حلقه عندما استسلم لها، لتلك التي أفلتت... فتاة وجهها قبيح، يداها حمراوان، يداها محبَّبتان، يداها منتقمتان. هي كل ما يستطيع رؤيته. هي آخر ما سوف يراه.

ذلك الذي أفلت بفعلته

تدرك قبل أن ترى. تدرك أنه عثر عليها. تدرك قبل أن ترى أنه هو الجالس خلف مقود السيارة. تتجمّد في مكانها. تتردّد لحظة، ثم تترك الطريق وتنطلق جارية، تجري نازلة إلى خندق، ثم تجتاز سياجًا خشبيًا وتسير بصعوبة في الحقل المجاور. تجري من غير أن ترى أمامها شيئًا، وتسقط، وتحمل نفسها على النهوض، لكنها لا تصدر صوتًا. ما نفع الصراخ؟

عندما يمسك بها، تقبض يداه على شعرها ويجذبها فتقع على الأرض. تستطيع أن تشم رائحة أنفاسه. تعلم ما سوف يفعله بها. تعلم ما سوف يأتي لأنها رأته يفعل ذلك، رأته قبل حين. رأته يفعله بصديقتها. ما أشد وحشيته عندما يضغط وجهها على التراب، عندما ينهال عليها ضربًا.

لقد رأت كيف قاتلته صديقتها بكل قوتها.

وقد رأت كيف خسرت صديقتها تلك المعركة.

لذا، لن تقاتله. تظل ساكنة في مكانها، هامدة. تظل مستلقية هناك، على التراب، ثقل ميت. تظل عيناها مفتوحتين طيلة الوقت وهو يمزق ملابسها خائر العزم.

ليس هذا ما أراده.

يقول لها، أغمضي عينيك. أغمضي عينيك.

لن تغمض عينيها.

يصفعها على وجهها. لا ردة فعل، ولا صوت يصدر عنها. أطرافها

الشاحبة ثقيلة، شديدة الثقل فوق التراب. إنها تغرق في ذلك التراب. إنها تأخذه معها.

ليس هذا ما أراد.

ينهض عن جسدها ويضرب الأرض بقبضتي يديه. دم على وجهه، ودم في فمه. إنه خائر العزم، مضنى.

ليس هذا ما أراد.

يبدأ البكاء.

وبينما يبكي، تنهض صامتة، ترفع نفسها عن الأرض.

يقول لها: اذهبي! اذهبي فقط! اهربي!

لكن الفتاة لا تريد أن تهرب. لقد شبعت هربًا. تلتقط حجرًا ذا حافة مسننة، ذا حافة مستدقة كأنها رأس سهم. الحجر ليس كبيرًا، ليس كبيرًا إلا بالقدر الكافي لأن يستقر في راحة يدها استقرارًا مريحًا.

تقبض كفها على الحجر الدافئ فتتسع عيناه دهشة عندما يراها تهوي عليه بذراعها. تفور البهجة فيها عندما تسمع صوت تفتت عظم صدغه، فتهوي بالحجر عليه مرة أخرى، ثم مرة أخرى، ثم مرة أخرى إلى أن يغرقها عرقها، إلى أن يغرقها دمه. يخال لها أنها سمعته يتوسل إليها أن تتوقّف، لكنها غير واثقة من هذا. لعلها تخيلت سماع ما سمعته.

عندما تأتي الشرطة، تقول الفتاة إنها كانت تدافع عن حياتها. ولسوف يصدقونها.

- 33 -

جلست ميريام تفتش في تذكاراتها، في أشياء جمعتها في مجرى احتكاكها بحياة أشخاص آخرين - حياة أشخاص آخرين، حيواتٌ أخرى كان ممكنًا أن تعيشها. اعتراها شيء من الحزن عندما لاحظت كيف نقصَّت تذكاراتها: المفتاح الذي أخذته من الزورق ما عاد موجودًا. واحد من قرطَيّ لورين ما عاد موجودًا. آلمها هذا ألمًا مخيفًا.

الأشياء التي اختارت الإبقاء عليها حتى تكون تمثيلًا للحظات مهمة بالنسبة إليها. عندما تفكر في تلك الأوقات -في تلك اللحظات المعدودة عندما كانت وحدها مع دانييل في زورقه، وهربها من بيت المزرعة- تحب أن تكون الأشياء المتصلة بتلك الذكريات باقية لديها حتى تعينها على العودة إلى الشعور بكيف كانت حقيقة الأمر بالنسبة إليها، بكيف كانت حقيقة إحساسها به. والآن، عندما التقطت الصليب الفضّي الصغير الذي قدّمه لها أبوها يوم تثبيت عمادها، يوم قداسها الأول، أغمضت عينيها إغماضًا شديدًا وتخيلت نفسها في الرابعة عشرة -قبل أهوال بيت المزرعة- عندما كانت لا تزال طفلة بريئة.

كانت ميريام تعرف أن عادتها في جمع تلك الأشياء الصغيرة التي تعيدها إلى لحظاتها المهمة ليست إلا صفة مشتركة بينها وبين مضطربي العقول والقتلة. كان هذا مزعجًا لها؛ لكن الحقيقة - كما رأت - هي أن لكل منا لحظاته الوحشية، وأن هذه الأشياء تساعدها في البقاء وفية لما هي عليه في حقيقة الأمر، وفية للوحش الذي جعلت نفسها تصيره.

أحيانًا، تجد نفسها في مكان شديد الظلمة وتعتريها حاجة طاغية إلى الاعتراف. إن كان لديها من تعترف أمامه، فبأي شيء تبدأ؟ هل تبدأ بآخر

آثامها عهدًا، أم تبدأ بأول واحد منها؟ لا بد أن تبدأ بأحدثها عهدًا، هكذا رأت. الإثم الأول كان دفاعًا عن النفس، كان الإثم الذي وضعها على هذا المسار.

بدأ الأمر ليلة فرت من بيت المزرعة، عندما وقفت أمام النافذة المكسورة وصلّت، وصلّت. عندما عبرت النافذة بصعوبة، وعندما جرت في الطريق الترابية. عندما سمعت صوت الرعد الذي ما كان رعدًا، كان صوت السيارة آتية من خلفها، آتية من جهة المزرعة... عندما أدركت أن السيارة آتية من أجلها فعادت تجري من جديد، وتسلقت سياجًا، وألقت بنفسها في خندق، وتلوّت زاحفة على بطنها إلى أن اختبأت - اختبأت جزئيًا آخر الأمر، تحت شجرة مائلة. ظلت راقدة هناك تصغي إلى صوت محرك السيارة عندما انخفضت سرعتها، عندما أنار مصباحاها أغصان الشجرة فوق رأسها. تابعت السيارة طريقها.

ظلت منبطحة في الخندق برهة بعد ذلك. ما كانت قادرة على القول كم طالت تلك البرهة، ما كانت قادرة أبدًا. تتذكر ميريام قدرًا كبيرًا جدًا من تفاصيل ذلك اليوم، ومن تفاصيل الليلة التي أعقبته - تذكرت رائحة البيت القذر، وسماء المساء الشاحبة، سماءه ذات الزرقة الذاوية، والأغنية في السيارة، والصوت الذي سمعته من لورين، ذلك الصوت الفظيع، بعد أن لكمها على رقبتها. لكنها لم تكن قادرة على تذكر كم طال زمن بقائها في ذلك الخندق؛ لم تكن قادرة أبدًا على تذكر كم بقيت هناك متجمّدة بردًا، غير قادرة على الحركة... عقلها وحده يدور سريعًا، عقلها وحده يفكر: *لست مذنبة في أنه اختارك أنت!*

أيضًا، لم تكن قادرة على أن تتذكّر كم طال وقوفها في الغرفة المقفلة في بيت المزرعة، كم ظلت مشلولة ذعرًا أمام النافذة المكسورة. ولم تكن الآن قادرة على تذكر كم طال بها الزمن حتى استطاعت الوصول إلى قرارها بأن فرصتها الأفضل ليست في أن تبقى هناك وتقاتل، بل في أن تفر، في استدعاء النجدة. لم تكن الآن قادرة على تذكّر كم من الوقت ظلت

واقفة هناك، وكم صلّت وصلّت راجية ألا ينزل درجات ذلك السلم، ألا يأتي من أجلها. وكم صلّت راجية أن يطول به الوقت مع لورين.

انتقل تفكيرها... لم تبدأ التفكير في أنها شخص سيئ جدًا إلا عندما جلست إلى طاولة الزينة في غرفة لورين، عندما دسّت قرطيها الذهبيين في جيبها. عندها، عادت إلى ذهنها تلك الأشياء الفظيعة التي فكرت فيها، ذلك الوقت الطويل الذي أهدرته مفكرة فيها.

لقد مرت ميريام باختبار بيّن لها أن فيها نقصًا. اكتشفت يومها أن شيئًا من الخير الجوهري يعوزها، أن خصلة من الخصال الأخلاقية تعوزها.

ما كانت خيّرة في ذلك اليوم؛ وما كانت خيّرة بعد ذلك أبدًا.

في قعر الصندوق الخشبي، تحت الرسالة التي أتتها من المحامي، كانت بطاقة الكلب راقدة.

لم تكن ميريام تحب التفكير في تلك اللحظة، في تلك اللحظة مع الكلب. ليست تلك اللحظة شيئًا تستطيع الفخر به، بل هي فقدان سيطرة على النفس في لحظة ألم. لقد احتفظت بهذه البطاقة حتى تكون تذكرة لها بأن تحويل الكره من شخص إلى آخر لا يجدي فتيلًا. هو أمر لا معنى له. فكرت في جيريمي الذي تمنت أن تستطيع غرس سكين في عنقه. أحيانًا، كانت أيضًا تفكر في مايرسون، في الانهيال على رأسه بمطرقة ثقيلة، ودفعه حتى يسقط في القناة، والنظر إليه وهو يغرق تحت سطح ذلك الماء القذر.

فكرت في هذا كله، لكن الجرأة اللازمة لفعله ما كانت لديها. ثم اتفق ذات يوم أن كان لديها في المكتبة زبون مزعج جدًا، وكادت أيضًا تصطدم براكب دراجة على رصيف المرسى صرخ عليها ودعاها عاهرة غبية. ثم عادت إلى بيتها ضيقة الصدر، غائمة العينين. كانت في المراحل الأولى من نوبة ذعر عنيفة. وجدت الكلب على سطح زورقها

الخلفي، وجدته يمزق كيس القمامة الذي وضعته هناك ذلك الصباح، ثم نسيت أن تأخذه إلى حاوية القمامة. من غير تفكير، تقريبًا، انحنت وحملت الكلب بين يديها بحركة سريعة. أدخلته إلى كابينة الزورق. وضعته في المجلى. وسريعًا حزّت عنقه بسكين حادة.

لم يعانِ الحيوان لأن ذلك كان قتلًا سريعًا، نظيفًا. ليس تمامًا، بطبيعة الحال! فالواقع أن ذلك أنتج فوضى مخيفة: دم على يديها، وعلى ملابسها، وعلى الأرض... دم أكثر مما يمكن أن يتوقعه المرء، أكثر كثيرًا. أنفقت دهرًا في تنظيف ذلك كله. لا تزال تظن، أحيانًا، أنها تشم رائحة ذلك الدم.

في وقت لاحق من تلك الليلة، وضعت ميريام الكلب في كيس، ثم حملته مجتازة ممر المرسى وألقت بالكيس في مياه القناة خلف بيت ثيو. خيّل إليها أن من الممكن أن يعثر أحد على الجيفة الصغيرة. لكن الظاهر أن تيار الماء في القناة قد حملها بعيدًا، أو لعلها علقت بمروحة زورق عابر. لذا، لم ينته الأمر بأن يجد ثيو نفسه حائرًا في التفكير في من أقدم على هذه الفعلة الفظيعة. لم يحَر ثيو إلا في أمر اختفاء الكلب. ولم تفهم ميريام كيف وجدت هذه النتيجة أكثر إرضاء لها، وكيف أثلجت صدرها رؤية ثيو يسير على ممر المرسى جيئة وذهابًا، وعلى امتداد الطرق القريبة، مناديًا باسم كلبه، مُعلّقًا ملصقات تثير الشفقة.

دست ميريام بطاقة الكلب التعريفية في جيبها، ثم خرجت متجهة غربًا صوب بيت مايرسون. إن كان لها أن تعترف بأي شيء، فسوف تعترف بتلك الحادثة المخزية مع الكلب. إن كان لها أن تعترف أمام أي شخص، فمن المؤكد أن ذلك الشخص ينبغي أن يكون مايرسون نفسه. بطبيعة الحال، من الممكن أن يبلغ الشرطة؛ لكن شيئًا في عقلها قال لها إنه لن يقدم على فعل ذلك، ولن يكون راغبًا في الخوض في التفاصيل. سوف يجرح هذا كبرياءه.

لقد أقنعت نفسها بهذا كله، وطمأنت نفسها، فصارت الآن واثقة من

أن إخباره بأمر الكلب سيكون أمرًا صائبًا بالنسبة إليها - سوف يحقق لها فائدتين اثنتين: معاقبة مايرسون، وتخففها من ذلك العبء. لذا، سارت مصممة، شادة على قبضتيها، مطبقة على فكيها بكل عزم، فصعدت درجات ممر المرسى عند زاوية شارع نويل رود. لكنها توقفت توقفًا مفاجئًا.

رأته هناك واقفًا أمام باب بيته، ملقيًا نظرات سريعة هذا الصوب وذاك الصوب، عيناه قلقتان تجوسان الرصيف. قابلت عيناه عينيها فاتسعتا في دهشة مفاجئة قبل أن يبدأ السير محفوفًا بعنصري شرطة في ملابسهما الرسمية ويصعد إلى سيارة تنتظر هناك.

انطلقت السيارة به. قلب ميريام ينبض صاخبًا، يكاد ينفجر في صدرها. ما كانت قادرة على تصديق ما رأته عيناها. فهل فازت آخر الأمر؟ هل تحقق نوع من أنواع العدالة؟أخيرًا؟

ظلت واقفة هناك مشدوهة لحظة طويلة بما رأته يجري أمامها، فكادت تنسى أن تشعر بالحبور. لكن تلك اللحظة انقضت وأفسحت حيرتُها لفرحها متسعًا. ارتسمت ابتسامة على وجهها. ارتفعت يداها إلى فمها. بدأت تضحك. ضحكت، وضحكت. صوت ضحكها غريب، حتى في أذنيها.

عندما تمالكت نفسها، لاحظت أن هناك من يراقبها: رجل في الناحية الأخرى من الشارع، على مسافة صغيرة. رجل كبير السن جالس في كرسي ذي عجلات. شعره أبيض كلّه. حرّك الرجل كرسيه على الرصيف ونظر في الشارع يمينًا ويسارًا كأنه يريد التأكّد من خلوّه قبل أن يعبره. ظنت ميريام لحظة أنه آتٍ إليها حتى يكلمها، لكن سيارة توقفت أمامه، واحدة من سيارات التاكسي الكبيرة. ترجّل السائق من السيارة وساعد الرجل على الصعود إليها. تحركت سيارة التاكسي في الشارع، ثم انعطفت انعطافة كبيرة عائدة من حيث أتت. مرت السيارة بها فلاقت عينا ميريام عيني الرجل الجالس فيها. اقشعرّ جلدها. انتصب الشعر على رقبتها.

- 34 -

كل شيء مادّي. الكوميديا تعادل التراجيديا وفوقها مرور الزمن. أليس هذا ما يحدث؟ كان ثيو جالسًا في غرفة مكتومة الهواء، قبالته محققان اثنان. كان يفكر بمرارة في مقدار الزمن الواجب انقضاؤه قبل أن يتحول ما وقع له -موت ابنه، والتفكك الذي اعترى زواجه بعد ذلك- ليصير أمرًا مضحكًا. انقضت على موت ولده خمس عشرة سنة. أليس ينبغي أن يكون هذا قد صار الآن مضحكًا، قليلًا؟

كلام فارغ.

وأما من حيث إن كل شيء مادي، فقد كان ثيو يلاقي صعوبة في أن يرصد عقله ما هو محيط به. يتبين له الآن أن كل ما يلاحظه مبتذل: الغرفة رمادية، ضيقة، تفوح برائحة المكاتب - قهوة رديئة، وأثاث جديد. الشيء الوحيد القادر على سماعه ليس إلا همهمة موسيقى مغوية هادئة تتخللها أنفاس المحققة تشالمرز الجالسة قبالته.

وأمامه، على الطاولة الفاصلة بينه وبين تشالمرز والمحقق باركر، سكين في كيس من النايلون الشفاف. سكين صغيرة لها مقبض خشبي أسود اللون وعلى نصلها لطخة داكنة. سكين مطبخ صغيرة. سكينه الصغيرة نفسها - في آخر المطاف، اتضح أنها لم تضِع في زحمة درج أدوات المطبخ.

عندما وضعوا السكين أمامه على الطاولة، تجمد قلب ثيو مدركًا أن الأمر لن يكون «*ماديًا*» هذه المرة. لن تكون هذه قصة مضحكة يستطيع أن يرويها. في واقع الأمر، سوف ينقضي وقت طويل، طويل جدًا، قبل أن يصير الأمر كوميديًا.

سألته المحققة تشالمرز: «هل تعرف هذه، يا سيد مايرسون؟». نظر ثيو إلى السكين. تواردت إلى ذهنه أفكار كثيرة، أفكار غبية كلها. سمع نفسه يصدر صوت همهمة خفيضًا، هممم. كان هذا غبيًا أيضًا. لا ينظر أحد إلى شيء من الأشياء ويقول، هممم. يقول الناس، نعم، *أعرف هذا الشيء*، أو يقول، لا، *لا أعرف هذا الشيء*. وأما في هذه الحالة، فقد كان الخيار الثاني غير متاح لأنه يدرك تمام الإدراك أن الشرطيين اللذين وضعا هذه السكين أمامه، في هذه اللحظة، لا بد أن يكونا واثقين تمام الثقة من أنه يعرفها.

فكِّر سريعًا، فكِّر سريعًا، فكِّر سريعًا! هكذا كان ثيو يقول في نفسه. أثارت هذه الكلمات ضيقه لأنها منعته من التفكير في أي شيء غير كلمة «*سريعًا*». *بحق الرب، فكِّر في شيء آخر غير هذه الكلمة!*

كانت هذه سكينه؛ وكانا عارفَيْن هذا الأمر. ليس من المصادفة في شيء أن يربطا بينه وبين السكين. إذًا، هكذا هو الأمر، أليس كذلك؟ إنها النهاية. إنها نهاية العالم مثلما عرفه حتى الآن. وكما تقول الأغنية: «شعر بأنه في أحسن حال». الأمر الغريب هو شعوره بأنه في أحسن حال كان حقيقيًا جدًا. لا بأس، قد يكون في تعبير «*في أحسن حال*» شيء من المبالغة؛ لكنه ما كان في ضيق شديد مثلما توقَّع أن يكون. لعله أمر صحيح ما يقوله الناس من أن الأمل هو ما يقتلك! الآن، عندما لم يعد لديه أي أمل، صار يحس بنفسه في حالٍ أفضل. افترض أن هذا أمر ناجم عن حالة الترقب. حالة الترقب مرهقة، ممضَّة، أليست كذلك؟ كان هيتشكوك مدركًا هذا الأمر. وأما الآن، فقد انقضت حالة الترقب وزالت. الآن، يعرف ما سوف يحدث. أحس بنفسه مصدومًا، حزينًا، لكنه أحس بنفسه مرتاحًا أيضًا.

قال ثيو بصوت خافت: «إنها سكيني». لا يزال ينظر إلى السكين، لا إلى المحققين... «هذه السكين لي».

قال باركر: «جيد. فهل تستطيع أن تقول لنا متى رأيت هذه السكين آخر مرة؟».

استنشق ثيو نفسًا عميقًا. مرت لحظة رأى فيها نفسه في غرفة المعيشة في بيته ومعه إيرين بارنز. رأى الصور التي رسمها دانييل، الصور الفاضحة لزوجته الجميلة، والتصوير البصري لموت طفله الصغير. رأى نفْسه يقتطع الصفحات من الدفتر ثم يرميها في النار. زفر زفيرًا بطيئًا. هكذا هو الأمر. قال: «أظن ذلك كان صبيحة يوم العاشر من الشهر».

«هل تعني العاشر من آذار؟». نظر المحقق باركر إلى زميلته نظرة سريعة، ثم مال إلى الأمام... «إنه الصباح الذي مات فيه دانييل ساذرلاند، أليس كذلك؟».

دعك ثيو جبهته بسبابته. «هذا صحيح. لقد رميتها. رميت السكين. آآ... اعتزمت رميها في القناة، لكني، عند ذلك رأيت... رأيت أحدهم. أظنني رأيت أحدهم آتيًا صوبي على ممر المرسى فلم أشأ أن ألفت انتباهه إليَّ. لذا، بدلًا من ذلك، رميتها بين الأجمات».

تبادل المحققان نظرة أخرى. كانت هذه المرة نظرة أكثر طولًا من سابقتها. مال المحقق باركر برأسه جانبًا، وشد على شفتيه. سأله: «هل تقول إنك رميت السكين بين الأجمات؟ صبيحة يوم العاشر من آذار؟ إذًا، يا سيد مايرسون، أنت تقول...».

«أقول إنني ذهبت إلى زورق دانييل في ساعة مبكرة من ذلك الصباح عندما كانت زوجتي لا تزال نائمة. لقد... لقد طعنته. كان هناك دم، بالطبع، قدر كبير من الدم... غسلت الدم عن نفسي في زورقه. ثم خرجت. في طريق عودتي إلى البيت، رميت السكين بين الأجمات. اغتسلت في الحمام فور وصولي. كانت كارلا نائمة. أعددت قهوة لكلينا، ثم أخذتها إلى سريرها».

انفتح فم المحقق باركر لحظة. أغلق فمه وقال: «لا بأس». ومن

جديد، نظر إلى زميلته فظن ثيو -ظن ذلك مع أن من الممكن كثيرًا أن يكون قد تخيل الأمر في تلك اللحظة- أنه رأى تشالمرز تهز رأسها هزة بسيطة جدًا، «سيد مايرسون! قلت لنا قبل قليل إنك غير راغب في وجود ممثل قانوني عنك في هذه الجلسة. لكني أود سؤالك مرة أخرى إن كنت تحب أن تغيّر رأيك. إن كان لديك من تود أن نستدعيه، فسوف نستدعيه؛ أو نستطيع أن نطلب من المحامي المكلَّف لدينا، هنا في مركز الشرطة، أن يأتي».

هز ثيو رأسه. وجود محام معه آخر لا يمكن أن يكون راغبًا فيه... وجود شخص يحاول تلطيفَ النتائج، شخص لا يفعل أكثر من تعقيد ما هو بسيط في آخر المطاف. قال: «سأكون على أحسن ما يرام، وحدي. شكرًا».

عند ذلك، قرأ عليه باركر وثيقة الإخطار القانوني، مشيرًا إلى أن ثيو أتى إلى مركز الشرطة من غير ممانعة، وإلى أنه رفض وجود ممثل قانوني له. قال أيضًا إن قراءة الإخطار عليه أمر لا بد منه في ضوء ما سمعاه منه قبل قليل.

«يا سيد مايرسون...». كان ثيو قادرًا على رؤية أن المحقق باركر يجد صعوبة في المحافظة على اتساق نبرة صوته -بعد كل حساب، لا بد أن تكون هذه لحظة مثيرة بالنسبة إلى أي محقق- «... فقط، أريد أن أستوضح هذا: أنت تعترف بإقدامك على قتل دانييل ساذرلاند. هل هذا صحيح؟».

قال ثيو: «هذا صحيح. هذا صحيح». تناول رشفة من كأس الماء. استنشق نفَسًا عميقًا آخر. لا بد من قول هذا. «شقيقة زوجتي» قال ثيو هاتين الكلمتين ثم كف عن الكلام. كان هذا الجزء الأكثر صعوبة، الجزء الذي سيجعله يعاني مشقة، الجزء الذي ما كان راغبًا في قوله بصوت مسموع.

استحثته تشالمرز: «شقيقة زوجتك؟». كان وجهها كتابًا مفتوحًا.

أدهشها ما تسمعه منه «هل هي أنجيلا ساذرلاند؟ ماذا عن أنجيلا ساذرلاند؟».

«أخبرتني أنجيلا قبل موتها بأن زوجتي... كارلا... ودانييل كانا على علاقة».

كررت تشالمرز تلك الكلمة: «علاقة!».

أومأ ثيو برأسه. أغمض عينيه وشد عليهما... «أي نوع من العلاقات؟».

قال ثيو: «لا، من فضلك! لا أريد قولها». فاجأ نفسه بأن بدأ يبكي.

سأله باركر: «هل تقول لنا إن علاقة جنسية كانت بين كارلا ودانييل؟ أهذا ما تقوله لنا؟».

أومأ ثيو برأسه. تقاطرت دموعه متساقطة من طرف أنفه على بنطلونه الجينز. لم يبك منذ سنين طويلة. أتته هذه الفكرة على غير انتظار. لم يبك عندما كان جالسًا عند قبر ابنه في اليوم الذي ينبغي أن يكون عيد ميلاده الثامن عشر. ولكن، ها هو الآن يبكي هنا، في مركز الشرطة، يبكي لهذا السبب.

«هل أخبرتك أنجيلا ساذرلاند بأمر علاقتهما؟».

أومأ ثيو برأسه: «ذهبت لرؤيتها قبل نحو أسبوع من وفاتها».

«هل تستطيع أن تحكي لنا عن هذا، يا سيد مايرسون؟ هل تستطيع إخبارنا بما جرى عندما ذهبت كي تراها؟».

كان ما قالته له أنجيلا كالتالي، «أظن من الأفضل أن أريك. هل تسمح بأن... ألا تصعد معي إلى الطابق العلوي؟».

تبعها ثيو في الممر. وبينما كان ينظر إليها تصعد درجات السلم، تخيل الأشياء التي لديها هناك، في الأعلى، الأشياء التي أرادت أن يراها. لا بد أنها أشياء دانييل. أهي صور أخرى؟ ملاحظات كتبها دانييل؟ جعلت هذه الفكرة معدته تنقبض. بدأ يصعد درجات السلم من خلفها. تخيل شكل وجهها عندما ستريه تلك الأشياء، تخيل

وجهها مشفقًا عليه لكن فيه شيء من الانتصار، شيء من قبيل «قلت لك هذا». *انظر إلى زوجتك الجميلة. انظر إلى ما تفعله مع ابني*. توقف قبل درجات قليلة من أعلى السلم. كانت أنجيلا في انتظاره، تقف في الأعلى تنظر إليه. بدت جزعة. تذكّر كيف انكمشت على نفسها أمامه يوم مات بن. تذكر كيف اشتهى أن يمسك بها، أن يخنقها، أن يحطم رأسها على الجدار.

الآن، لم يشعر بشيء من هذا كله، لا شيء منه أبدًا. أشاح بوجهه عنها، ثم استدار وعاد أدراجه نازلًا السلم. سمعها تناديه عندما فتح الباب وخرج، ثم أغلقه من خلفه سائرًا تحت شمس بعد الظهيرة الساطعة، متوقفًا ريثما يشعل سيجارة قبل أن يتحرك قاصدًا بيته. سار في الزقاق المؤدي إلى باحة كنيسة سان جيمس، وغمره شوق إلى زمن لم يكن يكره فيه أنجيلا، إلى زمن أحبها فيه، أحبها حبًا عميقًا، إلى زمن كان يحسّ فيه كيف يشرق قلبه كلما رآها لأنها كانت -على الدوام- طريفة جدًا، كانت رفقتها مصدر بهجة، وكان لديها الكثير مما تقوله، دائمًا.

كان هذا منذ زمن صار بعيدًا جدًا.

«سيد مايرسون، هل تستطيع أن تحدّثنا عن ذلك؟ هل تستطيع أن تقول لنا ما حدث عندما ذهبت كي تراها؟».

مسح ثيو عينيه بظهر يده. لن يقول للشرطة شيئًا من هذا كله، لن يقول شيئًا عن ذلك التوق والحنين. هذا لا يخدم مراده الآن. لا يخدم مراده قوله لهم إنه أحبها في يوم من الأيام، أحبها أختًا، وأحبها صديقة.

«قالت لي إن هناك أمرًا يحصل بين دانييل وزوجتي. تجادلنا في الأمر. لا أعني... لم أمسّها أبدًا. أردت ذلك. أردت أن أكسر رقبتها الهزيلة، لكني لم أفعل شيئًا. وأيضًا، لم أدفعها من فوق ذلك السلم. بحسب علمي، كان موت أنجيلا حادثة وقعت مصادفة».

بحسب علمه! ما كان في سبيله إلى أن يعترف للشرطة بأنه سيظل طيلة ما بقي من أيام عمره، كلما فكر في أنجيلا، يراها مثلما كانت في ذلك اليوم، يراها تصيح باكية في أعلى السلم. وسوف يتذكر دائمًا الكلمات التي قالها لها عندما شتمها ودعاها كسولًا مهملة، دعاها أمًا سيئة. سوف يظل في تساؤل دائم عما إذا كانت كلماته تلك آخر كلمات تسمعها من أي شخص. سيظل يتساءل دائمًا إن كانت تلك الكلمات آخر كلمات سمعتها، إن كانت كلمات الوداع عندما وقفت مترنحة في أعلى السلم، أو رقدت محتضرة عند أسفل درجاته.

«إذًا، تقول إنكما تجادلتما، ثم خرجت من البيت. هل واجهت زوجتك بالأمر؟ هل سألتها عما قالته لك أنجيلا؟».

هز ثيو رأسه. قال: «لم أفعل شيئًا من هذا. ثمة نوع من الأسئلة». قال هذا بصوت خافت، «لا يريد المرء سماع إجابات عنها. أسئلة لا يريد أن تكون لها إجابات. على أية حال، لم يطل الأمر بعد ذلك الحديث بيننا لأن أنجيلا ماتت. وما كان أمرًا مقبولًا أن أطرح الأمر مع زوجتي عند ذلك، أثناء حزنها على أختها. لكني اشتبهت... بل كنت واثقًا من أن دانييل سوف يستخدم موت أمه لكي يحاول التقرب أكثر من كارلا. ما كنت قادرًا على أن أطيق هذا. أردته أن يختفي من الصورة».

أوقفت المحقّقة تشالمرز التسجيل. نهضت من خلف الطاولة وقالت إنهما سيأخذان استراحة قصيرة. عرضت عليه قهوة، لكنه رفض. بدلًا من ذلك، طلب منها زجاجة ماء، زجاجة مياه فوّارة، إن كان ذلك متوفرًا لديهم. قالت تشالمرز إنها ستفعل ما في وسعها.

انقضى الأمر. انقضى الجزء الأكثر سوءًا.

بعد ذلك، فوجئ بأن الأسوأ لم ينقضِ أبدًا. ماذا عن الصحف؟ أوه، يا إلهي، الصحف! الأشياء التي سيقولها الناس. الأشياء التي سيقولها الناس على الإنترنت، وفي وسائل التواصل الاجتماعي. يا إلهي القادر

على كل شيء! طأطأ رأسه وبكى. كتفاه ترتعشان. كتبه! لن يشتريها أحد بعد الآن. الشيء الحسن الوحيد الذي فعله -بمعزل عن إنجابه بن، وبمعزل عن حبه كارلا - هو عمله. ولسوف تصير أعماله ملطخة إلى الأبد، ملطخة مثل اسمه. سوف يرفعون كتبه عن الرفوف. سوف ينزل الخراب بميراثه كله. صحيح أن نورمان ميلر طعن زوجته بسكين صغيرة. صحيح أن ويليام بوروز أطلق النار على زوجته فقتلها. لكن الزمن تغير الآن، ألم يتغير؟ تغير الزمن، وصار الناس أقل تسامحًا. ما عاد المرء قادرًا على أن يفلت بفعلة من هذا النوع. خطوة واحدة خارج الصف كافية لأن يُلغى.

كان ثيو قد أفلح في لملمة شتات نفسه عندما عاد المحققان إلى الغرفة. عادت تشالمرز تحمل زجاجة ماء إيفيان. بطبيعة الحال، ما كانت زجاجة ماء فوار. مسح عينيه، وتمخط، ثم جلس متأهبًا. ذكّر نفسه بما كان مهمًا حقًا.

كان لدى المحققين شيء آخر يريدان أن يراه - هذه المرة صورة لامرأة شابة. سأله المحقق باركر: «هل رأيت هذه المرأة من قبل، يا سيد مايرسون؟».

أومأ ثيو برأسه. نظر إلى المحقّقين. قال: «إنها الفتاة التي وجهتم إليها اتهامًا بالقتل. اسمها كيلبرايد، أليس كذلك؟».

«ألم ترها إلا مرة واحدة، تلك المرة التي أخبرتنا عنها؟».

فكر ثيو في هذا السؤال لحظة. قال: «لا، لا. لا أستطيع أن أقسم على هذا أمام المحكمة. لكني أظنها المرأة التي قلت لكما إنني رأيتها على ممر المرسى صبيحة موت دانييل. قلت في ذلك الوقت... قلت لكما إنني رأيتها من نافذة غرفة نومي. كان هذا غير صحيح. الحقيقة أنني، أنني... أظن أنني مررت بها. أظنني مررت بها في طريقي إلى الزورق. لقد كانت... كان سيرها مترنحًا بعض الشيء، أو لعل مشيتها

كانت عرجاء. ظننتها ثملة. كان على ملابسها تراب، أو دم. ظننتها تعثرت فسقطت. ذكرتها لكما عندما استجوبتماني أول مرة لأنني كنت أحاول حرف انتباهكم».

قال باركر: «هل تعني أنك كنت تحاول حرف انتباهنا عنك؟».

«صحيح، حاولت حرف انتباهكم عني. واضح أنني حاولت حرف انتباهكم عني».

تبادل المحققان نظرة جديدة من نظراتهما المبهمة. سأله باركر: «هل يفاجئك سماع أن هذه السكين التي عرفتها وقلت إنها لك، وقلت أيضًا إنك استخدمتها في قتل دانييل ساذرلاند. قد عُثر عليها في شقة هذه الشابة التي في هذه الصورة؟».

«أنا...». ما كانت كلمة مفاجأة كافية للتعبير عما أصابه. «في شقتها؟». خطرت في ذهن ثيو فكرة مخيفة، فكرة أن يكون قد أقدم على قتل نفسه بنفسه من غير موجب، «إنها... نعم. لا بد أنها التقطت تلك السكين. لا بد أنها رأتني أرميها بين الأجمات... لعلها الشخص الذي أظن أنني رأيته بعد ذلك. ولعل... لعل ذلك كان عندما رأيتها». قاطعته تشالمرز قائلة، «قلت لنا قبل قليل إنك رأيتها عندما كنت ذاهبًا إلى الزورق».

«لكن من الممكن أن يكون هذا قد حدث في ما بعد. لعله حدث بعد ذلك. ما أتذكره عن ذلك اليوم ليس واضحًا تمامًا. كان وقتًا مشحونًا بالتوتر. كان وقتًا فيه مشاعر قوية جدًا. لقد كنت... واضح أنني كنت في اضطراب شديد».

«سيد مايرسون، هل تعرف هذا؟».

الآن، لديهما شيء آخر لكي يراه – وشاح.

أومأ برأسه: «أوه، نعم. هذا لي. إنه من صنع بيربيري، هذا الوشاح. وشاح جيد». رفع رأسه ناظرًا إليهما، «كان هذا الوشاح معي ذلك الصباح. أظنه سقط مني».

سألته تشالمرز: «أين تظن من الممكن أن يكون قد سقط منك؟».

«لا فكرة عندي... في الحقيقة. كما قلت لكما، ما أتذكره عن تلك الحوادث بعيد عن الدقة كل البعد. من الممكن أن يكون قد سقط في الزورق. ومن الممكن أن يكون قد سقط أثناء سيري على ممر المرسى. لست أدري».

«أظنها ستكون مفاجئة لك أيضًا معرفة أننا عثرنا على هذا الوشاح أيضًا في شقة لورا كيلبرايد».

«أهذا صحيح؟ لا بأس. إن كان قد سقط مني لحظة رميت السكين بعيدًا، فمن الممكن...». تنهد ثيو؛ كان مرهقًا، «ما أهمية هذا الأمر؟ قلت لكما إنني قتلته. أنا من قتله. لست أدري كيف حصلت الفتاة على وشاحي، وأنا لا أظن...».

قال باركر: «تعتقد الآنسة كيلبرايد أن الوشاح والسكين وُضعا في شقتها في محاولة لإلصاق تلك الجريمة بها».

«لا بأس». كان ثيو حائرًا، «من الممكن أن يكون هذا صحيحًا، لكني لست من وضعهما هناك. ألا تريان هذا؟ أولًا، لا علم لي بمكان إقامتها. ثانيًا، قلت لكما قبل قليل، إن السكين والوشاح يخصانني. فلماذا أضعهما هناك ثم أقول لكما إنهما لي؟ ليس لهذا أي معنى أبدًا. أليس كذلك؟».

هز باركر رأسه. فكر ثيو في أن هذا المحقّق يبدو غير مسرور على الإطلاق. ليس له مظهر رجل تمكن قبل لحظات من حل لغز جريمة.

«هذا لا معنى له، يا سيد مايرسون. فعلًا، لا معنى له. والمسألة هي...». قال باركر هذا وقد انتصب في جلسته واضعًا مرفقيه على الطاولة، باسطًا أصابع يديه، «المسألة هي أننا وجدنا على السكين بصمة إصبع واحدة. إنها بصمتك أنت. بصمة الإبهام، إن شئت الدقة. لكن، وبما أن السكين لك، فإن عثورنا على بصمتك ليس بالأمر المفاجئ، خاصة لأننا وجدنا البصمة في هذا الموضع». أشار باركر إلى نقطة

على طرف مقبض السكين حيث يبدأ نصلها، «ليس هذا بالموضع الذي يكون متوقّعًا أن توجد فيه البصمة إن كنت ممسكًا بالسكين لكي تطعن بها أحدًا. لكنه الموضع الذي ينبغي أن تكون فيه بصمة الإبهام إن كنت... فلنقل إن كنت تقطع بصلة».

رفع ثيو كتفيه وهز رأسه. قال: «لا أعلم ما تريد مني قوله. لقد فعلتها. أنا من قتل دانييل ساذرلاند بسبب علاقته مع زوجتي السابقة، كارلا. إذا جلبت لي ورقة وقلم، فسوف أكتب هذا بنفسي. سوف أذيّل اعترافي بتوقيعي. الآن. فضلًا عن هذا، لا أظنني راغبًا في قول أي شيء آخر، إن كان هذا في وسعي. هل أستطيع الامتناع عن قول أي شيء آخر؟».

على غير انتظار، دفعت تشالمرز كرسيها إلى الخلف. بدا عليها الضيق والغضب. هز باركر رأسه بائسًا. أدرك ثيو أنهما لا يصدقان شيئًا مما قاله، فآلمه هذا الإدراك. لماذا لا يصدّقان؟ ألا يريانه قادرًا على أفعال من هذا النوع؟ ألا يبدو لهما رجلًا قادرًا على القتل في سبيل الحب؟ رجلًا قادرًا على القتل لحماية أسرته؟ من عساه يبالي إن صدّقاه أم لم يصدقاه؟ هذا ما قاله ثيو في نفسه شاعرًا بأنه يقطر فضيلة. لقد أقدم على فعل ما يراه صائبًا. لقد أنقذها.

مكتبة
t.me/t_pdf

- 35 -

ما أرادت كارلا منه شيئًا غير أن تسمعه ينكر الأمر كله.

في ليلة يوم الجمعة تلك، في بيت ثيو، بعد يومين من رؤيتها دفتر الرسم الذي كان لدانييل، نامت كارلا في وقت مبكر. كانت ثملة إلى أقصى حد. لكنها أفاقت بعد بضع ساعات من نومها. ألم في رأسها، وجفاف في فمها. كانت المشاهد التي رسمها دانييل تجري أمام عينيها كأنها شريط إخباري متحرّك على شاشة عقلها المرهق. إلى جوارها، كان ثيو يشخر شخيرًا خفيض الصوت. نهضت من الفراش. لا معنى لبقائها مستلقية هنا. لا سبيل إلى النوم من جديد. ارتدت ملابسها بكل هدوء، والتقطت الحقيبة الصغيرة التي وضعت فيها ما يلزمها لقضاء الليل هنا، ثم نزلت درجات السلم. شربت كأس ماء واقفة أمام المجلى، ثم شربت كأسًا أخرى. شربت في الليلة الماضية أكثر من زجاجة نبيذ، أكثر مما شربته في مرة واحدة منذ سنين كثيرة. جعلها الألم في مؤخر رأسها شبه عاجزة عن الرؤية. وجدت في حمام الطابق السفلي علبة باراسيتامول فابتلعت ثلاثة أقراص.

عادت إلى المطبخ باحثة عن ورقة وقلم لكي تترك له رسالة. عجزتُ عن *النوم*. ذهبت *إلى بيتي*. أو أي شيء من هذا القبيل. سوف يجرحه هذا لأنه لن يفهمه. لكن، ليس لديها الآن متسع من الوقت. لا متسع لمراعاة مشاعر ثيو. لا متّسع لديها لأي شيء. دانييل فقط.

لم تجد قلمًا. لا أهمية لهذا. سوف تكلّمه لاحقًا، بالهاتف. سوف تتصل به بعد حين. في وقت من الأوقات، سيكون عليهما أن يتكلما في

الأمر، وسيكون عليها أن تعثر على قصة تفسّر بها أسباب المشاعر التي كانت لديها، أسباب تصرفاتها.

عندما أتت كعادتها من أجل عشاء ليلة الجمعة، قال لها ثيو: «تبدين شديدة الإرهاق، يا عزيزتي. أتراك تجدين مشقة في النوم؟». قالت له إنها لا تنام جيدًا فراح يسألها: متى بدأ هذا؟ وما الذي جعله يبدأ؟ كانت غير راغبة في الكلام في هذا الأمر. قالت له: «بعد أن نتناول كأسًا». شربت كأسين من الجن مع التونيك قبل أن يفتحا زجاجة النبيذ. لم تأكل شيئًا. لا عجب في أن الشراب قد أزعجها هكذا.

لا عجب!

نظرت من نافذة المطبخ فرأت أن صقيعًا قد حل على المرج في الحديقة. سيكون الطقس باردًا في الخارج. وضعت قفازيها، ثم تناولت وشاحًا من أوشحة ثيو القديمة كان معلقًا في الممر. لفّت الوشاح من حول كتفيها. عند عودتها إلى المطبخ، لاحظت أن السكين التي استخدمها ثيو لتقطيع شرائح الليمون من أجل كأسي الجن مع التونيك اللتين تناولتهما في المساء لا تزال مكانها. لا تزال هناك، على لوح التقطيع.

لا تريد منه شيئًا غير أن تسمعه ينكر الأمر كله.

خرجت عبر باب المطبخ. وفي سيرها، أحكمت لف الوشاح على رقبتها. فتحت بوابة الحديقة الخلفية وخرجت إلى ممر المرسى المهجور، ثم انعطفت يسارًا، في اتجاه بيتها.

علا فوق الماء ضباب رقيق، فضّي في ضوء القمر. كانت أنوار الزوارق في القناة مطفأة كلها: لا بد أن الساعة لا تزال الرابعة والنصف- أو، لعلها الخامسة صباحًا! لا تزال السماء مظلمة. سارت كارلا بخطى بطيئة دافنة يديها عميقًا في جيبيها. أنفها مختبئ في ثنايا الوشاح. سارت مئة يارد، مئتي يارد. عبرت الدرجات التي ينبغي أن ترتقيها حتى تذهب إلى بيتها. تابعت سيرها.

بدا لها أن ذهنها قد بدأ يصفو في البرد. في وسعها أن تذهب إليه الآن. سوف تسمعه ينكر الأمر. سوف تسمعه يقول لها، *هذا غير صحيح، غير حقيقي، هو ليس أكثر*... ليس أكثر من ماذا؟ ماذا يمكن أن يكون؟ خيال؟ كابوس؟ أي معنى كان لجلوسه في وقت من الأوقات خلال السنوات الماضية ورسم هذه الصور - صوره، وصورها... صور الطفل؟ ما معنى إقدامه على رسمهم جميعًا بهذه الطريقة؟ ما كانت تريد غير أن تسمع تفسيرًا.

عند اقترابها من زورقه، فاجأها سماع أصوات منبعثة منه، أصوات مرتفعة، غاضبة. أسرعت الخطى بدلًا من التوقف والنقر على نافذة الزورق مثلما اعتزمت. تابعت سيرها على امتداد الممر متّجهة صوب الدرجات الصاعدة إلى الجسر. وقفت هناك، في الأعلى، تنظر إلى الزورق. أنفاسها الحارة السريعة تستحيل ضبابًا في الهواء أمامها.

بعد لحظة، أو لحظتين، رأت دانييل يخرج إلى سطح زورقه الخلفي. كان يرتدي بنطلون جينز. لبس على جذعه العاري سترة ذات قبعة وهو يخطو منتقلًا من الزورق إلى ممر المرسى. بدا لها أنه يقول شيئًا، لكن الريح اختطفت كلماته وبددتها على صفحة الماء. رأته كارلا يميل برأسه هذه الجهة وتلك، ثم يضغط على رقبته بكفه. سار صوب الجسر. سار بضع خطوات، ثم توقّف لحظة ليشعل سيجارة. أمسكت أنفاسها متوقّعة أن يرفع رأسه ويراها. أخذ من سيجارته بضعة أنفاس، ثم رماها. رفع قبعة سترته فغطى بها رأسه أثناء مروره تحت الجسر الذي كانت تقف فوقه.

لم تنقضِ إلا لحظات قليلة حتى خرجت من الزورق فتاة. فتاة صغيرة السنَ - كان واضحًا تمامًا أنها صغيرة جدًا بالنسبة إلى دانييل. مظهرها مشعّث. وقفت الفتاة برهة، ظهرها في اتجاه كارلا. راحت تنظر يمنة ويسرة كأنها غير واثقة من الوجهة التي تريد اتخاذها. رفعت رأسها وألقت على الجسر نظرة خاطفة، ثم بصقت على الأرض

وسارت متثاقلة الخطى متخذة اتجاهًا معاكسًا للاتجاه الذي اتخذه دانييل. سمعتها تضحك في سيرها.

بدأ نور الصباح يظهر في السماء. أوائل ممارسي رياضة الجري الصباحي في ذلك اليوم -أكثرهم التزامًا- شدّوا أربطة أحذيتهم الرياضية، وانطلقوا متّجهين إلى القناة. مر من تحت الجسر واحد منهم، أو اثنان. سرعان ما يأتي مزيد منهم. الجو بارد. لا رغبة لديها الآن في الانتظار أكثر مما انتظرت. أرادت أن تعود، لا إلى بيتها، بل إلى فراش ثيو الدافئ، إلى القهوة والراحة. سيكون على المواجهة مع دانييل أن تنتظر يومًا آخر. أثناء تفكيرها في هذا، أثناء تفكيرها في هذا الأمر تحديدًا، رأت دانييل يظهر من تحت قوس الجسر. رأسه تحتها تمامًا. وقفت تنظر إليه عائدًا إلى زورقه. سيجارة في يده، بين إصبعيه الثالث والرابع. في حركاته، كان شديد الشبه بأمه. رأته يصعد إلى ظهر الزورق. عند صعوده، كانت شديدة الثقة من أنه سوف يرفع عينيه إليها، من أنه سيراها. لكنه دخل كابينة الزورق، اختفى.

نظرت كارلا إلى ممر المرسى، نظرت في الاتجاهين، فلم تر أحدًا. سارت مسرعة إلى تلك الدرجات الحجرية. نزلت السلم بخطوات كبيرة، درجتين في كل خطوة، ثم جرت إلى الزورق. صعدت إلى سطحه واندفعت داخلة كابينته - لا بد أن هذا كله لم يستغرق أكثر من نصف دقيقة. الآن، صارت معه، وحدها. ظهره في اتجاهها. كان يخلع سترته، فاستدار إليها عندما سمع صوت دخولها، أو عندما أحس تمايل الزورق. أسقط السترة على الأرض، عند قدميه. مرت لحظة كانت فيها ملامح وجهه خالية من أي تعبير، ثم ابتسم.

قال لها: «مرحبًا! هذه مفاجأة». فتح ذراعيه على اتساعهما متقدّمًا منها، مقتربًا حتى يعانقها.

في تلك اللحظة، كانت يد كارلا قد اندفعت عميقًا داخل حقيبتها وأطبقت كفها على مقبض السكين. بحركة واحدة، أخرجت السكين

وانقضت بها عليه واضعة من خلفها قوَّتها كلها، وزنها كله. رأت كيف خبت ابتسامته. كان صوت أغنية ينبعث من الراديو، صوت غير مرتفع كثيرًا لكنه كاف للتغطية على الصوت الذي أطلقه دانييل: ليس صرخة، ولا صيحة، بل نداء مكتومًا. سحبت السكين، ثم طعنته بها من جديد، ثم طعنته مرة أخرى، في الرقبة هذه المرة. مرت بنصلها على حنجرته حتى تسكته.

سألته -كررت سؤالها مرة بعد مرة- إن كان يدرك ما جعلها تفعل هذا. لكنه كان غير قادر على إجابتها. لم تستطع أبدًا سماع إنكاره تلك الفعلة.

بعد ذلك، أغلقت باب الكابينة، ثم أقفلته. خلعت ملابسها واستحمت. غسلت شعرها. ارتدت الملابس التي كانت معها في الحقيبة. وضعت ثيابها الملطخة بالدم في كيس من النايلون وجدته في المغسلة. وضعت كيس الملابس في حقيبتها، ومعها السكين التي لفّتها بوشاح ثيو. فتحت الباب، ومضت تاركة باب الكابينة مفتوحًا. سارت في ممر المرسى بخطوات سريعة عائدة في اتجاه بيت ثيو. لا تجذب انتباه أحد امرأة بيضاء في أواسط العمر خارجة في نزهتها الصباحية. عبرت بوابة الحديقة الخلفية، ثم دخلت المطبخ حيث تركت حقيبتها. صعدت السلم بخطوات خفيفة. دخلت غرفة النوم بكل هدوء. كان ثيو لا يزال نائمًا في فراشه. دخلت حمام غرفة النوم. خلعت ملابسها النظيفة واستحمت مرة أخرى. وقفت طويلًا تحت رذاذ الماء المنهمر عليها. كانت مستنفدة القوى. آلمتها يداها. فكاها مطبقان. عضلات ساقيها خائرة كأنها جرت ماراثونًا.

إن كانت لم ترد شيئًا غير أن تسمع إنكاره، فلماذا لم تمنحه فرصة لفعل هذا؟ لماذا أشهرت السكين؟ لماذا عادت إلى بيت ثيو بدلًا من العودة إلى بيتها؟ إلّا إذا تريد أن تحظى بفرصة أخيرة لإثبات وجودها

في غير مكان الجريمة؟ تستطيع أن تكذب على نفسها قدر ما تشاء، لكنها صارت تستلقي صاحية ليلة بعد ليلة، مثلما تفعل الآن، وتفكر في ما فعلته، فتبصر حقيقة الأمر. منذ لحظة رؤيتها ما رسمه دانييل، رؤيتها إياه على الشرفة مبتسمًا لطفلها في الأسفل، كانت مدركة، بل مدركة تمام الإدراك، ما سوف تفعله به.

كل شيء آخر، كل ما عدا ذلك، كان كذبًا.

- 36 -

عندما قالت لها الحارسة إن هناك أنباء طيبة، كانت أول ما فكرت فيه لورا هو أن أمها أتت لزيارتها. كان ثاني أمر خطر في ذهنها تمنّيها ألا تكون أمها أول شخص تتجه إليه أفكارها. ما كان الأمر كذلك، بطبيعة الحال. لم تأت أمها لزيارتها، بل إنها لم تطلب إذنًا لزيارتها. طلب الإذن أبوها - سوف يأتي في اليوم التالي. أمر لطيف، لكنها لم تستطع منع نفسها من تمنّي أن يكون الزائر أمها. حتى الآن، لا تزال لورا، على الرغم من كل شيء، في أكثر لحظاتها ظلمة، تتمنى وجود أمها معها.

كان مسلك الحارسة (امرأة لعلها في مثل سن أمها) أكثر أمومة من مسلك أمها نفسها. ابتسمت لها ابتسامة لطيفة وقالت: «ليست زيارة، يا عزيزتي. أنباء أفضل من ذلك».

سألتها لورا: «ماذا؟ ما هي؟».

ما كان مسموحًا للحارسة أن تقول لها، لكنها أخذت لورا معها، أخرجتها من غرفتها وسارت في ممر، ثم اجتازتا أبوابًا، ثم ممرًا آخر، ثم ممرًا آخر. طيلة الوقت، كانت لورا تسألها: «ماذا؟ ما الأمر؟ أوه، ماذا بك؟ قولي لي!».

اتضح أخيرًا أنها ذاهبة لرؤية الرجل المتوتر ذاته، المحامي.

«هو؟». لم تستطع لورا إخفاء خيبة أملها «هو!».

اكتفت الحارسة بأن ضحكت. أشارت إلى لورا بأن تجلس، ثم غمزت لها بعينها وهي تغلق الباب.

جلست لورا إلى الطاولة مدمدمة: «بحق اللعنات كلها!».

ألقى عليها الرجل المتوتر تحية الصباح بصوت مرح. قال لها وهو يجلس على كرسي قبالتها، «أنباء طيبة، يا لورا!».

«نعم، سمعت هذا. الجميع يقول لي هذا».

بعد ذلك، صدّق أو لا تصدّق، اتضح فعلًا أنها أخبار طيبة.

لقد أسقطوا التهم الموجّهة إليها. ودّت لورا أن ترقص. ودّت أن تطوّق الرجل المتوتر بذراعيها. ودّت أن تقبله على فمه. ودّت أن تخلع عنها ملابسها كلها وتجري عارية في مركز الحبس الاحتياطي. لقد أسقطوا الاتهامات كلّها! لقد أسقطوا تلك الاتهامات اللعينة كلها!

أفلحت في تمالك نفسها، لكنها نهضت واقفة وقالت بصوت متعجل كأنها كلب صغير ينبح: «هل أستطيع الذهاب؟ هل أستطيع الذهاب الآن؟».

«نعم». كان الانفراج باديًا على الرجل المتوتّر مثلما كان باديًا عليها، تقريبًا. «في الحقيقة، لا. أعني أنك لا تستطيعين الذهاب الآن. لا تزال هناك أوراق ينبغي أن تضعي توقيعك عليها. وأيضًا، هل هناك أي شخص تحبين أن أتصل به؟ شخص تحبين أن يأتي لأخذك من هنا؟».

أمها!؟ لا، لا تريد أمها. أبوها!؟ لكن هذا يعني مواجهة مع دييدره، مواجهة كفيلة بأن تقتل فرحتها كلها. أمر محزن، محزن حقًا، عندما يفكر المرء فيه- ليس لها أحد، لا أحد أبدًا.

سمعت نفسها تسأله: «هل تستطيع الاتصال بصديقتي إيرين؟».

«إيرين؟». أمسك بقلمه، «هل هي من أفراد عائلتك؟ أم هي صديقة؟».

قالت لورا: «إنها أفضل صديقاتي».

كان ذلك كأنه طيرانٌ.

لا، لم يكن مثل الطيران، لم يكن كذلك أبدًا. أحسّت كأن أحشاءها كانت منعقدة، منقبضة منذ دهور ودهور، منذ أسابيع وشهور وسنين،

ثم أتى أحدهم على غير انتظار وفكّ تلك العقد فصار كل شيء سائبًا، حرًّا، وانجلى عنها ذلك الألم في بطنها، خمدت النار، زال التشنج والألم، زال العذاب، زالت المشاعر المعوجّة، زال ذلك كله وصارت أخيرًا -أخيرًا!- صارت قادرة على أن تقف منتصبة القامة. صارت قادرة على الوقوف منتصبة القامة، كتفاها مشدودتان، ثدياها نافران، وأن تتنفس، أن تتنفس ملء رئتيها. تستطيع الغناء إن أرادت. تستطيع أن تغني أغنية كانت أمها تغنيها في ما مضى.

لذا، ها هي لورا تغني: «*نعم، قلت لك إنني أحبك. الآن، ماذا أستطيع أن أفعل غير هذا؟*».

قالت لها الحارسة اللطيفة أن تذهب إلى غرفتها لكي تحزم أمتعتها، ثم تصعد إلى المطعم لتناول وجبة الغداء، لأن من المحتمل أن يمر وقت قبل أن تصير الأوراق جاهزة، قبل أن تصير قادرة على الذهاب. ستكون جائعة عند خروجها، ولن تجد في بيتها شيئًا تأكله، أليس كذلك؟ عادت العُقد تتجمّع في أحشائها من جديد، لكن لورا ظلت ناصبة قامتها. رفعت ذراعيها عاليًا فوق رأسها وتسارعت خطواتها.

«*قلت لك إنني أحبك، فأوجعت قلبي، أوجعته كثيرًا*».

لورا تسير، مبتسمة لنفسها، طنين في رأسها، وتنميل في جلدها، تسير وحدها، ماضية صوب غرفتها. ترى فتاة أمامها، فتاة آتية في اتجاهها، فتاة طويلة لها حلقة في أنفها، فتاة صادفتها في المطعم منذ ثلاثة أيام، فتاة دعتها عاهرة عرجاء بشعة، دعتها بذلك من غير سبب وقالت لها إنها ستجرحها في وجهها إن رأتها مرة أخرى.

«*نعم، قلت لك إنني أحبك. الآن، ماذا أستطيع أن أفعل غير هذا؟*».

لم تر الفتاة الطويلة لورا. لم ترها بعد. كانت تتحدّث مع صديقتها، مع فتاة أقصر منها لكنها ممتلئة الجسم، قوية المظهر، من ذلك النوع الذي لا يحب أحد أن يعبث معه.

«*أتريدني أن أستلقي وأموت من أجلك؟*».

لورا تسير وهي تغنّي، لكنها خافضة رأسها طيلة الوقت، ذقنها ملتصقة بصدرها، *لا ترفعي رأسك، لا تنظري في عينيها. افعلي ما شئت، لكن لا تنظري في عينيها*. كانت الفتاة الطويلة تقترب منها. كانت تضحك لشيء تقوله صديقتها ذات الجسد الممتلئ المتين. كان الصوت الصادر عنها مثل صوت البالوعة، تمامًا مثل صوت البالوعة. الآن، ها هي لورا تضحك أيضًا، لا تزال خافضة رأسها، لكنها تضحك. هي غير قادرة على منع نفسها من الضحك لأن الأمر مضحك، لأنه مضحك جدًّا، لا يستطيع أحد القول إنه غير مضحك. ذلك الصوت، مثل صوت البالوعة، خارجًا من فم الفتاة الكبير، البشع.

ها هي لورا، ما عادت مطرقة برأسها. رفعت رأسها فرأت ابتسامة الفتاة الطويلة تنقلب زمجرة. سمعت صديقتها تسألها: «ماذا بك؟». ثم، ها هي لورا ضاحكة كأنها مخبولة، كأنها جرس، كأنها سرب حشرات طائرة.

ها هي لورا تسقط. اصطدم رأسها بالأرض المكسوة باللينوليوم. ها هي لورا تصرخ ألمًا عندما وطأ حذاء يدها. ها هي لورا، تحاول جاهدة أن تتنفس. ركبة الفتاة الطويلة تضغط على صدرها.

ها أنا هنا ها أنا هنا ها أنا هنا.

ها هي هنا.

- 37 -

مرت ثلاثة أيام منذ آخر مرة خرجت فيها إيرين من بيتها. ثلاثة أيام، أم أربعة؟ ما كانت واثقة من هذا. لكنها عرفت أمرًا واحدًا فقط: هي مرهقة إرهاقًا فظيعًا. لا شيء في البراد، لكنها لم تجد نفسها قادرة على مواجهة فكرة الخروج من البيت، على مواجهة السوبر ماركت، والأصوات، وأولئك الناس جميعًا. النوم هو ما أرادته، هو ما أردته حقًّا. لكن، ما كانت لديها الطاقة الكافية لأن تجعل نفسها تنهض من جلستها وتحمل نفسها إلى الطابق العلوي. ظلت جالسة في كنبتها عند النافذة. أصابعها في حركة دائمة على حافة البطانية التي وضعتها على ركبتيها.

كانت أفكارها متجهة إلى ويليام. لقد سمعت صوته منذ أمد غير بعيد. كانت تبحث عن ردائها الشتوي لأن الطقس لا يزال فظيعًا، لا يزال شديد البرودة. سارت من غرفة المعيشة إلى المطبخ حتى ترى إن كانت قد تركته هناك مثلما تفعل أحيانًا، إن كانت قد تركته معلقًا على مسند الكرسي. عندها، سمعت صوته، سمعته واضحًا كمثل وضوح النهار. *ما رأيك في فنجان شاي، يا إيرين؟*

تركت إيرين بيت ثيو مايرسون مهزوزة هزًا عنيفًا. مضت أيام بعد ذلك اللقاء، لكنها لا تزال مهزوزة. مرت بها لحظة -لحظة وجيزة- لكنها مخيفة جدًا، ظنت فيها أنه يوشك على إيقاع الأذى بها. عندما تقدّم رافعًا يديه. كادت تحس ضغط يديه على رقبتها. تراجعت مذعورة. أبصر ثيو ذعرها. كانت واثقة من أنه أبصر ذعرها. لكنه أحاطها بذراعيه، حنونًا كأنه أم، ثم أنهضها وساعدها في الوصول إلى الأريكة.

كان مرتعشًا طيلة الوقت. لم يكلمها، ولم ينظر إليها. سار مبتعدًا عنها. رأته يجثو أمام الموقد وينتزع صفحات من دفتر دانييل، ينتزعها بحركة عنيفة، ثم يقذف بها في النار صفحة تلو صفحة.

وبعد برهة، تركت بيته في سيارة تاكسي استدعاها من أجلها. طغى عليها شعور بالعار لما أوقعته من ضرر. لو أنه ألحق بها أذية، فقد استحقت أن يؤذيها. هكذا قالت لنفسها.

كان عصر ذلك اليوم مخيفًا؛ لكنه ما كان أسوأ الأشياء على الإطلاق. سوف يأتي الأسوأ في وقت لاحق. انقضى يومان بعد تلك الحادثة مع مايرسون. فتلقّت إيرين اتصالًا هاتفيًا من محام قال لها إن لورا كيلبرايد سوف يخلى سبيلها من مركز الحبس الاحتياطي. سألها المحامي إن كانت قادرة على الذهاب إلى شرق لندن بعد ظهر ذلك اليوم لكي تأخذها. سُرَّت إيرين سرورًا شديدًا -فرحت كثيرًا. ارتاحت كثيرًا- لكن مكالمة أخرى أتتها من المحامي نفسه بعد ساعات من طلب إيرين سيارة تاكسي لكي تأتي وتأخذها من ذلك المكان. قال لها إن لورا لن تخرج لأنها هوجمت فلحقت بها إصابات خطيرة. قال إنهم سيأخذونها على الفور إلى المستشفى. أصاب إيرين قنوط شديد فلم تسأل المحامي عن اسمه ولا عن اسم المستشفى. لم يقولوا لها شيئًا عندما اتصلت بمركز الحبس الاحتياطي طالبة مزيدًا من المعلومات. رفضوا إحاطتها علمًا بمدى خطورة إصابات لورا، وبمكان وجودها، بتطور حالتها لأن إيرين ليست من أفراد عائلتها.

منذ تلك اللحظة، باتت إيرين غير قادرة على تناول شيء من الطعام، ولم تنم بعد ذلك لحظة واحدة. صارت كأنها خارج نفسها. هذا تعبير غريب، لكنه بدا صالحًا لوصفها لأنها أحسّت كأنها تحلّق خارج نفسها، كأنها تعيش أحداثًا لا تكاد تبدو حقيقية، أحداثًا أحست كأنها قرأت عنها، أو شاهدتها تجري على شاشة التلفزيون، أحداثًا بعيدة لكنها واضحة وضوحًا غريبًا. أحسّت إيرين بأنها تقف عند حافة شيء:

تعرف هذا الإحساس. إنه بداية انزلاقها إلى حالة أخرى من حالات الوعي، حالة يبتعد فيها العالم الحقيقي ويخبو فتجد نفسها في مكان آخر، في مكان مربك، مخيف، خطير، لكن فيه احتمال لرؤية ويليام من جديد.

ازدادت أجفان إيرين ثقلًا. بدأت ذقنها تميل إلى صدرها عندما أحسّت ظلًا يعبر أمام نافذتها فأجفلت وانتفضت مستيقظة. رأت كارلا في الخارج، في الزقاق. رأتها تبحث في حقيبة يدها، تبحث فيها عن شيء. انحنت إيرين صوب النافذة ونقرت عليها بإصبعها. أجفلت كارلا. رفعت رأسها فرأت إيرين. أومأت لها، لكنها لم تهتم حتى بأن تبتسم لها. أشارت إليها إيرين بأن تنتظر لحظة، لكن كارلا كانت قد استدارت ومضت في سبيلها. لقد وجدت ما كانت تبحث عنه في حقيبة يدها -لا بد أنه مفتاح البيت المجاور- ثم اختفت.

من جديد، غرقت إيرين في كنبتها. كان جزء منها راغبًا رغبة شديدة في ترك الأمر كله، في نسيان الأمر كله - ففي آخر المطاف، ما عادت لورا الآن مشتبَهًا فيها، ما عادت متهَمة بقتل دانييل. وقع الضرر على الفتاة المسكينة وانتهى الأمر. إن لدى الشرطة الآن شخصًا جديدًا مشتبهًا فيه. لديهم الآن ثيو مايرسون. نشرت الصحف كلها ذلك النبأ: لم تذكر الشرطة اسمه لأنها لم توجه إليه بعد اتهامًا رسميًا. لكن السر ذاع: تمكن مصوّر بارع من التقاط صورة مايرسون عندما أخرجوه من سيارة الشرطة أمام المركز. هذه الصورة مع أنباء تقول إن رجلًا في الثانية والخمسين من سكان منطقة آيلينغتون كان «يساعد» الشرطة في تحرياتها، فضلًا عن إسقاط التهم عن لورا كيلبرايد. لا يترك ذلك كله متسعًا لأي شك.

مسكين ثيو! أغمضت إيرين عينيها. رأت لحظة واحدة تعبير الصدمة على وجهه عندما شاهد ما رسمه دانييل في ذلك الدفتر، فداهمتها وخزة حادة من الشعور بالذنب. عيناها مغمضتان. رأت إيرين نفسها

أيضًا. تخيلت أنها تنظر إلى نفسها من خارج الغرفة، من الشارع، مثلما نظرت إليها كارلا مايرسون قبل لحظات فقط. ما الذي يمكن أن تكون كارلا قد رأته؟ لا بد أنها رأت امرأة عجوزًا قصيرة القامة، امرأة ذاهلة، مذعورة، وحيدة، تحدّق في الفراغ. تفكر في الماضي، إن كانت تفكر في شيء أصلًا.

عندها، تراءى لها في مخيلتها كل ما كانت تخشاه: رؤية نفسها مختزلة إلى تلك العبارة المبتذلة، «امرأة عجوز»، إلى شخص لا أهمية له، ولا أمل له في المستقبل، ولا نوايا له، امرأة جالسة مع نفسها على كنبة مريحة، وبطانية ملقاة على ركبتيها. امرأة جالسة في غرفة انتظار الموت.

لا بأس، لو كانت لورا هنا لقالت، هذا *هَبَل*!

نهضت إيرين من جلستها وسارت إلى المطبخ متثاقلة حيث أرغمت نفسها على شرب كأس ماء قبل أن تأكل قطعتين ونصف قطعة من بسكويت بالشوكولاته. بسكويت قديم. ثم أعدت لنفسها فنجان شاي أضافت إليه ملعقتين صغيرتين من السكر، ملعقتين ممتلئتين. انتظرت بضع دقائق إلى أن تسري في جسدها طاقة السكر الذي وضعته في الفنجان. أحست بأنها صارت أكثر قوة. حملت حقيبة يدها ومفتاح البيت رقم ثلاثة. فتحت باب بيتها واجتازت الخطوات القليلة إلى جهة اليسار، ثم دقت الباب. دقت الباب بأشد ما استطاعته يدها الصغيرة المصابة بالتهاب المفاصل. دقت باب بيت أنجيلا.

مثلما توقّعت، لم تتلق إجابة. وضعت المفتاح في القفل، وفتحت الباب. خطت داخلة ممر البيت وصاحت، «كارلا! كارلا، أنا إيرين. أريد أن أكلمك».

«أنا هنا». كان صوت كارلا قويًا، وكان قريبًا إلى حد مفاجئ. بدا لها أنه آتٍ من الهواء، من لا مكان. ارتدّت إيرين إلى الخلف مذعورة فتعثّرت بعتبة الباب وكادت تسقط. قالت كارلا: «هنا، في الأعلى».

تقدّمت إيرين من جديد رافعة عينيها صوب مصدر الصوت. رأت كارلا جالسة في أعلى السلم مثلما يجلس طفل هرب من فراشه. كانت تنسل خيوطًا من حاشية السجادة. «بعد أن تقولي ما أتيت لقوله، كائنًا ما كان، عليك أن تضعي ذلك المفتاح في المطبخ». قالت كارلا هذه الكلمات حتى من غير أن ترفع رأسها حتى تنظر إلى إيرين، «ليس من حقك أن تدخلي هذا البيت كلما وجدت نفسك راغبة في دخوله».

تنحنحت إيرين وقالت موافقة: «صحيح. أظن بأن هذا ليس من حقي». اقتربت من السلم. وضعت يدها على الدرابزين، ثم انحنت ورمت بالمفتاح على الدرجة الثالثة. قالت لها: «ها هو المفتاح».

«شكرًا». توقّفت كارلا لحظة عن نسل خيوط السجادة. رفعت عينيها. نظرت في عيني إيرين. بدت في حالة مخيفة. بدت محطّمة. جلدها رمادي اللون، وعيناها حمراوان كالدم. قالت بصوت خافت، نكِد: «الصحافيون مجتمعون أمام بيتي. ومنزل ثيو مزقته الشرطة إربًا. لهذا ترينني هنا. ليس لدي مكان آخر أذهب إليه».

فتحت إيرين حقيبة يدها. نظرت فيها، ثم بدأت تبحث بين محتوياتها.

سألتها كارلا: «هل لديك شيء آخر من أجلي، يا إيرين؟». كان واضحًا من صوتها أنها في غاية الإرهاق، أن حلقها جاف، «لأنني -إن لم يكن لديك شيء- أفضّل أن...».

أخرجت إيرين من حقيبة يدها علبتي حلي صغيرتين: العلبة التي فيها ميدالية سان كريستوفر، والعلبة التي فيها الخاتم. قالت بصوت هادئ وهي تضع العلبتين على الدرجة الثالثة حيث وضعت المفتاح: «أظنك تريدين استعادة هاتين العلبتين».

فغرت كارلا فمها دهشة: «أوه! هذه ميدالية سان كريستوفر!». بمشقة، نهضت واقفة على قدميها. كادت تسقط على السلم في اندفاعها صوب تلك العلبة الصغيرة. التقطتها وضمتها إليها. قالت

مبتسمة عبر دموعها، قالت لإيرين: «لقد عثرت عليها! لا أستطيع تصديق أنك عثرت عليها». مدت يدها إلى يد إيرين، لكن إيرين ابتعدت عنها مسرعة.

قالت لها بنبرة محسوبة: «لم أعثر عليها. أعطتني إياها لورا، لورا كيلبرايد. هل يعني لك هذا الاسم شيئًا؟».

لكن كارلا لم تكن مصغية إليها. هي الآن جالسة من جديد، جالسة على الدرجة الثالثة. علبة الحلي في حجرها. أخرجت الميدالية الذهبية الصغيرة، قلبتها بين أصابعها ثم رفعتها وضغطت بها على شفتيها. كانت إيرين تراقبها مسحورة بذلك التجسيد العجيب للحب المتفاني، للعبادة. تساءلت في نفسها إن كانت كارلا قد فقدت عقلها.

قالت إيرين من جديد: «إنها لورا، الفتاة التي اعتقلتها الشرطة. ألم تعرفيها؟ الميدالية والخاتم كانا في الحقيبة التي سرقتها منك. كارلا! هل يعني لك أي من هذا شيئًا؟». لا شيء، حتى هذه اللحظة، «لقد تركتِ الحقيبة هنا، هنا تمامًا، في هذا الممر. كان الباب مفتوحًا. رأت لورا الحقيبة فسرقتها. ندمت على فعلتها، فأعادت هاتين العلبتين، أعادتهما إليَّ... أوه، بحق الرب، يا كارلا!». قالت الكلمات الأخيرة بصوت مرتفع، حاد، فرفعت كارلا رأسها مشدوهة.

قالت لها: «ماذا؟»

«هل تعتزمين حقًا أن تفعلي هذا؟ هل ستظلين جالسة هنا متظاهرة بأنك ذاهلة عن كل شيء؟ هل تريدين تركه يتلقى اللوم كله؟».

هزت كارلا رأسها. عادت عيناها إلى الميدالية الذهبية. قالت: «لا أعلم شيئًا عما تعنيه بهذا الكلام».

قالت إيرين: «ثيو لم يقتل الفتى. أنت من قتله. أنت قتلت دانييل».

رفرفت عينا كارلا ببطء شديد. عندما نظرت إلى إيرين من جديد، كانت عيناها زجاجتين، ساكنتين. كان وجهها خاليًا من أي تعبير.

«أنت قتلت دانييل. وكنت ستتركين لورا تدفع ثمن فعلتك، أليس

كذلك؟ كنت ستتركين فتاة بريئة تعاني نتيجة فعلتك. هل عرفت...»، علا صوت إيرين، صار مرتعشًا، «هل عرفت أن إصابات لحقت بها أثناء وجودها في مركز الحبس الاحتياطي؟ هل عرفت أن إصاباتها كانت كبيرة إلى حد جعلهم ينقلونها إلى المستشفى؟».

انفتح فم كارلا، تدلّى حنكها إلى صدرها. قالت، «لا علاقة لي بهذا الأمر».

صاحت إيرين فتردد صدى صوتها في البيت الخالي، «بل لك كل العلاقة به. رأيتِ ما رسمه دانييل في دفتره. لك أن تنكري هذا، لكن إنكارك لا أهميةَ له. لقد رأيتُ تلك الرسوم. رأيت ما رسمه... رأيت ما تخيّله».

قالت كارلا بصوت كالفحيح: «تخيَّله!؟». ضاقت عيناها. وعلى حين غرة، ملأ الشر وجهها.

تراجعت إيرين إلى الخلف خطوة مبتعدة عن السلم، مقتربة من باب البيت. هناك، وسط ذلك الممر الخالي، أحست بأنها من غير شيء يسندها. تمنت أن تجد شيئًا تجلس عليه لكي تستريح. تمنت أن يكون على مقربة منها شيء تتمسك به. استجمعت قواها. عضت على شفتها. ضمت حقيبة يدها إلى صدرها كأنها درع. اقتربت من كارلا مرة أخرى. قالت لها: «رأيتُ ما رسمه دانييل. أنت رأيته أيضًا. وكذلك رآه زوجك قبل أن يرمي بتلك الصفحات في النار».

أجفلت كارلا عند سماع هذا. نظرت إلى إيرين.

قالت لها وقد انعقد حاجباها: «هل رآها ثيو؟ لكن الدفتر هنا. إنه... أوه». تنهدت، ثم أطلقت ضحكة حزينة صغيرة وارتمى رأسها على صدرها من جديد، «الدفتر ليس هنا. أليس هذا صحيحًا؟ أنت أعطيته إياه. أنت أريته الدفتر. لماذا؟ لماذا فعلت هذا، بحق الرب؟ أي امرأة غريبة، متطفلة، أنت؟ كم أنت مزعجة! هل تدركين معنى ما أقدمت عليه؟».

سألتها إيرين: «ما الذي أقدمت عليه؟ هيا، يا كارلا، أخبريني!».

أغمضت كارلا عينيها وهزت رأسها مثلما يفعل طفل مشاكس.

«ألن تخبريني؟ لا بأس. في هذه الحالة، لماذا لا أقول لك ما فعلته أنت؟ لقد رأيتِ تلك الصور التي رسمها دانييل فتوصلت إلى أنه هو من قتل طفلك. لذا، أنهيت حياته. كانت السكين التي استخدمتِها داخل الحقيبة التي سرقتها لورا. هذا ما جعلها موجودة في شقتها. ثم أتى زوجك -زوجك السابق الذي يحبك أكثر من الحياة نفسها... يحبك لسبب لم أستطع تبينه حتى الآن- أتى زوجك وحمل كل شيء على عاتقه. فماذا عنك؟ أنت مكتفية بالجلوس هنا والقول إن لا علاقة لك بالأمر كله. ألا تحسين شيئًا على الإطلاق؟ ألست خجلة من نفسك؟».

كانت كارلا منكبّة على الميدالية. كتفاها متهدلتان. تمتمت قائلة: «ألا أحسّ شيئًا؟ بحق الرب، يا إيرين! ألا ترين أنني نلت من المعاناة ما يكفيني؟».

ها هو جوهر الأمر. إنه هنا. هكذا قالت إيرين في نفسها. بعد ما عانته كارلا، كيف يمكن أن يكون لشيء من الأشياء أي قدر من الأهمية؟ قالت لها: «أعرف أنك مررت بمعاناة فظيعة».

لكن كارلا لم تقبل سماع هذا. فحّت من جديد: «أنت لا تعرفين شيئًا. أنت غير قادرة على إدراك...».

«على إدراك ألمك!؟ قد لا أكون قادرة على إدراك ألمك. لكن، يا كارلا، هل تظنين حقًا أن فقدانك ابنك بتلك الطريقة المأساوية الفظيعة يمنحك الحق؟».

قبالتها كانت كارلا جاثمة كأنها مستعدة للانقضاض عليها. كانت الآن ترتعش، ترتعش حزنًا وغضبًا. لكن هذا لم يثن عزيمة إيرين. تابعت تقول لها: «أتظنين نفسك، لأنك عانيت تلك الخسارة الفظيعة... أتظنين أن هذا يمنحك الحق في إلحاق الأذى بكل شيء، في فعل كل ما يحلو لك فعله؟».

«ما يحلو لي فعله!؟». نهضت كارلا واقفة على قدميها معتمدة بإحدى يديها على درابزين السلم. كانت على الدرجة الثالثة، مشرفة على إيرين من علوّ. قالت بنبرة حاقدة، «طفلي مات. وأختي أيضًا. ماتت من غير أن تنال غفرانًا. الرجل الذي أحببته وأحبني ذاهب إلى السجن. أتظنين أن في هذا كله ما يحلو لي؟».

تقدمت إيرين إلى الأمام خطوة صغيرة. قالت لها: «ليس ثيو مضطرًا إلى الذهاب إلى السجن. إن في وسعك تغيير هذا».

سألتها كارلا: «وما نفع تغييره؟ ما... أوه». أشاحت بوجهها تقزّزًا. «محاولة شرح الأمر لك لا معنى لها، فكيف تستطيعين أن تفهمي كيف يكون حب الطفل؟».

النغمة نفسها من جديد! هذا ما ينتهي إليه الأمر دائمًا. لا تستطيعين الفهم. أنت لست أمًا. أنت لم تعرفي الحب أبدًا، لم تعرفي الحب الحقيقي. شيء غير موجود فيك. مهما يكن ذلك الشيء، القدرة على أن تحبي حبًا غير مشروط، حبًا لا حدود له. القدرة على أن تكرهي كرهًا لا حدود له. أنت لا تعرفين هذا ولا ذاك.

شدّت إيرين قبضتيها المتدليتين إلى جانبيها، ثم أرختهما. قالت لها: «قد لا أكون قادرة على فهم هذا الحب. لعلك مصيبة في هذه النقطة. وأما إرسال ثيو إلى السجن!؟ ما علاقة الحب بهذا؟».

شدت كارلا على شفتيها. قالت وقد هدأت قليلًا: «إنه يفهم. إن كان ثيو قد رأى دفتر دانييل مثلما قلت إنه فعل، فهو قادر على فهم السبب الذي جعلني أفعل ما فعلت. وأنت، أنت الواقفة هناك غاضبة، غارقة في إعجابك بنفسك، عليك أيضًا أن تفهمي. لأنني لم أفعل هذا من أجل بن وحده، بل من أجل أنجيلا أيضًا».

هزت إيرين رأسها غير مصدّقة ما سمعته، «من أجل إنجيلا؟ هل تريدين أن تقفي هناك وتقولي إنك قتلت دانييل من أجل أنجيلا؟».

مدت كارلا يدها، وبرقّة مفاجئة، وضعتها على رسغ يد إيرين. أطبقت أصابعها على رسغها وجذبتها صوبها. فجأة، صارت ملامح وجهها صادقة، بل صار فيها ما يشبه الأمل. همست: «متى تظنين أنها علمت بالأمر؟».

«علمت ماذا؟».

«علمت بأمره. علمت بما فعله. علمت حقيقته».

سحبت إيرين يدها وهزّت رأسها. «لا... ما كان ممكنًا أن تعلم أنجيلا بالأمر. شيء مفزع جدًا أن يفكر المرء في هذا، أن يفكر في أنها عاشت مع هذا. لا. على أية حال، ما كان هناك شيء كي تعلمه، أليس كذلك؟».

قالت: «لقد كانت تلك قصة. كتب قصة. رسم قصة. لعله رسمها حتى يستطيع التعامل مع شيء عاشه عندما كان صبيًا صغيرًا. لعله، لسبب من الأسباب، اتخذ لنفسه دور الشرير في تلك القصة. لعله شعر بذنبه. لعله شعر بأنه كان عليه أن ينتبه إلى بن. أو لعل الأمر كان حادثة... لعله كان غلطة». كانت تدرك حقيقة أنها تحاول إقناع نفسها أيضًا، «لعل ذلك كان غلطة طفولية. كان دانييل صغيرًا جدًا. ومن المحتمل أنه لم يكن قادرًا على إدراك العواقب».

خفضت كارلا رأسها مصغية إليها. «فكرت في ما تقولين. فكرت في هذه الأمور كلّها، يا إيرين. لقد فكرت. لكن، فكّري أنتِ في هذا: لقد كان طفلًا - نعم، كان طفلًا في ذلك الوقت. فماذا عما أتى في ما بعد؟ لنقل إنك محقة. لنقل إن تلك كانت غلطة طفولية، أو حادثة. هذا لا يفسر كيفية تصرفه في ما بعد. كان يعرف أنني ألوم أنجيلا على ما حدث؛ وقد تركني ألومها. تركني أعاقبها. ترك ثيو ينبذها. كان يراقبها وهي تصير، شيئًا فشيئًا، محطّمة تحت ثقل شعورها بالذنب، ولم يفعل شيئًا. في الحقيقة» هزت كارلا رأسها هزة سريعة، «هذا غير صحيح.

لا يصح القول إنه لم يفعل شيئًا. لقد فعل شيئًا - لقد جعل الأمور تزداد سوءًا. قال لطبيبه النفسي إن الذنب في موت بن يقع على أنجيلا؛ وتركني أعتقد أن أنجيلا تسيء معاملته. الأمر كله... كان كل شيء... يا إلهي، بل إنني لا أعرف ماذا كان! لعبة! لعله كان لعبة! كان يلعب بنا لعبة، يلعب بنا كلنا، ويحرّكنا كما يشاء لكي يستمتع بما يراه، على ما أظن، لكي يمنح نفسه إحساسًا بالقوة...».

كان هذا وحشيًا، فظيعًا، كان شيئًا لا سبيل إلى التفكير فيه. أي عقل معوج اعوجاجًا شنيعًا ذلك الذي يفكر على هذا النحو؟ انتبهت إيرين إلى أن الشك قد بدأ يراودها... شك في أن عقل كارلا هو العقل المعوج ذلك الاعوجاج الشنيع. ألم يكن تفسيرها لما جرى من حوادث مفزعًا مثله مثل ما رسمه دانييل في دفتره؟ لكن تفكيرها عاد إلى أنجيلا التي كانت تحمل على ابنها وتتمنى أن يكون خارج الوجود كله، بدت نسخة كارلا من تلك الحوادث صحيحة إلى حد مفزع. تذكّرت إيرين عشاء عيد الميلاد الذي لم تذهب إليه أنجيلا عندما قالت لها أنجيلا إنها تحسدها لأنها لم تنجب... فكرت في اعتذارها منها في اليوم الذي تلا ذلك. قالت لها، تتمنين *أن يكونوا سعداء حتى إن احترق العالم كله*.

كانت كارلا قد أدارت ظهرها إلى إيرين. بدأت تصعد درجات السلم بخطوات بطيئة، ثم استدارت صوبها من جديد بعد بلوغها أعلاه. قالت لها: «إذًا، كما ترين، كان ذلك من أجلها في جزء منه. يبدو هذا فظيعًا، أليس كذلك؟ يبدو فظيعًا عندما يقوله المرء بصوت مسموع. قتلتُ ابنها من أجلها. لكن هذا حقيقي... حقيقي بطريقة من الطرق. فعلته من أجلي، من أجل ابني، من أجل ثيو؛ لكني فعلته من أجلها أيضًا. قتلت دانييل لأنه جعل حياة أنجيلا خرابًا».

بعد عودة إيرين إلى بيتها، جلست تفكّر في أن من حسن الطالع أن

الأشخاص الذين هم مثل كارلا لا يقيمون كبير اعتبار للعجائز من أمثال إيرين، بل يستصغرون شأنهم ويعتبرونهم أشخاصًا مضجرين، ذاهلين، ضعيفي العقول، ميّالين إلى النسيان. صحيح أن هذا يكون مزعجًا، بعض الأحيان، لكنه يمكن أن يكون أمرًا حسنًا. فعلى أقل تقدير، كان حظها طيبًا هذا اليوم لأن كارلا رأتها امرأة تنتظر موتها، امرأة ما عادت من هذا العالم، ما عادت تواكب طرائقه المعقدة وتطوراته التكنولوجية وآلاته وأدواته، وهواتفه الذكية، وتطبيقات تسجيل الصوت التي فيها.

- 38 -

انقلب الطقس مرة أخرى. وعلى غير انتظار، أزاحت الهواء الصقيعي الذي ظل مسيطرًا طيلة الأسبوع الماضي موجةُ دفء هبت رياحها آتية من البحر المتوسط. منذ يومين فحسب، كانت ميريام متجمّعة على نفسها أمام مدفأة الحطب متدثّرة بمعطفها ومن حول رقبتها وشاح دافئ. أما الآن، فقد صار الدفء كافيًا لأن تخرج وتجلس على سطح زورقها الخلفي حتى تشرب قهوة الصباح وتقرأ الصحيفة.

ما أتت به الصحيفة كان مادة صالحة لقصة روائية: أخلت الشرطة سبيل مايرسون مع أنه لا يزال يواجه اتهامات بتعطيل عمل الشرطة وهدر وقتها وحرف العدالة عن مجراها؛ في حين صارت زوجته الآن تواجه الاتهام بارتكاب جريمة قتل بعد أن حصلت الشرطة (لم يذكروا اسم المصدر) على اعتراف صوتي مسجَّل مثير.

إذًا، اتضح في آخر المطاف أن الشخص الذي كانت ميريام تحاول تصويره مرتكب جريمة قتل دانييل ساذرلاند هو نفسه الشخص الذي قتل دانييل ساذرلاند. فما قولكم في هذا؟ أليس ينبئ بالكثير عن مهارات ميريام التصويرية؟

مادة صالحة لحبكة روائية! ما كانت ميريام قادرة على منع نفسها من الضحك. تُرى، هل سيحاول ثيو مايرسون استخراج رواية جديدة من هذه الفوضى كلها؟ لعل عليها أن تحاول بنفسها استخراج رواية منها! ألن يكون هذا انقلابًا حسنًا؟ إذا أخذت ميريام قصة حياة ثيو واستخدمتها مادة روائية، وحوّرتها وأدارتها مثلما يحلو لها، وجرّدته من قدراته، من كلماته، من قوته...

لكن، مع هذا، لعل هناك سبيلًا أكثر سهولة -سبيلًا يكاد يكون مضمونًا أنه أكثر ربحًا- أكثر بكثير: ماذا عن مكالمة هاتفية سريعة مع صحيفة ديلي ميل؟ كم يدفعون لقاء معلومات عن خفايا حياة ثيو مايرسون؟ لن يكون مبلغًا بسيطًا! هذا ما فكرت فيه ميريام لأن مايرسون واحد من ذلك النوع من الأشخاص الذين تمقتهم ديلي ميل أشد مقت: ثري، ذكي، مثقف، صاحب ميول يسارية، من نخبة العاصمة، لكنه الآن صار في مهب الريح.

أنهت قهوتها، ثم سارت متثاقلة صوب طاولة المطبخ في زورقها. فتحت اللابتوب. ما كادت تكتب عبارة «كيف تجعل صحيفة تشتري منك قصة» في نافذة البحث في غوغل حتى سمعت نقرة على نافذتها. رفعت رأسها فكادت تسقط عن كرسيها. إنه مايرسون! كان يقف على حافة ممر المرسى، منحنيًا ينظر عبر نافذة الكابينة.

خرجت إلى سطح زورقها الخلفي. رأت ثيو واقفًا على مسافة بضعة ياردات منها، متجهم الوجه، دافنًا يديه في جيبيه. بدا كأن السن قد تقدّمت به كثيرًا منذ آخر مرة رأته، منذ اقتادته الشرطة. لكنه لا يزال على حاله، لا يزال ذلك الرجل الضخم صاحب الوجه المحمرّ. على أنه بدا الآن نحيلًا، مضغوطًا، منكمشًا. بدا لها بائسًا. انقبض قلبها في صدرها. ينبغي أن تقفز فرحًا – أليس هذا ما أرادت؟... أن تراه في حالٍ بائسة؛ وأن تراه يعاني. فلماذا، بحق الرب، تجد نفسها مشفقة عليه؟

قال لها: «انظري! هذا كافٍ! هل تفهمين؟ أنا... أنا على ثقة تامة من قدرتك على إدراك أنني أمر بمرحلة صعبة...». رفع كتفيه. «لا أستطيع حتى أن أصوغ بالكلمات ما يعبر عما أمر به. نعم. أرى المفارقة في هذا. على أية حال، ما أريد قوله هو إنني لست راغبًا في إدخال الشرطة في هذه الحكاية. شبعت منهم خلال الشهر الماضي. نلت منهم ما يكفيني طيلة عمري. ولكن، إذا واصلتِ مضايقتي، فلن تتركي لي أي خيار آخر».

«عفوًا. ماذا تقول؟ مضايقتك! لم أقترب منك أبدًا».

تنهد ثيو. تنهد بصوت مرهَق جدًا. أخرج ورقة مطوية من جيب سترته الداخلي. فتح الورقة بحركة بطيئة، بتأنٍ شديد. بدأ القراءة بصوت مسطّح خالٍ من أي تلوين. «مشكلة من هم مثلك هي ظنهم *أنهم فوق الجميع. ما كانت تلك القصة قصتك؛ وما كان لك أن ترويها. هي قصتي. ما كان من حقك استخدامها مثلما فعلت. عليك أن تدفع للناس لقاء استخدام قصصهم. عليك أن تلتمس منهم إذنًا بذلك. فمن تظن نفسك حتى تستخدم قصتي؟*... إلى آخره، إلى آخره. وصلتني عدة رسائل مثل هذه الرسالة. الحقيقة ليست مثلها تمامًا لأنها كانت تبدأ دائمًا بتعبير مهذب عن الاهتمام بأعمالي، وكان واضحًا أنها مصمَّمة بحيث توقع بي وتجعلني أقول شيئًا عما أوحى لي بالقصة. لكن ذلك التهذيب اختفى سريعًا. بلغتِ سريعًا جوهر المسألة. أنتِ تعرفين جوهرها. أنتِ من كتب جوهرها. خاتم البريد على الرسائل يشير إلى أنها آتية من آيلينغتون. كرمى للرب، يا ميريام! واضح أنك حاولت التمويه على هويتك، لكن...».

كانت ميريام تنظر إليه فاغرة فمها، غير مصدّقة. قالت: «هذه الرسائل ليست مني. لعلك سرقت قصة شخص آخر أيضًا! لعلك تفعل هذا طيلة الوقت!».

مكتبة
t.me/t_pdf

«أوه، بحق الرب!».

«الرسائل ليست مني».

تراجع ثيو إلى الخلف خطوة وأطلق تنهيدة طويلة، راجفة. سألها: «هل تريدين مالًا؟ أعني، أنت تقولين هنا، ’*عليك أن تدفع للناس لقاء استخدام قصصهم*‘. إذًا، أهذا هو الأمر؟ كم تريدين؟ كم من المال تريدين حتى تتركيني في سلام؟». تكسّر صوته فذُعِرت ميريام عندما بدا لها أن الدموع تكاد تطفر من عينيها، «فقط حتى تتركيني وشأني، حتى تبتعدي عني؟».

سارعت ميريام إلى مسح وجهها بكم ثوبها. نزلت إلى ممر المرسى. مدت يدها قائلة: «من فضلك، هل أستطيع رؤيتها؟». ناولها ثيو الصفحات من غير أن يطرح أي سؤال.

كان الورق رقيقًا، رديئًا. بدت الكتابة عليه طفولية، متأنية.

مايرسون،

لماذا لا ترد على رسائلي؟ مشكلة من هم مثلك أنهم في ظنهم فوق الجميع. ما كانت تلك القصة قصتك؛ وما كان لك أن ترويها. هي قصتي. ما كان من حقك استخدامها مثلما فعلت!!! عليك أن تدفع للناس لقاء استخدام قصصهم. عليك أن تلتمس منهم إذنًا بذلك. فمن تظن نفسك حتى تستخدم قصتي. بل إنك لم تقم بالأمر على نحو حسن. القاتل في القصة ضعيف. فكيف لرجل ضعيف أن يفعل ما فعله؟ على أية حال، ما أدراك أنت بهذا الأمر؟ أنت لم تبدِ أي احترام.

كانت تهز رأسها. قالت وهي تقلب الأوراق بين يديها: «هذه ليست مني. ليس ممكنًا أن تظنها رسائل مني - هذا الشخص يكاد يكون أمّيًا».

بدأت قراءة الرسالة الثانية

لقد أخذتك الشرطة. يعني هذا أنك، في آخر المطاف، لست أحسن من بقية الناس. لعل علي الآن أن أبلغ الشرطة عنك لأنك سرقت قصتي. على الأقل، ينبغي أن يكون هناك شيء تدفعه مقابل ذلك. لكن السؤال الذي يحيرني فعلًا هو: كيف عرفت أن الأغنية كانت «بلاك ريفر»؟

تجمدت أنفاس ميريام في صدرها.

سوف أتركك وشأنك، ولن أكتب إليك مرة أخرى، شريطة أن تقول لي كيف عرفت أنها كانت هذه الأغنية.

مادت الأرض تحت قدميها. قرأت الجملة بصوت مسموع:

«**شريطة أن تقول لي كيف عرفت أنها كانت هذه الأغنية**».

قال ثيو: «إنه اسم الأغنية. ليس إشارة إلى المكان الذي يحمل هذا الاسم. إنه...».

قالت ميريام: «أعرف هذا». كان العالم يستحيل سوادًا؛ وكانت الظلمة تطبق عليها سريعًا فلا تستطيع دفعها عنها. فتحت فمها لكنها كانت غير قادرة على إدخال هواء إلى رئتيها. عضلاتها لا تعمل. الحجاب الحاجز لا يعمل. عضلات ساقيها وذراعيها لا تعمل. ارتعشت ارتعاشًا عنيفًا. صارت كأنها لا ترى شيئًا. كان وجه مايرسون الفزِع آخر ما رأته عيناها قبل أن يُغمى عليها.

«كانت الأغنية في السيارة، في الراديو. تلك الأغنية. أتذكر كيف مد يده إلى جهاز الراديو لكي يغير الأغنية. أراد تغيير المحطة، لكن لورين طلبت منه ألا يغير المحطة. كانت تغني. كانت تغني. قالت لها: 'ألا تعجبك هذه الأغنية؟ إنها أغنية بلاك ريفر'».

وضع مايرسون كأس ماء على الطاولة الصغيرة إلى جانب فراشها، ثم انتصب واقفًا بحركة خرقاء. نظر إليها. ينبغي أن يكون هذا أمرًا محرجًا: ثيو مايرسون يساعدها، ويحملها من حيث سقطت، من حيث أغمي عليها كأنها آنسة رقيقة سخيفة من العصر الفيكتوري تسقط مغميًا عليها في يوم حار. تسقط على ممر المرسى فينقلها إلى الزورق، بل ينتقلان متعثرين معًا كأنهما زوج من العجائز. يضعها في فراشها كأنها طفلة. كأنها عاجزة. لو كانت ميريام الآن قادرة على الإحساس بالخجل، لخجلت خجلًا شديدًا. لكنها ما كانت قادرة على الإحساس بشيء غير نوع من ذعر حائر. كانت مستلقية على ظهرها، عيناها مصوَّبتان إلى ألواح السقف الخشبية. كانت تحاول التركيز على

تنفسها، شهيق، زفير، وتحاول التركيز على الآن، على هنا. لكنها لم تستطع. لم تستطع لأنه معها.

سألها: «من رآها غيري... أعني مخطوطتك؟ من قرأها غيري؟».

قالت ميريام: «لم يرها أحد غيرك إلا لورا كيلبرايد. لكن هذا كان منذ فترة وجيزة جدًا. وبحسب ما قالته الصحف، ليست لورا في وضع يسمح لها بكتابة رسائل إلى أي شخص. لم يرها أحد غير لورا».

قال ثيو مائلًا فوقها وهو يحك صلعة رأسه الكبيرة: «لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا. لقد جعلت المحامي يراها، أليس كذلك؟ لا بد أنك فعلت ذلك. بالتأكيد، جعلت محاميّ يراها عندما تقدمت بتلك الشكوى... بتلك المزاعم».

أغمضت ميريام عينيها: «لم أرسل المخطوطة كلّها إلى أي إنسان. اخترت بضع صفحات فقط. أشرت إلى مواضع تماثل كثيرة. لم أذكر الأغنية أبدًا. لم أذكرها أبدًا مع أنها... مع أنها قد تكون أوضح دليل على سرقتك». كشّر ثيو. بدا كأنه أراد قول شيء، لكنه عدل عن ذلك. «لم أشأ ذكر غناء لورين، بل لم أشأ حتى أن أفكر فيه، أن أفكر في آخر مرة سمعت فيها صوتها، في آخر مرة كانت فيها خالية البال، فرحة... آخر مرة كانت فيها غير خائفة».

أفلت ثيو أنفاسه بطيئًا: «يا ربي! هل تمانعين؟». أشار إلى الفراش. مرت بميريام لحظة دهشة لم تكن واثقة خلالها مما أراد. جلس واضعًا مؤخرته الضخمة على زاوية السرير، على مسافة إنش من قدم ميريام، أو إنشين. «هذا غير ممكن، يا ميريام. إنه ميت. جيريمي ميت. أنت قلت هذا. الشرطة قالت هذا....».

قالت له: «تمنيت أن يكون قد مات؛ وقد تبنت الشرطة هذه الفرضية. يقول أشخاص إنهم شاهدوه في أماكن كثيرة – في إيسيكس وسكوتلندا والمغرب. تتبعت الشرطة هذه الأنباء، أو قالت إنها تتبعتها.

لست أدري إن كانوا قد تعاملوا معها بأي قدر من الجدية. لكنك تعرف هذا كله، ألا تعرفه؟ إنه وارد في كتابك».

قال ثيو بصوت شبه باكٍ: «كان هناك شيء عن قدم مقطوعة». قال هذا واحمرّ وجهه.

أومأت ميريام برأسها. «وجد أطفال يلعبون عند الشاطئ على مقربة من هاستينغز قدمًا بشرية مقطوعة. كان ذلك بعد بضعة أسابيع من اختفاء جيريمي. كانت من مقاس ولون مطابقين. زمرة الدم أيضًا. كان هذا كله قبل عصر الـDNA. لذا، ما كانت هناك طريقة للتحقّق التام من الأمر. افترضوا أنها قدمه. ظنوا أن الأمواج تقاذفته بين الصخور في مكان من الأماكن، أو أنه علق بمروحة مركب في البحر. على أية حال، كانت تلك نهاية القصة. توقّفوا عن البحث».

كان ثيو يهز رأسه، قال: «لكن، فكري في هذا. إن كان قد أفلح في الفرار بطريقة من الطرق، ثم لفّق قصة موته، وغيّر هويته، فلا بد أن يكون هناك ضحايا آخرون، أليس كذلك؟ أعني فتيات أخريات، نساء أخريات. رجل مثل هذا، قادر على تكرار فعل ما فعله بك وما فعله بصديقتك... رجل مثل هذا لا يقدم على تلك الفعلة مرة ثم يتوقف».

قالت ميريام: «قد يتوقف. أين نجد مكتوبًا أن الأمر يستهويهم جميعًا؟ لعله جرّب ذلك فلم يعجبه. لعله أخافه. لعله لم يجده مرضيًا ولم يجد أنه حقق توقّعاته. أو لعله...». تمايل الزورق قليلًا مع مرور سيارة عابرة، ففتحت ميريام عينيها حتى تركّز على السقف من جديد... «ولعله لم يفعلها مرة واحدة فقط. لعله كرّر تلك الفعلة مرة بعد مرة لكن الناس لم يربطوا بين تلك الحوادث. في تلك الأيام، كان هذا أكثر سهولة. كان سهلًا على الرجال من أمثاله أن يواصلوا ارتكاب جرائمهم، أن يرتحلوا، أن يظلّوا قابعين على الهامش، أن يتابعوا حياتهم ويواصلوا فعل ذلك على مر السنين. من الممكن أن يكون قد سافر خارج البلاد.

من الممكن أن يكون قد غيّر اسمه. من الممكن أن يكون...». تلجلج صوتها، «من الممكن أن يكون في أي مكان».

تحرّك مايرسون في جلسته على سريرها. ما عاد جالسًا عند قدميها، بل إلى جانبها. مد يده وأمسك يدها - كانت شبه عاجزة عن تصديق هذا. قال لها: «إن لدي عنوان بريده الإلكتروني. سوف تكون الشرطة قادرة على استخدامه من أجل تعقبه. أستطيع تقديم هذه الرسائل إلى الشرطة. وأستطيع أن أشرح لهم... نستطيع أن نشرح لهم معًا... نستطيع أن نشرح لهم كل شيء». لاقت عيناه عينيها، «كل شيء».

سحبت ميريام يدها. *كل شيء*؟. كان مايرسون يقدم لها اعتذاره. فهمت هذا. كان يقرّ بفعلته. إذا ذهبا إلى الشرطة حاملين هذه الرسائل، فسيكون عليهما أن يوضحا السبب الذي جعل مايرسون يتلقاها، وأن يشرحا كيف استنتجا معًا أن رجلًا واحدًا على وجه الأرض كلّها يمكن أن يكون يعرف هذه الأغنية، ويعرف ما تشير إليه. إذا فعلا هذا، فسوف يكون ثيو قد كشف نفسه... سيكون عليه أن يعترف بأنه استوحى قصته من ميريام. سوف يتحقّق لها كل ما أرادت.

رفرفت عيناها. هزت رأسها. قالت: «لا. لا. لن ينجح هذا». مسحت وجهها بظهر يدها، ثم نهضت مستندة إلى مرفقيها، «لن تتصل بالشرطة! سوف تتصل به. سوف ترد على أسئلته... على بعض أسئلته». توقّفت لحظة حتى تفكر في الأمر، «نعم. سوف تتواصل معه وتعتذر منه لأنك أهملت رسائله. سوف ترتب لقاء معه».

أومأ ثيو برأسه شادًّا على شفتيه. دعك رأسه بيده. «أستطيع فعل هذا. أستطيع أن أطلب منه لقاء لكي نناقش أسئلته. وعندما يأتي، تكون الشرطة هناك. ستكون الشرطة في انتظاره».

قالت ميريام بنبرة حازمة: «لا. لن تكون الشرطة في انتظاره».

نظر ثيو في عينيها لحظة طويلة. أشاح بوجهه عنها وقال لها: «لا بأس».

- 39 -

ها هي الآن هنا، في غرفة النوم الخلفية في بيت إيرين، تنظر إلى السرير المفرد المرتب ترتيبًا أنيقًا، وإلى منشفة ذات لون أصفر متألق مطوية عند حافة السرير. في الغرفة خزانة ملابس ورفوف للكتب وطاولة إلى جوار السرير، طاولة وضعت عليها لورا تلك الصورة المشوَّهة، صورتها مع والديها. نظرت إلى الصورة لحظة قبل أن تقلبها مديرة وجهها إلى الجدار.

من أسفل السلم، كانت قادرة على سماع صوت ضحكات إيرين، ضحكات فتيّة إلى حد مفاجئ. كانت تستمع إلى شيء في الراديو، برنامج يطلبون فيه من الناس أن يتكلّموا أطول مدة يستطيعونها من غير تكرار شيء قالوه، ومن غير أن يتردّدوا. وجدت لورا الاستماع إلى ذلك البرنامج أمرًا محيّرًا، لكنه كان مصدر بهجة لإيرين. هذا أمر جميل في حد ذاته!

ما إن فرغت لورا من فك أمتعتها -لم يكن لديها الكثير- لكنها مضطرة الآن إلى فعل كل شيء بيد واحدة - حتى جلست على السرير واستندت إلى الجدار بظهرها. راحت أصابعها تداعب حافة الجبيرة عند رسغها. بدأت حواف الجبيرة تتفتت قليلًا. أصغت إلى أصوات أشخاص يتحركون خلف الجدار. أصواتهم همهمة خفيضة. كان ذلك البيت -بيت أنجيلا- معروضًا للبيع. وكان هناك تيار متواصل من أشخاص يأتون لمعاينته. لكن أيًا منهم لم يتقدّم بعد بعرض لشرائه... أو، هذا ما قاله لها الوسيط العقاري. قال متذمّرًا عندما التقته في الزقاق

أمام البيت، «فضوليون يجمعون معلومات من أجل برامجهم التافهة على الإنترنت». كان يدخن سيجارته متوترًا.

قرع بعضهم باب إيرين أيضًا، لكن لورا صرفتهم جميعًا. كان يأتيها أيضًا مراسلون صحافيون حقيقيون، إلا أن إيرين رفضت الكلام مع أي منهم. لقد أدت ما عليها من كلام، أمام الشرطة. وأيضًا، أدت ما عليها من إصغاء، ومن تسجيل - افتخرت لورا بها كثيرًا. كان فخرًا أحمق مجنونًا... افتخرت بها أكثر مما افتخرت بأي فرد من أفراد عائلتها، طيلة حياتها - بدأت لورا تدعوها «الآنسة ماربل»[1]، لكن إيرين كانت سريعة سرعة مفاجئة في إبداء انزعاجها من هذا اللقب. ما جعلها تكف عن استخدامه.

والآن، راحت إيرين تتكلّم عن ذهابهما معًا في رحلة، أو شيء من هذا القبيل. تتكّلم في الفترات الفاصلة بين استماعها لبرامج في الراديو وقراء كتبها، ومساعدتها لورا في التعامل مع المسائل القانونية التي لا مفر منها: المطالبة بتعويض مادي عن الإصابات الشخصية التي لحقت بها، وموعد مثولها أمام المحكمة. كانت لدى إيرين رغبة قديمة في الذهاب إلى مكان اسمه بوزيتانو، فهناك صوّروا ذلك الفيلم عن «هانيبال ليكتر»[2].

قالت لورا لإيرين إن لا مال لديها من أجل الذهاب في رحلات، إلا إذا حصلت على تعويض مادي. لكن إيرين قالت إن هذه ليست مشكلة. أضافت: «لدينا مدخراتنا، أنا وويليام». قالت لورا إنه لا يجوز لهما إنفاق ذلك المال. فاكتفت إيرين بإطلاق صوت استهجان.

قالت لها: «لماذا لا ننفقه؟ لا نستطيع أخذه معنا».

انتاب لورا نوع من الدوار. لعله انخفاض في ضغط الدم، ولعله

---

(1) الآنسة ماربل: شخصية محورية في روايات «أغاثا كريستي».

(2) هانيبال ليكتر: فيلم عن قاتل كان يأكل ضحاياه.

الأثر المدوّخ لرؤية الآفاق تنفتح أمامها من جديد بعد أن ضاقت زمنًا طويلًا جدًا.

لكنهما لن تذهبا الآن إلى أي مكان. لا يزال على لورا أن تتعافى من ارتجاج في الدماغ، وكسر أحد أضلاعها، فضلًا عن يدها اليسرى المحطّمة. تلك الفتاة، الفتاة الطويلة ذات الحلقة في أنفها، رفعت قدمها الكبيرة وسحقت بها يد لورا. قال لها الطبيب، «إن في اليد سبعةً وعشرين عظمةً». أشار إلى صورة على الشاشة لكي يريها حجم إصابتها، «وفي يدك الآن خمس عشرة عظمةً مكسورةً. أنت محظوظة جدًا...».

قاطعته لورا: «بالتأكيد، أنا محظوظة جدًا».

ابتسم لها الطبيب ابتسامة متلطفة: «أنت محظوظة لأن تلك الكسور قابلة للإصلاح مع معالجة فيزيائية صحيحة، أتوقّع أن تكوني قادرة على استخدام يدك من غير أية مشكلة».

آه... عودة إلى المعالجة الفيزيائية! تمامًا مثلما حصل في الماضي.

قالت والدة لورا: «الظاهر أننا درنا دورة كاملة فعدنا إلى حيث كنا». كانت تبكي بكاء هستيريًا إلى جوار سرير لورا. بكت زمنًا لعله استمر بضع دقائق، لكن لورا أحسّته أيامًا. «لا أستطيع تصديق أننا عدنا إلى هذه النقطة... إصاباتك خطيرة، وأنت في المستشفى».

«مع هذا... هذه المرة، على الأقل، لم يكن من فعل بي هذا شخصًا ترينه سرًا دهسني بسيارته وجرى هاربًا، أليس كذلك؟».

لم تبق أمها عندها زمنًا طويلًا. أبوها بدوره لم يطِل البقاء لأن دييدره كانت في السيارة، في انتظاره خارجًا. أوقفت السيارة في مكان لا يُسمح بالوقوف فيه. أطلق ضحكة عصبية، وقال: «مع قليل من الحظ، سوف يقطرون سيارتها ويأخذونها بعيدًا». ألقى من فوق كتفه نظرة كأنه قلق

من احتمال أن تسمعه. شد على يد لورا السليمة وقبّل جبهتها واعدًا بأن يزورها ثانية عما قريب.

قال عندما توقف بالباب لحظة قبل خروجه: «ربما يكون ذلك عندما تتحسّنين. قد نستطيع أن نمضي وقتًا أطول معًا. بل من الممكن أن نسكن معًا. ما قولك في هذا، يا دجاجتي؟».

هزّت لورا رأسها: «بابا، لا أستطيع. لقد جرَّبنا هذا. أنا وديبدره... لن ينجح الأمر أبدًا».

أومأ برأسه بشدّة. قال: «أوه، أعرف هذا. أعرف أنك غير قادرة على العيش معها من جديد. كنت أفكر في زمن أبعد... بعد أن أهجرها».

ابتسمت لورا له محاولة طمأنته. لن تظل منتظرة إلى أن يحدث هذا.

***

أتى البيضة لزيارتها. إنه المحقّق باركر. هذا هو اسمه. أفلحت أخيرًا في تثبيت هذا الاسم في ذهنها، لكنه سيحمل دائمًا اسم البيضة... في سرها. أتى حتى يقول لها إنه حزن كثيرًا لما أصابها، وحتى يقول أيضًا إن ميريام التي تعيش في زورق في القناة قد أسقطت شكواها في حق لورا. قال لها: «اعترفت بأن مفتاح شقتك كان معها. كان علينا أن نكلمها في شأن عدد من الإفادات التي قدمتها أثناء التحقيق ثم اتضح أنها غير صحيحة تمامًا».

ابتسمت له لورا وقالت: «يفاجئني هذا. يفاجئني حقًا».

رفع حاجبه: «روت لنا قصة. زعمت أنها حاولت مساعدتك على الرغم من ظنها أنك أنت من قتله. وكانت، في الوقت نفسه، تحاول جعل الاتهام يتجه إلى كارلا مايرسون التي كانت تظنها بريئة واتضح آخر الأمر أنها مذنبة».

قالت لورا: «وأنتم لم تستطيعوا إدراك ذلك».

ابتسم لها. قال قبل أن يخرج: «سوف نظل على اتصال، يا لورا.

لا تزال هناك مسألة الحقيبة التي سرقتها وكانت فيها السكين وعلبتا الحلي».

ذكّرته لورا: «لا تنس مسألة الشوكة أيضًا».

«صحيح، بالطبع. الشوكة».

أتى الليل. لورا راقدة في سريرها المفرد، متدثّرة بملاءات قديمة. كف يدها السليمة مستندة إلى الجدار الذي كانت غرفة دانييل واقعة إلى الناحية الأخرى منه. كان في هذا نوع من تكرار مخيف. كيف بدأ الأمر بأن كانت في فراش دانييل، ثم انتهى بها إلى فراش آخر لا تفصله عن غرفة نومه إلا بضعة إنشات من جدار بيت قديم.

كثيرًا ما تعود -في ذهنها- إلى تلك الليلة على زورقه، إلى بزوغ الفجر - الأمر الغريب في هذا هو أن ما يعذبها الآن ليس دانييل، ولا ذلك التغير المفاجئ في مسلكه، ذلك الانقلاب السريع من الرقة الساحرة إلى الفظاظة... ما كان يعذبها تذكّر تلك النظرة في عينيه عندما انقضَّت عليه مكشرة عن أسنانها.

لا، يعذبها أنها غير قادرة على أن تبعد عن ذهنها تلك اللحظة التي تركت فيها الزورق، عندما خطت من سطحه الخلفي إلى اليابسة، ورفعت رأسها ناظرة ناحية اليمين. رأت في تلك اللحظة، في غبش الفجر الرمادي، امرأة واقفة على الجسر تنظر إليها. ما يعذبها الآن هو أنها لا تستطيع تفسير التعبير الذي رأته في وجه تلك المرأة. لا تستطيع تفسيره حتى لو كانت حياتها متوقّفة على ذلك. لا تستطيع القول إن كان تعبير حزن أو غضب، تعبير ضعف أو تصميم.

خاتمة

العثور على رجل ميت في زورق في القناة.

أوقفوني هنا إن ظننتم أنكم سمعتم هذا الكلام من قبل.

سمعت كارلا تلك الشائعات، وسمعت النكات السخيفة من أفواه بقية النساء. سمعتها وقت الغداء. *أهو واحد آخر من قتلاك؟ أنت فتاة كثيرة الأشغال، ألست كذلك؟* ذهبتْ عصر ذلك اليوم إلى مكتبة السجن. ما كان مسموحًا لها أن تقرأ أخبار الجرائم في الإنترنت؛ لكن أقنعت واحدة من الحارسات (حارسة من أشد المعجبين بكتابات مايرسون) بطباعة تلك القصة في البيت، وبإحضارها معها.

شخص مشتبه في ارتكابه جريمة قتل عُثر عليه مقتولًا

تم العثور في زورق نصف غارق في قناة ريجنت على جثة جيريمي أوبرين متفسخة إلى حد كبير. يبلغ أوبرين الثامنة والخمسين سنة؛ وهو معروف أيضًا بأسماء أخرى: هنري كارتر وجيمس هنري براينت. كان مطلوبًا من أجل جريمة قتل المراهقة لورين ريد في سنة 1983. وقد ظنت الشرطة في وقت سابق أنه أنهى حياته بنفسه وذلك بعد اختفائه عقب أيام من مقتل ريد.

وبحسب ما تقوله الشرطة، فالظاهر أن أوبرين عاش مع زوجة أبيه في إسبانيا منذ الثمانينيات حيث استخدم اسم جيمس هنري براينت. لحقت به إصابات بليغة في حادثة سيارة وقعت له سنة 1988، إذ عانى إصابة في عموده الفقري، وصار يستخدم كرسيًا ذا عجلات. تقول الشرطة إنها تظنّه عاد إلى بريطانيا بعد وفاة زوجة أبيه وإنه عاش في مؤسسة للإيواء في شمال لندن مستخدمًا اسم هنري كارتر.

على الرغم من وجود نقاط تشابه بين مقتل أوبرين ومقتل دانييل ساذرلاند منذ ستة شهور عندما كان عمره ثلاثة وعشرين سنة (اكتشفت الجثتان في زورقين في القناة. وقد مات الشخصان على إثر طعنات في الصدر والرقبة)، تقول الشرطة إنها لا تربط بين الحادثتين وتشير إلى أن المرأة التي أدينت بجريمة قتل دانييل ساذرلاند (اسمها كارلا مايرسون؛ وهي الآن حبيسة سجن برونزفيلد منذ شهر تموز) قد قالت أمام المحكمة إنها ارتكبت تلك الجريمة بالفعل وأدلت باعتراف كامل.

توقّفت كارلا عن القراءة. طوت الورقة وأعادتها إلى السجانة. قالت لها: «أشكرك. قال ثيو إنه سيرسل إليك عن طريق البريد نسخة من آخر كتاب له عليها توقيعه».

بعد بضعة أيام، تلقت كارلا رسالة من باحثة في ميدان الجريمة تسألها إن كانت تستطيع زيارتها لكي تتكلما في قضيتها. ما كانت لدى كارلا أية رغبة خاصة في الحديث مع أي شخص في ما يخص قضيتها، لكنها كانت شديدة التوق إلى تبادل الحديث مع شخص حظي بقدر من التعليم. وافقت على المقابلة.

أتت المرأة مشرقة العينين، متزيّنة حديثًا. رأتها كارلا شابة صغيرة السن إلى حد يصعب تصديقه، ثم اتضح لها أنها طالبة تأمل في الحصول على المرتبة الأولى (لعلها تأمل أيضًا أن تنشر كتابًا عن هذا الأمر!)، وذلك اعتمادًا على أطروحتها التي تريد أن تجعل كارلا في مركزها. كان في هذه القضية اعتراف كاذب؛ فهل من المحتمل أن يكون فيها اعترافان كاذبان؟ أمن من الممكن أن تكون كارلا (التي آذت نفسها بنفسها) قد وقعت ضحية سوء تطبيق العدالة؟ أيكون هناك قاتل متسلسل يستهدف الرجال الذين يعيشون في قناة ريجنت، أو على مقربة منها؟ أيكون هناك قاتل متسلسل يستهدف قتلة آخرين؟

كانت الفتاة المسكينة مخلصة في عملها، مخلصة إلى حد مؤلم

جعل كارلا آسفة عندما فجّرت فقاعة الافتراضات التي طرحتها. ما من سوء تطبيق للعدالة. قالت هذا للشابة بصوت هادئ... وما من قاتل متسلسل ناشط في منطقة القناة. لا علاقة للقضية الأولى بالقضية الثانية.

«لكن زوجك... لقد ظن أن...».

ابتسمت لها كارلا ابتسامة اعتذار: «أوه، أفهم الآن أنك تحدّثت إلى ثيو! يؤسفني القول إن عليك ألا تصدقي كلامه بالتمام. إنه شخص حالم يعيش في عالم خاص به».

«إذًا، كان من المؤكد... تؤكدين أنك من فعل هذا». سارعت الشابة إلى قول هذا وقد ارتسمت خيبة الأمل على وجهها الجميل كله.

أومأت كارلا برأسها. قالت لها: «نعم، أنا من فعل هذا».

«لا بأس، لماذا؟ ألا تقولين لي السبب؟».

هزت كارلا رأسها: «قلت لك في الإيميل إنني غير مستعدة للخوض في تفاصيل خلفية ما حدث. آسفة».

«أوه، حقًا! لكنك لست من النمط المعتاد - أنت من الطبقة الوسطى، متعلّمة، غير متزوجة...».

سألتها كارلا: «ما علاقة هذا بأي شيء؟ أعني، إن كنتُ متزوجة أو غير متزوجة».

«نعم... عادة ما تكون القاتلات نساء يعشنَ حياة تقليدية - متزوجات، ولهن أطفال... هذا النوع من الأمور. لا يمكن وضعك ضمن هذا القالب».

قالت كارلا بنبرة حزينة: «كنت متزوجة، وكان لي طفل ذات يوم».

«نعم، لكن... لا بأس». أُسقط في يدها. ألقت على الغرفة نظرة تشي بالتعاسة، لكنها نظرة أمل أيضًا... مثلما يفعل شخصٌ وجد نفسه عالقًا مع شخص مضجر في حفلة من الحفلات فراحت عيناه تتجولان باحثتين عن إمكانية الحديث مع شخص أكثر إثارة للاهتمام. قالت آخر

الأمر: «لا بأس. على الأقل، هل لك أن تجيبي عن هذا السؤال: هل أنت نادمة؟».

عندما قدّمت كارلا اعترافها أمام إيرين (هو غير الاعتراف الذي أدلت به أمام الشرطة، لأن الاعتراف أمامهم كان غير مكتمل أبدًا، بل كان نصف اعتراف. حصلت الشرطة على «الهيكل العظمي» وحده؛ ورفضت كارلا أن تمضي في تفاصيل «اللحم»)، كانت قد أسقطت من حسابها احتمال أن يكون ما أقدم دانييل على فعله غلطة طفولية فحسب. ذكرت التعذيب والتلاعب، وكانت تعني ما تقول.

لكنها الآن، عندما تترك عقلها يجري على هواه -ما كان يفعل شيئًا إلا أن يجري على هواه- تراه يذهب إلى أماكن تتمنى تمنيًا صادقًا ألا يذهب إليها.

صارت تتساءل إن كان ما رأته، في اندفاعة غضبه الأولى، تلاعبًا بالناس من جانب دانييل يمكن أن يكون شيئًا آخر في حقيقة أمره. فماذا لو كانت تصرفات دانييل الغزلية غير محسوبة؟ ماذا لو أنها كانت أسلوبه في الحب، لا أكثر؟ ماذا لو كان شخصًا لا يعرف أن يتصرّف بطريقة أخرى؟ ألا تكون القصة التي روتها لنفسها أكثر بعدًا عن الحقيقة حتى من الأسطورة التي صنعها دانييل من نفسه؟

كان ذلك سيرًا في طريق مظلمة. لم تلبث أن صارت أكثر ظلمة عندما أدركت كارلا أنها طريق في اتجاه واحد: لا يبدأ المرء السير فيها حتى يصير الخروج منها مستحيلًا، وما من سبيل إلى أن يعود أدراجه.

هذه الأيام، عندما تفكّر كارلا فيما أقدمت عليه، ترى فعلتها في ضوء مختلف. ما عاد بصرها مخدَّرًا بفعل الألم، بفعل البهجة (نعم، كانت بهجة في تلك اللحظة المحمومة). الآن، صارت ترى ما فعلته. دم. دم كثير. الصوت الذي صدر عنه، تلك الخرخرة المغثية في

حنجرته. بياض عينيه المجنون. رائحة الحديد. رائحة البول. رائحة عذابه. رائحة ذعره.

لا بد أنها كانت مجنونة. أتراها تكون قادرة على رواية تلك القصة لنفسها؟ أتكون قادرة على إقناع نفسها بأنها كانت فريسة الألم، فريسة الحزن، فتصرّفت من غير تفكير؟

كانت تجلس في صالة الزائرين في أكبر سجن للنساء في أوروبا كلها تشاطرها المكان نفسه نساء حائرات، حزينات، محرومات، وأيضًا، بالطبع، أسوأ ما يقدمه كون المرأة امرأة بريطانية، كانت تسأل نفسها: أتكون منتمية إلى هذا المكان؟

فبعد كل حساب، ما الذي كان ممكنًا أن تفعله بطريقة مختلفة لو لم تكن مجنونة؟ لو كانت عاقلة، فهل تقدر على ترك الأمر على حاله؟ أكانت تقدر على اختيار المضي في عيش حياتها بعد أن علمت ما فعله دانييل، فاختارت أن تقفل عليه باب عقلها وتحبسه في مكان ما؟ فقط، كيف كان ممكنًا لها أن تختار ذلك اختيارًا عاقلًا؟ كيف كان ممكنًا أن تختار العيش في عالم لا يزال دانييل حيًّا فيه، في عالم من المحتمل أن تراه فيه، أن تتنفّس الهواء الذي يتنفسه؟ عالمٌ فيه احتمال لأن تكون في نفسها مشاعر نحوه -شيء من الرقة- شيء يشبه الحب.

كان عليها أن تقتل هذا الاحتمال.

«يا سيدة مايرسون. هل أنت نادمة؟».

مكتبة
t.me/t_pdf

تنويه من الكاتبة

المواقع في هذا الكتاب مستوحاة من الشوارع والبيوت القريبة من قطاع من قطاعات قناة ريجنت واقع بين آيلنغتون وكليركنول في لندن. لا الشوارع مصورة تصويرًا تام المطابقة لواقعها، ولا البيوت. لقد استفدت من الحرية الفنية المتاحة للكاتب حيثما وجدت ذلك مناسبًا.

مكتبة
t.me/t_pdf

شكر

أشكر سارا آدمز وسارا ماكغراث لمراجعتهما الكتاب ببصيرة ثاقبة وبصبر لا حدود له.

أشكر ليزي كرايمر وسايمون ليبسكار، أفضل وكيلين أدبيين على ضفتي المحيط الأطلسي. أشكرهما على نصائحهما الذكية ومساندتها الدائمة.

أشكر كارولين ماكفرلين الفائزة في مزاد CLIC سيرجينت الخيري لأنها سمحت لي باستخدام اسمها.

أشكر قرائي الأوائل بيتينا غاباه، وفرانكي غراي، وأليسون فيربراذر.

وأخيرًا، أشكر سايمون ديفيس لأن الرب وحده يعلم أن السنوات الماضية الثلاث ما كانت سهلة.

مكتبة
t.me/t_pdf

عن المؤلفة

عملت باولا هوكينغز صحافية مدة خمس عشرة سنة قبل تحولها إلى الكتابة الروائية. ولدت وترعرعت في زيمبابوي، ثم انتقلت إلى لندن سنة 1986، وعاشت فيها منذ ذلك الوقت. حظيت روايتها الأولى «فتاة القطار» بشهرة عالمية كبيرة وباعت ثلاثةً وعشرين مليون نسخة في أرجاء العالم. نُشرت في أكثر من أربعين لغة، واحتلت المرتبة الأولى على قائمة الكتب الأكثر مبيعًا في العالم؛ كما احتل الفيلم الذي استوحي منها، وكانت بطلته إيميلي بلانت المرتبة الأولى في شباك التذاكر. وأما روايتها المتميزة الثانية «في عتمة الماء»، فقد احتلت بدورها المرتبة الأولى على قائمة الكتب الأكثر مبيعًا على مستوى العالم، وظلت عشرين أسبوعًا على قائمة صنداي تايمز للروايات الأكثر مبيعًا حظيت خلالها بالمرتبة الأولى على امتداد ستة أسابيع.

مكتبة
t.me/t_pdf

telegram @t_pdf

على الفور، احتلت هذه الرواية المرتبة الأولى
في قائمة نيويورك تايمز للكتب الأكثر مبيعًا.

بتلك القوة الدافعة نفسها التي استحوذت على ألباب الملايين ممن قرأوا روايتَيّ «فتاة القطار» و«في عتمة الماء»، تمضي باولا هوكينز في سرد حكاية آسرة كثيرة التعرجات، حكاية خيانة وقتل وانتقام.

يثير العثور في زورق على شاب مقتول بطريقة فظيعة أسئلة تتركز على ثلاث نساء: لورا ذات الشخصية المضطربة التي كانت آخر من شوهد في مسكن القتيل بعد قضائها ليلة معه. خالته الثكلى كارلا التي فجعت قبل أسابيع فقط بفرد آخر من أفراد عائلتها. والجارة الفضولية ميريام التي عثرت على الجثة لكن لديها أسرارًا تخفيها عن الشرطة.

ثلاث نساء لا تكاد واحدتهن تعرف عن الأخرى شيئًا، ولكل منهن علاقة مستقلة بالقتيل. نساء ثلاث في نفس كل واحدة منهن -ولأسباب مختلفة- حقدٌ قديم هاجع مثل جمر تحت رماد. نساء متحرّقات إلى التعويض عما وقع عليهن من ظلم. حتى الأخيار يمكن أن يقدموا على أفعال فظيعة ساعة الانتقام. فما الشوط الذي قد تقطعه كل واحدة من تلك النسوة في سعيها إلى الفوز براحة النفس؟ وكم يمكن أن تظل الأسرار مشتعلة في الخفاء قبل أن تنفجر نارها؟

رواية مشوّقة، حارقة، من مؤلفة «فتاة القطار» التي احتلت رأس قائمة نيويورك تايمز للكتب الأكثر مبيعًا، واختارها القراء في موقع «غودريدز» كأفضل رواية لعام 2015.

***

«صادمة ومؤثّرة وعاطفية، في نسيجها حسٌّ فكاهيٌّ، ولحظات من الرعب الخالص، رواية على نار هادئة تقدم لنا مؤلفة في قمة إبداعها»

London Observer

«لا يستطيع توقّع نهاية الكتاب إلا قارئ نافذ البصيرة»

New York Times

ISBN 978-614-472-199-5

منشورات الرمل

توزيع حصري: دار التنوير